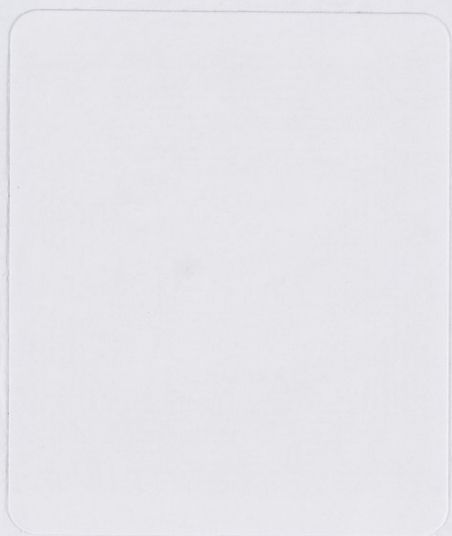


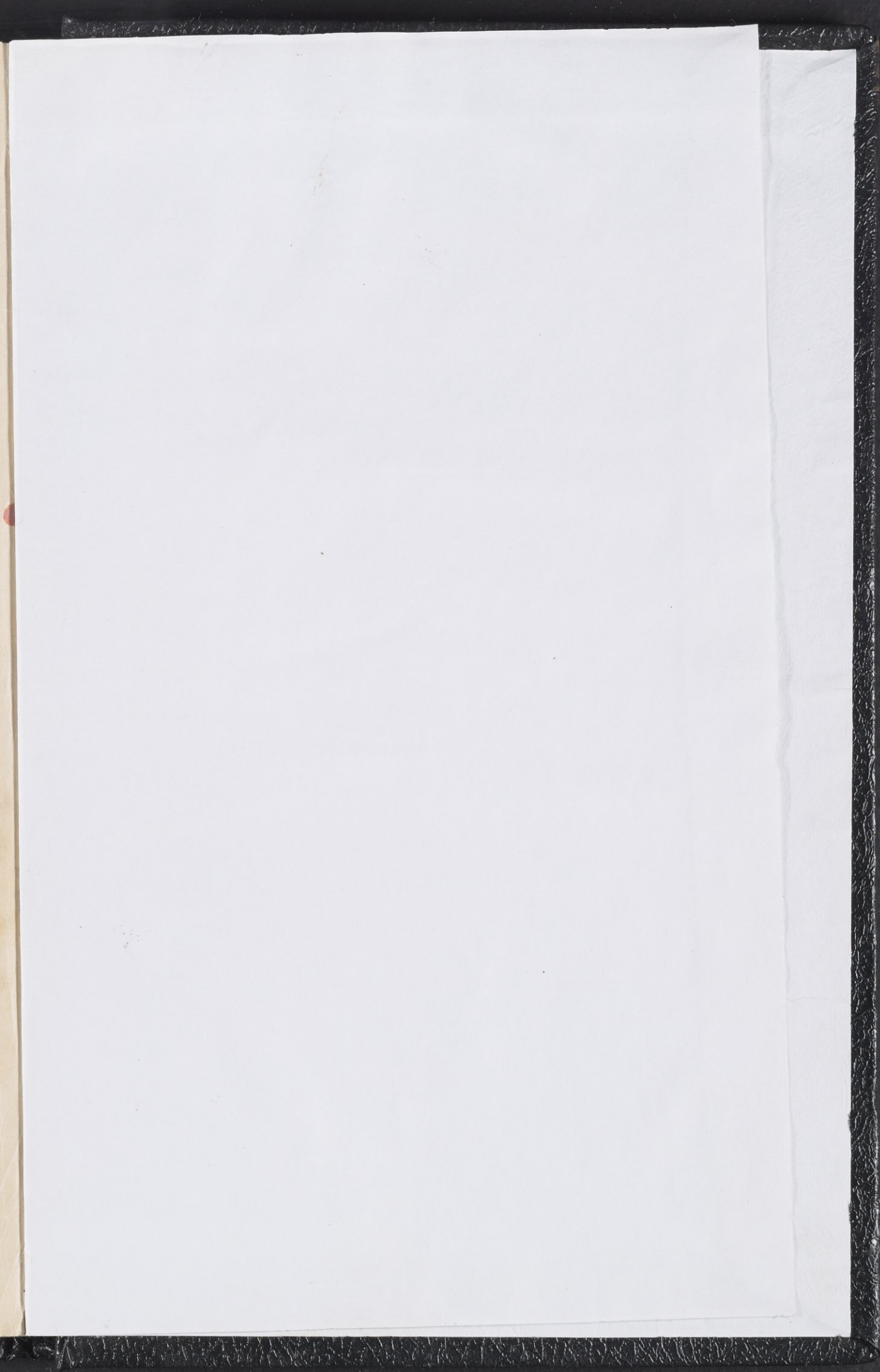
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01184 2444







HQ

19

12

1950

طوق الحمامة

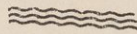
في الألفّة والألاف

تأليف

الإمام الفقيه

أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم

المنوفى ٤٥٦ هـ



وقدم له

الأستاذ إبراهيم الأبياري

حققه وصوبه وفهرس له

الأستاذ حسن كامل الصبري

٨١٨

B 12034241

i 1333590X

ح. ط. ح

١٢٦٩ هـ - ١٩٥٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

31704

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تعريف وتقدير

بقلم

الأستاذ إبراهيم الأبياري

الحديث عن ابن حزم أبي محمد على يلفتنا إلى الرجوع إلى آبائه وحيث أوطنوا ، فهو كما يقول العارفون بالأنساب ، ابن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح ابن خلف بن معدان بن صفيان بن يزيد ، مولى يزيد بن أبي سفيان . فهو من أرومة مشرقية ، أول نازح منها إلى الأندلس « خلف » ، ولم تكن « لبلة » التي في غربي الأندلس ، والتي اتخذها الآباء موطنهم ، مقام خلف الأول فيما نظن ، ولا تسعفنا المصادر بشيء مجمل أو مفصل عن تلك الأيام الخالية من حياة الجد النازح ، ولكننا نكاد نلحس من تنشئة ابن حزم وأبيه أبي عمرو أحمد بن سعيد أن الأسرة كانت على إرث من علم وآخر من نباهة وجاء مكننا للوالد ثم للابن من بعده في أن يكونا بين رجالات الدولة المقدورين ومن أعلامها المبرزين ، وأن يزور ابن حزم للمستظهر بالله عبد الرحمن ثم للمعتمد بالله ، بعد أن وزر أبوه المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر ولا بنه المظفر بعده .

وكانت الرغبة في العلم والإفادة منه شغل ابن حزم الشاغل ، وأعباء الوزارة صارفة ، والاضطلاع بمهام الدولة معوق ، بله ما يحاك لأولى الأمر من دس ، وبييت لهم بليل ، ويزور عليهم من قول ، فهذا إلى غيره يعوزه رجل لا يفرغ

إلا له ولا يلتفت لسواه ، إن كلف بالبقاء للحكم يديره ، وشاء أن يخلص للمنصب يحميه . ولم تكن تلك ذات نفس ابن حزم ، فالرجل كان عالماً قبل أن يكون وزيراً ، مقبلاً على الاستزادة من العلم ، مشغولاً بالنظر فيه والتأليف عنه ، حريصاً على أن تشيع له آراؤه وتخلد نظراته ، لهذا برم بما يرغب فيه غيره ، وانصرف عن جاه الحكم إلى جاه العلم يكتب وينظر ويحاج .

ولسنا ممن يرى الأمر رغبة صرفت عن أختها ، ولكننا نكاد نخال بابن حزم فترة نشأ بها ، وضعفاً لم يملك القوة عليه ، ثم غلبة لخصومه ، وحيلة ظافرة ، وكلمة مسموعة . فليس في طبع الإنسان أن يعدل عن جاه مطموح فيه إلى عزلة وانزواء لهذا الذي يذكره الذاكرون عن ابن حزم من رغبة في العلم والانقطاع له . والرجل نافث على أعدائه ، واغر الصدر عليهم ، متربص بهم ، راج أن يديل منهم كما أدالوا منه ، تسمع له ذلك بين سطور كتابه هذا الذي نقدم له . ومن يحمل لخصومه ما حمل ابن حزم بعيد أن يترك الحكم راغباً عنه زاهداً فيه لرغبة في العلم والافادة منه ، ولكن شيئاً آخر جدير أن يُضم إلى تلك الرغبة وذلك الزهد ، هو قلة حيلة ابن حزم عن أن يصمد لخصومه ، وضيقه بأمرهم ذرعاً . فهرب إلى حيث يجد مأمنه ، وفرغ إلى حيث يرى أنه بمنجاة من أذاهم ، وخلص إلى علمه وكتبه .

ولغير الجاه الزمني عادي المعادون ابن حزم ، أو قل إن أردت أن تكون مع الحقيقة ، لم يكن هذا وحده داعي الخصومة وباعث هذا الشر ، بل كان أكثره هذا الذي فرّ إليه ابن حزم يرجو فيه الهدأة والطمأنينة .

فالرجل كان على رأي لا يقره عليه العلماء من حوله ، كان ظاهرياً صريحاً في غير موارد ، جريئاً لاتلين له قناة ، قائلًا بما يعتقد ، ناطقاً عن فكر صقلته البيئة الأندلسية بما تضم من رفاهية حرة ، وغذته من تقاليد شائعة موروثة .

وحقبة طويلة كالحقبة التي نشأت ابن حزم كفيلة بأن تزيد وتشكل ، وتغير

وتبدل في مفهوم من هم على طواعية واستجابة لداعى البيئة وحاديها ، وما بنا أن
نكشف لك أوجه الخلاف بين ابن حزم ومساجليه ، فذلك شيء يطول ومرده
إلى ما ألف ، وإلى ما تعلم عن كل ظاهري ، ولكنك واجد في تنكر الناس لرأيه
ونفرتهم من قوله ما يقفك على أن ابن حزم كان على غير ما يرى الناس ، وأن الناس
كانوا على غير ما يرى ، وأنهم رأوه ضالا منحرفا ، فسعوا به وحر كواله العامة
فامتدت أيديهم إلى كتبه حرقا وتمزيقا ، وهو لا يملك إلا أن يقول :

وإن تحرقوا القراطاص لا تحرقوا الذى تضمينه القراطاص بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبي وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى
دعونى من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من ستر

لا وفّر ابن حزم منهم بعدما فر من الوزارة حيث يصيب الأمن المنشود ، والمقر
المودود ، يترك بادية إلى بادية ، وقد ضيق عليه فى مراده ، فيقول فى حساده :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ولكن عيى أن مطلعى الغرب
وإن رجلا ضيعونى لضيع وإن زمانا لم أنل خصبه جذب

ولا أحيلك على غير موجود لتفيد شيئا عن ابن حزم وتعرف من رأيه ، فبين
يديك كتابه « طوق الحمامة » لم يسكت فيه الرجل عن شيء رآه يقوم دليلا على
ما يرى إلا ذكره ، ولا يطوى فيه ما درج الناس على أن يطووا مثله ، فهو يرى
أنه بسبيل التدليل على فكرة ، وما أحوج الفكرة إلا أن تبسط معها أدلتها
وشواهدا لتثبت وتصح . والحب وما إليه شيء ألف الناس أن يكتموا أسرار
ويخفوا ما يحيط به ، وأن ينزهوا أنفسهم عن معالقه ويظهروا البراءة من مأخذه ،
وأن يطلعوا على الناس فى غير مظانه ، بعداء عن أسبابه . ويرى ابن حزم أن يعلن
حيث يسرون ، ويجهر حين يكتمون ، إذ الحقيقة لا يحصها إلا أن يشيع عنها مالها

وما عليها ، ويمهد لدرسها بكل ما يتصل بها . فانطلق يورده وللجدة من حوله ما عُرف لهم وسمع عنهم ، في غير استحياء ولا نقصان ، لا يريد تشهيراً فيما نعلم ، ولكنه أسلوبه في الدرس ، وطريقته في التمهيد .

هذا مثل لابن حزم يدل على نهجه في التفكير وطريقته في الدرس تستطيع أن تعرف به الرجل بعض المعرفة ، ويكشف لك عن شيء مما أثاره الناس حوله وكان سبباً لتلك الحرب التي صلى بها إلى أن مات رحمه الله سنة ٤٥٦ من الهجرة .

أما عن علم الرجل وطول باعه فيه وجلده عليه وسهره له فشيء تناقله الرواة وكتبه له المؤرخون . ذكروا أن الباجي أبا الوليد سليمان شارح الموطأ اجتمع به يوماً يفاظره فقال له الباجي وهو يحاوره : أنا أعظم منك همة في طاب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمسكة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل . فقال له ابن حزم : هذا كلام عليك لا لك ، لأنك طلبت العلم رجاء حال تريد تبديلها بمثل حالي ، ولكني طلبته لأرجو إلا نفعه دنيا وأخرى .

وفيه يقول ابن بشكوال : كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة ، مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار .

وقريب من هذا قول أبي مروان بن جيان فيما يروى عنه : كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم القديمة من المنطق والفلسفة .

وما دمننا قد رجعنا إلى الأثبات نذكر لهم رأيهم في ابن حزم ، فما أحقنا أن نستأنس بشيخين جليلين ، أما أولهما فهو الذهبي وإليك قوله : وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل

العربية والآداب والمنطق والشعر ، مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب .

وأما ثانيهما فالغزالي فاسمع إليه : وجدت في أسماء الله تعالى كتابا لأبي محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسلامة ذهنه .

وبعد هذا فمؤلفات الرجل كثيرة أجلبها في أصول الفقه وشروحه . يروى ابنه الفضل أبو رافع أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة .

ويهلول هذا ياقوت فيقول : وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفا .

ويغريني هذا إلى أن أعود إلى لين ابن حزم أمام خصومه ، وفوزهم دونه بقلوب الملوك وعقول العامة ، ثم نيلهم منه هذا النيل الذي أسلفنا بيانه . وقد عرفتك بالرجل صريحا قوالا ، لا يعي رأسه الرأي إلا انحدر منه على لسانه ، ودلتك على كتابه « طوق الحمامة » شاهد ما أقول .

ولكن ترى هذا وحده يمكن للخصوم من مقتل الرجل ، ويجمع العامة مع الخاصة عليه ؟ وأرى ابن خلكان يضم إلى الرأي رأيا ويزيدنا عن صراحة الرجل بيانا فيقول : وقد قال أبو العباس ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين ، وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدمين لا يكاد يسلم أحد من لسانه . فنفرت عنه القلوب واستهدف لفقهاء وقته فتمالثوا على بغضه وردوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم من الدنو إليه والأخذ عنه .

وقد استجاب لهم هؤلاء وهؤلاء ، فهجر ابن حزم كرسي الحكم عن برم به بعد رغبة من الملوك عنه ، وبطش به العلماء بأيدي العامة لأنه ملك أن يقول

بلسانه في موروث عاداتهم وتقاليدهم ، وهذه وتلك من هوى العامة ودينهم ، فما أسرع هبتهم لها وأقرب ثورتهم .

بقى أن أزيدك عن سر خلاف الرجل عن نهج قومه وخروجه على مألوفهم ، وقد سُقت إليك طرفا وكتمت طرفا : قلت لك إن آباء ستة سبقوا ابن حزم في هذه البيئة الأندلسية ، وفيها بنوا بيوتهم ونسلوا ، وكلما مر بهم يوم أخذوا من البيئة وأعطوا ، ولم يظفر المهدي بابن حزم سنة أربع وثمانين وثلثمائة إلا بعد أن أظلت سماء الأندلس هذا البيت الحزمي قرابة قرن ونصف قرن . وغير هذا البيت صحبته هذه السنون أو فوقها دون أن تحور في بنيان عقله . وهنا مكان الطرف المكتوم ، فقد انتهيت عند سوق آباء ابن حزم الى «يزيد» وعرفتكم به مولى ليزيد من أبي سفيان ولم أزد ، فاعرف أن هذا المولى كان على غير الإسلام فأسلم ، ومن الفرس أصله . ومن هنا التقت في ابن حزم طبيعتان ، إحداهما موروثة والأخرى مكسوبة ، وقد مكنت الموروثة للمكسوبة أن تستشري ، فكان من هذا المزاج «ابن حزم» الناقد الحر الجريء ، ذو الأسلوب الجديد وصاحب النهج المبتدع . وأراني قد قلت كثيرا عن ابن حزم ولم أقل عن كتابه طوق الحمامة إلا في معرض الاستشهاد به عن صراحة الرجل وحرصه على أن يجمع بين يدي موضوعه أدلة لا يستثنى .

وقبل أن أصلاك بما حوى الكتاب وضم يعينني أن أنقل إليك أن الذين ترجموا لابن حزم سكتوا عن ذكر هذا الكتاب بين مؤلفاته ، غير «المقرى» في نفح الطيب ، وابن القيم الجوزية في روضة المحبين . أما ابن القيم فقد صرح باسم الكتاب في غير موضع . وأما المقرى فقد أورد هذا الخبر ، وأنا أورده هنا لأن الأصل المنشور يفقده ، قال المقرى : قال ابن حزم في طوق الحمامة : إنه مر يوما هو وأبو عمر بن عبد البر صاحب الاستيعاب بسكة الخطابين بمدينة إشبيلية ، فلقيهما شاب حسن الوجه . فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة . فقال له أبو عمر :

لم نر إلا الوجه فلعل ماسترته الثياب ليس كذلك . فقال ابن حزم ارتجالا :
وذى عذل فيمن سباني حسنه يطيل ملاحي في الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له أسرفت في اللوم فأتد فعندي رد لو أشاء طويل
ألم تر أنى ظاهري وأنني على ماأرى حتى يقوم دليل
ولسنا نحاول أن ننفي عن الرجل كتابه ، وأن نضع الشك موضع مايقن
الناس به . ففي الكتاب من الأخبار المروية عن ابن حزم والحديث عن أبيه
ومعاصريه مايدفع هذا . وإنما أردنا شيئا آخر نذكرك به حين نذكرك بملك
الجاهة التي ذهبت بكتب الشيخ أو قل نالت منها .

وقد عاش الشيخ بعدها عمرا ليس بالقليل ، ولعله فرغ في تلك الحقبة يلم
ماتفرق ، ويجدد ماتحرق ، ويسد الخلل ويرقع الفتق .

ويكاد يملأ علينا إهمال جل المتحدثين عن ابن حزم ذكر هذا الكتاب بين
مؤلفاته أن الكتاب وضع بأخرة وقبل النكبة بقليل . وأقطع أنه كان بعد أن نبذ
الوزارة ونبذته ، فقد حدث في الكتاب عن نفسه ، فهو يقول : « وبويع على بن
حمود الحسنى ، المسمى بالناصر ، بالخلافة . . . وفي إثر ذلك نكبتني جيران صاحب
المرية ، إذ نقل إليه عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنا نسعى في القيام بدعوة
الدولة الأموية .

وغير هذا — ولا أكاد أقطع — أن الكتاب — وكان استجابة لرغبة
صديق فقيه محدث متأدب — لو عرف لابن حزم متقدما ، وهو على غرار يفيد
منه خصومه ، لذاع اسمه وشاع ولم يخف على من خفى عنهم .
أعنى أنه لم يمكن له من الظهور والشيوع ، لذلك الذى حال بين الناس
وابن حزم أن ينقلوا له ويأخذوا عنه .

وشىء أخير ، وهو أن يذكر « المقرئ » نقلا عن الكتاب ما ليس في الكتاب

المعروف للناس ، ومنه يعود الشك أقرب إلى اليقين أن الكتاب كان من بين ما امتدت إليه الأيدي ، وأن ما وجد منه بين يدي فئة كان غير ما وجد منه عند غيرهم زيادة ونقصا ، وإن صح هذا فقد يصح غيره . ولعل تلك اللفتة تكاد تملئ علينا بأن الكتاب منقوص ولا يزال منه في بطون الغيب أوراق ، لم يسعها مخطوط ولم تتصل بتدوين مدون ، ولا يعلم إلا الله مصيرها .

وبعد فإن يعرض ابن حزم للحب على ورع منه ونسك ، فيعالجه معالجة صريحة حازمة ، ويخوض فيه غير كاتم ولا مُبق في ذلك السرد الطريف ، وعلى هذا النهج القويم وتلك الفكرة العميقة ، والنظرة الدقيقة ، لشيء يثير الإعجاب ويدعو إلى التقدير ، وكأني بابن حزم حين عانى الحب وذاقه ، ووجد مذاقه على ألسنة من حوله من إخوان له ، رآه بابا للحديث ، وهو العالم الناظر ، فسجل فيه رأيه مستمدا شواهد من حوله ، وما أصدقها شواهد .

وأكد أقف ولا أمضي فبين يدي بحث طويل ممتع لأستاذ الجليل صاحب المعالي الدكتور طه حسين بك ، فصل فيه الرأي عن ابن حزم تفصيلا ، وربط بينه وبين « ستندال الايطالي » . وأفاض في الكلام على الرجلين ، وقد كنت حريصا على أن أنفع به فأسوقه هنا كله ، إذا اقتطاعه لا يغني ، ولكني أكتفي بأن أشير إلى مكانه من مجلة الكاتب المصري في العدد الخامس من المجلد الثاني الذي صدر في فبراير سنة ١٩٤٦

بقي على بعد هذا أن ~~هنا~~ أعود إلى الصديق الناشر الأستاذ الشاعر حسن كامل الصيرفي الذي هيا لي أن أنظر في عمل له جدير بالقدر والشكر ، فأهنته على جهده وما عانى ، في أصل شاه وجهه ، وانحرفت كلماته ، فقوم منه ما وسعه التقويم ، وصوب وحقق ، فجاء صورة مقروءة أقرب إلى السلامة وأدنى إلى الصواب . ولعل الزمن والسعي يسعفانه بأصل جديد يحقق به الأمنية الأخيرة لهذا الكتاب القيم .

والله أسأل له ولي العون والتوفيق .

ابراهيم البياري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

قال أبو محمد عفا الله عنه : أفضل ما أبتدىء به حمد الله عز وجل بما هو
أهله ، ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع أنبيائه عامة ، وبعد .
عصمنا الله وإياك من الحيرة ، ولا حملنا مالا طاقة لنا به ، وقيض لنا من
جميل عونه دليلاً هادياً إلى طاعته ، ووهبنا من توفيقه أدباً صارفاً عن معاصيه ،
ولا وكلنا إلى ضعف عزائمنا وخور قوانا ووهاء بنيتنا وتلد آرائنا وسوء اختيارنا
وقلة تمييزنا وفساد أهوائنا ؛ فإن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني
بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك ما يسرني . وحمدت الله عز وجل عليه
وأستدمته لك واستزدته فيك . ثم لم ألبث أن اطلع على شخصك وقصدتني
بنفسك ، على بعد الشقة وتنائي الديار وشحط المزار وطول المسافة وغول الطريق ،
وفي دون هذا ما سلمى المشتاق ونسى الذاكر ، إلا من تمسك بمجل الوفاء مثلك ،
ورعى سالف الأذمة ووكيد المودات وحق النشأة ومحبة الصبي وكانت مودته لله
تعالى . ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون . وكانت
معانيك في كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ، ثم كشفت إلى
ياقبالك غرضك وأطلعتنى على مذهبك ، سجية لم تزل علينا من مشاركتك لي
في حلولك ومرك وسرك وجهرك ، يحذوك الود الصحيح الذي أنا لك على
أضعافه ، لا أبتغي جزاء غير مقابلته بمثله . وفي ذلك أقول مخاطباً لعبيد الله بن
عبد الرحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر رحمه الله في كلمة لي طويلة وكان
لي صديقاً :

أودك ودًا ليس فيه غضاضة
وأمحضتك المصحح الصريح وفي الحشى
وبعض مودات الرجال سراب
لودك نقش ظاهر وكتاب

فلو كان في رُوحى هواك أقتلعتُه ومُزّق بالكفين عنه إهاب
وما لي غيرُ الود منك إرادةً ولا في سواه لي إليك خطاب
إذا حُزته فالأرض جمعاء والورى هباءً وسكان البلاد ذباب
وكلفتني أعزك الله أن أصنّف لك رسالةً في صفة الحب ومعانيه وأسبابه

وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا مُتزيّداً ولا مُفترفاً ، لكن مُورداً
لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه ، حيث أنتهى حفظي وسعة باعى فيما
أذكره ، فبدرتُ إلي مرغوبك . ولولا الإيجاب لك لما تكلفتُه ، فهذا من
الفقر ، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألاّ نصرفها إلا فيما نرجو به رَحْب المُنقلب
وحسن المآب غداً وإن كان القاضي حمام بن أحمد حدثني عن يحيى بن مالك
عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبي الدرداء أنه قال : أجموا النفوس بشيء من الباطل
ليكون عوناً لها على الحق . ومن أقوال الصالحين من السلف المرضى . من
لم يحسن يتقّى لم يحسن يتقوّى . وفي بعض الأثر : أريحوا النفوس فإنها تصدأ
كما يصدأ الحديد .

والذي كلفتني لا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي وأدركته عنايتي
وحدثني به الثقات من أهل زمانه ، فاعتفروا لي الكناية عن الأسماء فهي إما
عورة لا نستجيز كشفها وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً .
وبحسبي أن أسمى من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمي عيب في
ذكره ، إما لا شهارة لا يُغنى عنه الطي وترك التبئين ، وإما لرضى من
المخير^(١) عنه بظهور خبره وقلة إنكار منه لنقله .

وسأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته ، فلا تنكر أنت ومن
راها على أني سالت فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلّين
بقول الشعر ، وأكثر من ذلك فإن إخواني يحشمونني القول فيما يعرض لهم على
طرائقهم ومذاهبهم . وكفاني أني ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوت
نحوه وناسبه إلي .

(١) في الأصل : « المحتقر » .

والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك ، والاقتصار على ما رأيت
أو صحّ عندي بنقل الثقات ، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير
سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ، ولا
أتجلى بجلى مستعار ، والله المستغفر والمستعان لا رب غيره .

باب

وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين باباً ، منها في أصول الحب عشرة . فأولها
هذا الباب ، ثم باب في علامات الحب ، ثم باب فيه ذكر من أحب في النوم ، ثم
باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ،
ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ،
ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير .

ومنها في أعراض الحب وصفاته الحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً ، وإن كان
الحب عَرَضاً والعرض لا يحتل الأعراض ، وصفة والصفة لا توصف . فهذا على
مجاز اللغة في إقامة الصفة مقام الموصوف ، وعلى معنى قولنا : وجودنا عرضاً أقل
في الحقيقة من عرض غيره ، وأكثر وأحسن وأقبح في إدراكنا لها علمنا أنها
متباينة في الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة ، إذ لا تقع فيها الكمية
ولا التجزئ ، لأنها لا تشغل مكاناً وهي : باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ،
ثم باب طي السر ، ثم باب الكشف والاذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب الخالفة ،
ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب
الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت .

ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهي باب العاذل ، ثم
باب الرقيب ، ثم باب الواشي ، ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو .
من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة
الذكر ، وهما باب العاذل : وضده باب الصديق المساعد ؛ باب الهجر وضده

باب الوصل . ومنها أربعة أبواب لاضد لها من معاني الحب ، وهى باب الرقيب ،
وباب الواشى ، ولاضد لها إلا ارتفاعهما . وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفاع الأول ،
وإن كان المتكلمون قد اختلفوا فى ذلك . ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس
من جنس الكتاب لتقصيناه .

وباب البين وضده تصاقب الديار ؛ وليس التصاقب من معاني الحب التى
نتكلم فيها . وباب السلو وضده الحب بعينه ؛ إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه .
ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما : باب الكلام فى قبح المعصية ، وباب
فى فضل التعفف . ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحز على طاعة الله عز
وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فذلك مفترض على كل مؤمن .
لكننا خالفنا فى نسق بعض هذه الأبواب هذه الرتبة المقسمة فى درج هذا الباب
الذى هو أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على مبادئها إلى منتهاها واستحقاقها فى
التقدم والدرجات والوجود ، ومن أول مراتبها إلى آخرها ، وجعلنا الضد إلى
جنب ضده . فأختلف المساق فى أبواب يسيرة ، والله المستعان .

وهيئتها فى الإيراد أولها هذا الباب الذى نحن فيه وفيه صدر الرسالة
وتقسيم الأبواب والكلام فى باب ماهية الحب ، ثم باب علامات الحب ،
ثم باب من أحب بالوصف ، ثم باب من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب من
لا يحب إلا مع المطاولة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخافها ،
ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب
السفير ، ثم باب طى السر ، ثم باب إذاعته ، ثم باب الطاعة ، ثم باب الخالفة ،
ثم باب العاذل ، ثم باب المساعد من الإخوان ، ثم باب الرقيب ، ثم باب
الواشى ، ثم باب الوصل ، ثم باب الهجر ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم
باب البين ، ثم باب القنوع ، ثم باب الضنى ، ثم باب السلو ، ثم باب الموت ،
ثم باب قبح المعصية ، ثم باب التعفف .

الكلام في ماهية الحب

الحب — أعزك الله — أوله هزل وآخره جد . دقت معانيه لجلالته عن أن تُوصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة . وليس بمنكر في الديانة ولا بمحذور في الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل . وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير ، منهم باندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء ، والحكم بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله أبنه أشهر من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وأفتتانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله رضى الله عنه وعن جميعهم وأمتناعه عن التعرض للولد من غيرها . ومثل هذا كثير . ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة — وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيسه الحزم وإحياء الدين ، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم — لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل .

وأما كبار رجالهم ودعائم دولتهم فأكثر من أن يُحصوا ، وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر بن عبد الملك بن أبي عامر بواجد ، بنت رجل من الجبائين حتى حمله حبها أن يتزوجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامرين الوزير عبد الله بن مسleme ، ثم تزوجها بعد قتله رجل من رؤساء البربر .

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشي الحسيني أخبرني أن نزار بن معد صاحب مصر لم ير أبنه منصور بن نزار ، الذي ولى الملك بعده وأدعى الإلهية إلا بعد مدة من مولده ، مساعدة لجارية كان يحبها حباً شديداً ، هذا ولم يكن له ذكر ولا من يرث ملكه ويحيى ذكره سواه .

ومن الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية والأزمان القديمة من قد استغنى بأشعارهم عن ذكرهم . وقد ورد من خبر عبيد الله بن عتبة بن مسعود وشعره ما فيه

الكفاية . وهو أحد فقهاء المدينة السبعة . وقد جاء من فتيا ابن عباس رضي الله عنه ما لا يحتاج معه إلى غيره حين يقول : هذا قتيل الهوى لا عقل ولا قود . وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة . الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها . وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال . والشكل دأباً يستدعى شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ، والمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد ، والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود فيما يبيننا فكيف بالنفس ، وعالمها العالم الصافي الخفيف . وجوهرها الجوهر الصعّاد المعتدل ، وسنخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار . كل ذلك معلوم بانفطرة (١) في أحوال تصرف الإنسان (٢) ، فيسكن إليها ، والله عز وجل يقول : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) فجعل علة السكون أنها منه . ولو كان علة الحب حُسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة . ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه . ولو كان للموافقة في الأخلاق كما أحب المرء من لا يساعده ولا يؤاقيقه . فعلمنا أنه شيء في ذات النفس وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تقضى بفناء سببها . فمن ودك لأمر ولّي مع انقضائه . وفي ذلك أقول :

ودادى لك الباقي على حسب كونه تناهى فلم ينقص بشيء ولم يزد
وليست له غير الإرادة علة ولا سبب حاشاه يعلمه أحد

(١) في الأصل : « بالخرقة » .

(٢) ظاهر أن في الكلام هنا نقصاً مؤداه : « وزوجه »

إذا ما وجدنا الشيء علةً نفسه فذاك وجودٌ ليس يَفني على الأبد
 وإِما وجدناه لشيءٍ خلافه فإِعدامه في عُدْمنا ما له وُجد (١)
 وما يؤكِّد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب . فأفضلها محبة المتحابين
 في الله عز وجل ؛ إما لاجتهاد في العمل ، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذاهب ،
 وإِما لفضل عِلْم يُمنحه الإنسان .

ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة
 ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع في جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين
 لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق
 التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس ، فكل هذه الأجناس منقضية
 مع انقضاء عللها وزائده بزيادتها وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها فائرة
 ببعدها . حاشى محبة العشق الصحيح الممكن من النفس فهي التي لا فناء لها
 إلا بالموت . وإنك لتجد الإنسان السالى برغمه (٢) . وذا السن المتناهية ، إذا
 ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين .

ولا يعرض في شيء من هذه الأجناس المذكورة ، من شغل البال والخليل
 والوسواس وتبدل الغرائز المركبة وأستحالة السجاي المطبوعة والنحول (٣) والزفير
 وسائر دلائل الشجا ما يعرض في العشق ، فصحّ بذلك أنه أستحسان رُوحانى
 وأمتزاج نفسانى . فإن قال قائل : لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما
 مستوية ، إذ الجزآن مشتركان في الاتصال وحظهما واحد . فالجواب عن ذلك
 أن نقول : هذه لعمري معارضة صحيحة ، ولكن نفس الذي لا يحب من يُحبه
 مكتنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع

(١) في الاصل : « بإعدامه في عدمنا ما له وحد » .

(٢) في الاصل : « بزعمه » .

(٣) في الاصل : « التحول » .

الأرضية فلم تُحس بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي ، ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة . ونفس الحب متخلصة عالمه بمكان ما كان يشركها في المجاورة ، طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشبهة لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها كالمنطيس والحديد ، قوة جوهر المنطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها ولا من تصنيفها أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها ، كما أن قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه ، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى ، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس ، تطلب ما يشبهها وتنقطع إليه وتنهض نحوه بالطبع والضرورة وبالاختيار والتعمد . وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب إذ لم يبلغ من قوته أيضاً مغالبة الممسك له مما هو أقوى منه . ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها ، فمضى عظم جرم المنطيس ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد عادت إلى طبعها المعهود . وكالنار في الحجر لا تبرز على قوة الحجر (١) في الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد القدح ومجاورة الجرمين بضغطهما وأصطكا كهما ، وإلا فهي كامنة في حجرها لا تبدو ولا تظهر .

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية لا بد في هذا وإن قل ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة . فانظر هذا تراه عياناً ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافرت منها اختلف » ، وقول مروي عن أحد الصالحين : أرواح المؤمنين تتعارف . ولهذا ما أغتم بقراط حين وُصف له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه .

(١) في الأصل : « لا تبرز على قوة النار » .

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظالماً ، فلم يزل يحتجّ عن نفسه حتى أظهر براءته ، وعلم الملك أنه له ظالم ، فقال له وزيره الذي كان يتولى إيصال كلامه إليه : أيها الملك ، قد استبان لك أنه برىء فمالك وله ؟ فقال الملك : لعمري مالى إليه سبيل ، غير أنى أجد لنفسى أستمقلاً لا أدري ما هو . فأدى ذلك إلى أفلاطون . قال : فاحتجت أن أفتش فى نفسى وأخلاقى [أجد] شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها ، فنظرت فى أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم ، فميزت هذا الطبع فىّ ، فما هو إلا أن حرّكته ^(١) هذه الموافقة وقابلت نفسه بهذا الطبع الذى بنفسى ^(٢) فأمر بإطلاقى ، وقال لوزيره : قد أنحل كل ما أجد فى نفسى له .

وأما العلة التى توقع الحب أبداً فى أكثر الأمر على الصورة الحسنة ، فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهى إذا رأت بعضها تثبتت فيه ، فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية ، وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة .

وإن للصور لتوصيلاً عجباً بين أجزاء النفوس النائية . وقرأت فى السفر الأول من التوراة أن النبي يعقوب عليه السلام أيام رعيه غنماً لابن خاله مهراً لابنته شارطه على المشاركة فى إنساها ، فكل بهيم ليعقوب وكل أغرّ للابان ، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفاً ويترك نصفاً بحاله ، ثم يلقى الجميع فى الماء الذى ترده الغنم ، ويتعمد إرسال الطروقة فى ذلك الوقت فلا تلد إلا نصفين ، نصفاً بهماً ونصفاً غُرّاً .

وذكر عن بعض القافة أنه أتى بابن أسود لأبيضين ، فنظر إلى أعلامه فرآه

(١) فى الاصل : « حرّكت » .

(٢) فى الاصل : « بنفسه » .

لها غير شك . فرغب أن يُوقَفَ على الموضع الذي اجتمعما عليه . فأدخل البيت الذي كان فيه مَضْجَعُهُمَا ، فرأى فيما يوازي نظر المرأة صورة أسود في الحائط ، فقال لأبيه : من قبل هذه الصورة أُتيتَ في أبنك .

وكثيراً ما يصرف شعراء أهل الكلام هذا المعنى في أشعارهم ، فيخاطبون المرئي في الظاهر خطابَ المعقول الباطن ، وهو المستفيض في شعر النظام إبراهيم ابن سيار وغيره من المتكلمين ، وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

ما علة النصر في الأعداء تعرفها	وعلة الفرّ منهم أن يفرّونا
إلا نزاعُ نفوس الناس قاطبةً	إليك يا لؤلؤاً في الناس مكنونا
من كنتَ قدّامه لا ينتهي أبداً	فهم إلى نورك الصعّاد يعيشونا
ومن تكن خلفه فالنفسُ تنصرفه	إليك طوعاً فهم دأباً يَكُرونَا

ومن ذلك أقول :

أمن عالم الأملاك أنت أم أنسى	أبن لي فقد أزرى بتمييزي العي
أرى هيئة إنسية غير أنه	إذا أعمل التفكير فالجرم علوى
تبارك من سوى مذاهب خلقه	على أنك النور الأنيق الطبيعي
ولا شك عندي أنك الروح ساقه	إلينا مثلاً في النفوس اتصالي
عدمنا دليلاً في حدوثك شاهداً	نقيس عليه غير أنك مرئي
ولولا وقوع العين في الكون لم نقل	سوى أنك العقل الرفيع الحقيقى

وكان بعض أصحابنا يُسمي قصيدةً لى « الإدراك المتوهم » منها :

ترى كل ضدّ به قائماً	فكيف تحدّ اختلاف المعانى
فيا أيها الجسم لا ذا جهاتٍ	ويا عرضاً ثابتاً غير فان
نقضت علينا وجوه الكلام	فما (١) هو مُذْ لُحْتَ بالمُستبان

وهذا بعينه موجود في البغضة ، ترى الشخصين يتباغضان لالمعنى ، ولا علة ،

(١) في الأصل : « بما » .

ويثقل بعضهما بعضاً بلا سبب . والحب أعزك الله داء عيَاء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقامٌ مستلذ ، وعلة مشتهاة لا يودّ سليمها البرء ، ولا يتمنى عليها الإفاقة . يُزَيِّن للمرء ما كان يأنف منه ، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده حتى يُحيل الطبائع المركبة والحيلة المخلوقة . وسيأتى كل ذلك ملخصاً في باب إن شاء الله .

هــ :

ولقد علمتُ فتى من بعض معارفى قد وَحِلَ في الحب وتورّط في حبائله ، وأضر به الوجد ، وأنضح الدنف ، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء إلى الله عزّ وجلّ في كشف ما به ولا ينطلق به لسانه ، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكّن ممن يُحب ، على عظيم بلائه وطويل همه ، فما الظنّ بسقيمٍ لا يريد فقد سقمه . ولقد جالسته يوماً فرأيت من إكبابه وسوء حاله وإطراقه ما ساءنى فقلت له في بعض قولى : فرّج الله عنك . فلقد رأيتُ أثر الكراهية في وجهه . وفى مثله أقول من كلمة طويلة :

وأستلذّ بلائى فيك يا أملئ ولستُ عنك مدى الأيام أنصرفُ
إن قيل لى تتسلى عن مودّته فما جوابى إلا اللامُ والألفُ

هــ :

وهذه الصفات مخالفة لما أخبرنى به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشىّ . المعروف بالشلشى ، من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، أنه لم يُحب أحداً قط ، ولا أسف على إلف بانّ منه ، ولا تجاوز حد الصّحبة والألفة إلى حدّ الحب والعشق منذ خلق .

باب علامات الحب

وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى إليها الذكىّ . فأولها إدمان النظر ،

والعينُ باب النفس الشارع ، وهي المنقبة عن سرائرها ، والمعبرة لضمائرها .
والمُعربة عن بواطنها . فترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل الحبوب وينزوي
بانزوائه ، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :
فليس لعيني عند غيرك موقفٌ كأنك ما يحكون من حجر البهت
أصرّفها حيث أنصرفت وكيفما تقلبت كالمنعوت في النحو والنعت

ومنها الإقبال بالحديث ، فما يكاد يُقبل على سوى محبوبه ولو تعمّد [غير]
ذلك ، وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدث ،
واستغراب كل ما يأتي به وكأنه عين الحال وخرق العادات ، وتصديقه وإن
كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك وأي
وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمّد للعود بقربه
والدنو منه ، واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، والاستهانة بكل خطب جليل
داعٍ إلى مفارقتها ، والتباطؤ في الشيء عند القيام عنه . وفي ذلك أقول شعراً :
وإذا قمتُ عنك لم أمش إلا مشى عانٍ يُقاد في نحو الفناء
في مجيئِي إليك أحتث كالبد ر إذا كان قاطعاً للسماء
وقيامي إن قمت كالأنجم العالمة الثابتات في الإبطاء
ومنها بهت يقع وروعة تبدو على الحب عند رؤية من يحب فجأة
وطلوعه بغتة .

ومنها اضطراب يبدو على الحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع
أسمه فجأة . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

إذا ما رأت عيناى لا بس حمرٍ تقطع قلبي حسرة وتفظراً
غدا لدماء الناس باللحظ سافكاً وضرّج منها ثوبه فتعصفرا
ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل

ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمسعى في حظه ، كل ذلك ليُبدي محاسنه ويرغب في نفسه . فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب ، وجاهل تأدب ، وتفل^(١) تزين ، وفقير تجميل . وذى سن تفتى ، وناسك تفتك ، ومصون تبذل^(٢) .

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعله واستطارة لهبه . فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سراراً ، والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهاراً . ولى أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات ، منها :

أهوى الحديث إذا ما كان يذكرك لى فيه ويعبق لى عن غير أرج
إن قال لم أستمع ممن يجالسني إلى سوى لفظة المستطرف الغنج
ولو يكون أمير المؤمنين معي ما كنت من أجله عنه بمنعرج
فإن أقم عنه مضطراً فإني لا أزال ملتفتاً والمشى مشى وجى
عيناي فيه وجسمي عنه مرتحل مثل ارتقاب الغريق البر في اللجج
أغص بالماء إن أذكر تباعده كمن تشاب وسط النقع والوهج
وإن تقل ممكن قصد السماء أقل نعم وإني لأدري موضع الدرج
ومن علاماته وشواهد الظاهرة لكل ذى بصر الانبساط الكثير الزائد ،
والتضايق في المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز
الخفي ، والميل بالأتكاء ، والتعمد لمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من
الأعضاء الظاهرة . وشرب فضلة ما بقي المحبوب في الإناء ، وتحري المكان الذى
يقابله فيه .

ومنها علامات متضادة ، وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة
والأسباب المحركة والخواطر المهيجة ، والأضداد أنداد ، والأشياء إذا أفرطت

(١) النفل ، كفرج : المتغير الريح . (٢) فى الأصل : « تمسك » .

في غايات تضادها . ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت ، قدرة من الله عز وجل تضلّ فيها الأوهام ، فهذا الشلج إذا أدمن حبسه في اليد فعل فعل النار ، ونجد الفرح إذا أفرط قتل ، والغم إذا أفرط قتل ، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين . وهذا في العالم كثير ، فنجد المحبين إذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً أكثر بهما جدّهما بغير معنى ، وتضادّهما في القول تعمداً ، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور ، وتتبع كلّ منهما لفظة تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقد به كل واحد منهما في صاحبه . والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر سرعة الرضى . فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا يقدر يصلح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد في الزمن الطويل ولا ينجبر عند الحقود أبداً ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصُحبة ، وأهدرت المعاتبة ، وسقط الخلاف ، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة ، هكذا في الوقت الواحد مراراً . وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يُخالّجك شك ولا يدخلنك ريبٌ البتة ولا تمار في أن بينهما سرّاً من الحب دفيناً ، واقطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف . ودونكها تجربةٌ صحيحة وخبرة صادقة . هذا لا يكون إلا عن تكلفٍ في المودة واتلاف صحيح ، وقد رأيتُه كثيراً .

ومن أعلامه أنك تجد الحب يستدعى سماع اسم من يُحب ، ويستلذ الكلام في أخباره ويجعلها هُجّيراً ، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها ، ولا ينهنه عن ذلك تخوّف أن يقطن السامع ويفهم الحاضر ، وحُبك الشيء يُعمى ويُصم . فلو أمكن المحب ألا يكون حديث في مكان يكون فيه إلا ذكر من يحبه لما تعدّاه . ويعرض للصادق المودة أن يبتدى في الطعام وهو له مُشْتَهٍ فما هو إلا وقت ، ما يحتاج له من ذكر

من يُحب صار الطعام غُصّة في الحلق وشجى في المرىء . وهكذا في الماء وفي الحديث فإنه يفتاحه متمهجا فتعرض له خُطرة من خطرات الفكر فيمن يُحب فتستبين الحوالة في منطقة والتفصير في حديثه ، وآية ذلك الوجوم والإطراق وشدة الانفلاق ، فينما هو طلق الوجه خفيف الحركات صار مُنطبقاً متثاقلاً حائر النفس جامد الحركة يبرم من الكلمة ويضجر من السؤال .

ومن علاماته حُبُّ الوحدة والأنس بالانفراد ، ونُحول الجسم دون حدٍّ يكون فيه ولا وجع مانع من الثقل والحركة والمشى دليل لا يكذب ونُخبّر لا يخون عن كلمة في النفس كامنة .

والسهرُ من أعراض المُحبين . وقد أكثر الشعراء في وصفه وحكوا أنهم رُعاة الكواكب وواصفوا طول الليل : وفي ذلك أقول وأذكر كتمان السر وأنه يتوسّم بالعلامات :

تعلّمت السحائبُ من شؤوني	فعمّت بالحيا السّكبِ الهتون
وهذا الليلُ فيكَ غدار فيقى	بذلك أم على سهرى مُعيني
فإن لم ينقِضِ الإظلام . . . (١)	ألا ما أطبقت نوماً جُفوني
فليس إلى النهار لنا سبيلٌ	وسُهد زائد في كل حين
كأنَّ نجومه والغيم يُخفي	سناها عن مُلاحظة العيون
ضميري في وِدادك يا مُنايا	فليس يبين إلا بالظنون

وفي مثل ذلك قطعةٌ منها :

أرعى النجوم كأنني كُفّيت أن	أرعى جميعَ ثبوتها والخُنسِ
فكأنها والليلُ نيران الجوى	قد أضرمت في فكري من حنّس
وكأنني أمسيتُ حارسَ روضةٍ	خضراء وُشّع نبتتها بالترجس

لو عاش بطليموس أيقن أنني أقوى الورى في رصْد جري الكُنس
والشيء قد يذكرك لما يوجبهُ : وقع لي في هذه لآيات تشبيه شيئين بشيئين
في بيت واحد . وهو البيت الذي أوله « فكأنها والليل » وهذا مستغرب في
في الشعر . ولي ما هو أكمل منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد ، وتشبيه
أربعة أشياء في بيت واحد . وكلاهما في هذه القطعة التي أوردها ، وهي :

مَشُوقٌ مُعْنَى ما يَنَامُ مُسَهَّدٌ بِخَمَرِ التَّجَنَّى ما يَزَالُ يُعْرَبَدُ
ففي ساعةٍ يُبْدَى إِلَيْكَ عَجَائِباً يَمُرُّ وَيَسْتَحِلُّ وَيُدْنِي وَيُبْعَدُ
كَأَنَّ النَّوَى وَالْعَتَبَ وَالْهَجَرَ وَالرَّضَى قِرَانٌ وَأَنَادُ وَنَحْسٌ وَأَسْعَدُ
رَثَى لَغْرَامِي بَعْدَ طَوْلِ تَمَنٍّ وَأَصْبَحْتُ مُحْسُوداً وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَدُ
نَعَمْنَا عَلَى نُورٍ مِنَ الرَّوْضِ زَاهِرٍ سَقَمَتِ الْغَوَادِي فَهُوَ يَذْنِي وَيَحْمَدُ
كَأَنَّ الْحَيَا وَالْمُزْنَ وَالرَّوْضَ عَاطِراً دُمُوعٌ وَأَجْفَانٌ وَخَدٌّ مُورَدٌ
وَلَا يَنْكُرُ عَلَى مُنْكَرٍ قَوْلِي « قِرَانٌ » فَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْكَوَاكِبِ يَسْمَوْنَ
التَّقَاءَ كَوَكَبَيْنِ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ قِرَاناً .

ولي أيضاً ما هو أتم من هذا ، وهو تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد في
هذه القطعة ، وهي :

خَلُوتُ بِهَا وَالرَّاحُ ثَالِثَةٌ لَهَا وَجُنَحٌ ظَلَامُ اللَّيْلِ قَدْ مَدَّ مَا أَنْبَلَجَ
فَتَاةٌ عَدِمْتُ الْعَيْشَ إِلَّا بِقُرْبِهَا فَهَلْ فِي ابْتِغَاءِ الْعَيْشِ وَيَحْكُ مِنْ حَرَجٍ
كَأَنِّي وَهْيٌ وَالْكَاسُ وَالْخَمْرُ وَالذُّجَى ثَرَى وَحِيّاً وَالذُّرُّ وَالتَّبَرُّ وَالسَّنَجُ
فهذا أمر لا مزيد فيه ولا يقدر أحدٌ على أكثر منه ، إذ لا يحتمل
العروض ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك . .

ويعرض للمُحِبِّينَ الْقَلْقُ عِنْدَ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ :

أحدهما عند رجائه لقاء من يُحِبُّ فيعرض عند ذلك حائل .

خبر :

وإني لأعلم بعض مَنْ كان محبوبه يَعِدُه الزيارة ، فما كنتُ أراه إلا جائياً
وذاهباً لا يقربُه القرارُ ولا يثبتُ في مكان واحد ، مقبلاً مدبراً قد استخفه السرور
بعد ركانة ، وأشاطه بعد رزاة . ولى في معنى أنتظار الزيارة :

أقمتُ إلى أن جاءني الليلُ راجياً لقاءك يا سُؤلى ويا غاية الأمل
فأياسنى الإِظلامُ عنك ولم أكن لأياس يوماً إن بدا الليلُ يتَّصل
وعندى دليلٌ ليس يكذبُ خبره بأمثاله في مُشكل الأمرِ يُستدل
لأنك لو رُمتَ الزيارة لم يكن ظلامٌ ودام الثورفينا ولم يزل
والثانى عند حادثٍ يحدثُ بينهما من عتابٍ لا تُدرى حقيقته إلا بالوصف .
فعند ذلك يشتدُّ القلق حتى توقف على الجميلة ، فإما أن يذهب تحمله إن رجا
العفو ، وإما أن يصير القلق حزناً وأسفاً إن تخوف الهجر .
ويعرض للمُحب الأستكانةُ لجناء المحبوب عليه . وسيأتى مفسراً في بابهِ
إن شاء الله تعالى .

ومن أعراضه الجزع الشديد والحُمرَةُ المقطعة تغلب عند ما يرى من إعراض
محبوبه عنه ونِفاره منه ، وآية ذلك الزفير وقلة الحركة والتأوه وتنفس الصُعداء .
وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

جميلُ الصبرِ مَسْجُونٌ ودمع العينِ مَسْفُوحٌ (١)

ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا
أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته .

والبكاء من علامات الحب ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع هامل
الشؤون تجيبه عينه وتحضره عبرته إذا شاء ، ومنهم جمود العين عديم الدمع ،
وأنا منهم . وكان الأصل في ذلك إدماني أكل السكندر لخفقان القلب ، وكان

(١) فى الاصل : « ودموع العين سارحة » .

عَرَضَ لِي فِي الصَّبَا ، فَإِنِّي لَا صَابَ بِالمُصِيبَةِ الفَادِحَةِ فَأَجِدُ قَابِي يَنْفَطِرُ وَيَنْقَطِعُ
وَأَحْسُ فِي قَابِي غُصَّةً أَمْرًا مِنَ الْعَلَمِ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ تَوْفِيَةِ الْكَلَامِ حَقًّا
مُخَارِجِهِ ، وَتَكَادُ تَشْوِقُنِي النَّفْسُ أَحْيَانًا وَلَا تَجِيبُ عَيْنِي الْبَتَّةَ إِلَّا فِي النَّدْرَةِ بِالشَّيْءِ
الْيَسِيرِ مِنَ الدَّمْعِ .

نُصْر :

وَلَقَدْ أَذْكَرَنِي هَذَا الْفَصْلُ يَوْمًا : وَدَعْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ صَاحِبِي
أَبَا عَامِرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَامِرٍ صَدِيقَنَا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سَفَرَتِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ الَّتِي لَمْ نَرَهُ بَعْدَهَا ،
فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَبْكِي عِنْدَ ودَاعِهِ وَيُنْشِدُ مِثْلًا بِهَذَا الْبَيْتِ :

أَلَا إِنْ عَيْنًا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِيَاقٍ دَمْعُهَا لِحُجُودٍ
وَهُوَ فِي رِثَاءِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرِو بْنِ هَبِيرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَنَحْنُ وَقُوفٌ عَلَى سَاحِلِ
الْبَحْرِ بِمَالَقَةٍ ، وَجَعَلْتُ أَنَا أَكْثَرَ التَّفَجُّعِ وَالْأَسْفِ وَلَا تَسَاعِدُنِي عَيْنِي ، فَقُلْتُ
مُجِيبًا لِأَبِي بَكْرٍ :

وَأَنْ أَمْرًا لَمْ يُفْنِ حُسْنَ أَصْطِبَارِهِ عَلَيْكَ وَقَدْ فَارَقْتَهُ جَلِيدٍ
وَفِي الْمَذْهَبِ الَّذِي عَلَيْهِ النَّاسُ أَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ قَلْتُهَا قَبْلَ بُلُوغِ الْحُلُمِ ، أَوَّلُهَا :
دَلِيلُ الْأَسَى نَارٌ عَلَى الْقَلْبِ تَلْفَحُ وَدَمْعٌ عَلَى الْخَدَّيْنِ يَحْمِي وَيَسْفَحُ
إِذَا كَتَمَ الْمَشْغُوفُ سِرَّ ضُلُوعِهِ فَإِنْ دَمُوعُ الْعَيْنِ تُبْدَى وَتَفْضَحُ
إِذَا مَا جَفَنَ الْعَيْنُ سَالَتْ شَأُونَهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ لِلْغَرَامِ مُبْرِحُ
وَيَعْرِضُ فِي الْحُبِّ سُوءُ الظَّنِّ وَأَتَاهُمُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْ أَحَدِهِمَا وَتَوَجَّهَتْ إِلَى
غَيْرِ وَجْهِهَا ، وَهَذَا أَصْلُ الْعِتَابِ بَيْنَ الْحُبِّينِ . وَإِنِّي لِأَعْلَمُ مَنْ كَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ
ظَنًّا وَأَوْسَعَهُمْ نَفْسًا وَأَكْثَرَهُمْ صَبْرًا وَأَشَدَّهُمْ احْتِمَالًا وَأَرْحَبَهُمْ صَدْرًا ، ثُمَّ لَا يَحْتَمِلُ
مَنْ يُحِبُّ شَيْئًا وَلَا يَقَعُ لَهُ مَعَهُ أَيْسَرُ مُخَالَفَةٍ حَتَّى يَبْدَى مِنَ التَّعَدِيدِ فَنُونًا وَمِنْ سُوءِ
الظَّنِّ وَجُوهًا . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ شِعْرًا ، مِنْهُ :

أُسَى ظَنِّي بِكُلِّ مُحْتَقِرٍ تَأْتِي بِهِ وَالْحَقِيرُ مِنْ حَقَرٍ

كي لا يُرى أصل هجرة وقلّ
فالنارُ في بدء أمرها شرّ
وأصلُ عظم الأمور أهونها
ومن صغير النوى ترى الشجر
وترى المحب ، إذا لم يثق ببقاء^(١) طوية محبوبه له ، كثير التحفظ مما لم يكن
يتحفظ [منه] قبل ذلك ، مثقفاً لكلامه ، مزينا لحركاته ومرامي طرفه ، ولا سيما
إن دُهي بمتجنّ وبلى بمُعربد .
ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه ، وحفظه لكل ما يقع منه ، وبحثه عن
أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة ، وتتبعه لحركاته . ولعمري لقد ترى
البليد بصيراً في هذه الحالة ذكياً ، والغافل فطناً .

هـبر :

ولقد كنت يوماً بالمرية قاعداً في دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الاسرائيلي ،
وكان بصيراً بالفراسة مُحسناً لها ، وكُنّا في لمة ، فقال له مجاهد بن الحصين القيسي :
ما تقول في هذا ؟ وأشار إلى رجل مُتبدعاً عنا ناحية اسمه حاتم ويكنى أبا البقاء ،
فنظر إليه ساعة يسيرة ثم قال : هو رجل عاشق . فقال له : صدقت ، فمن أين
قلت هذا ؟ قال : لبُهِت مُفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته ، فعلمت
أنه عاشق وليس بمُريب .

باب من أحب في النوم

ولا بُد لكل حُب من سبب يكون له أصلاً ، وأنا مبتدئ بأبعد ما يمكن
أن يكون من أسبابه أيجرى الكلام على نسق ، أو أن يُبتدأ أبداً بالسهل
والأهون . فمن أسبابه شيء لولا أني شاهدته لم أذكره لغرابته .

هـبر :

وذلك أني دخلت يوماً على أبي السريّ عمار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد

(١) في الأصل : « بقاء » .

فوجدته مفكراً مهتماً فسألته عما به ، فتمنّع ساعةً ثم قال : لى أعجوبة ما سمعت قط . قلت : وما ذاك ؟ قال : رأيت فى نوى الليلة جاريةً فأستيقظتُ وقد ذهب قلبى فيها وهمتُ بها وإنى لنى أصعب حال من حبها ، ولقد بقى أياماً كثيرة يزید على الشهر مغموماً مهموماً لا يهنته شىءٌ وجداً ، إلى أن عدلته وقلت له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد . هل تعلم من هى ؟ قال : لا والله . قلت : إنك لقليل الرأى مُصاب البصيرة إذ تحب من لم تره قط ولا خلق ولا هو فى الدنيا ، ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندى أعذر . فما زلتُ به حتى سلا وما كاد .

وهذا عندى من حديث النفس وأضعافها ، وداخل فى باب التنى وتخيل الفكر . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

يالىتَ شعرى من كانت وكيف سرتْ أطلعة الشمس كانت أم هى القمرُ
أظنه العقلُ أبداه تدبره أو صورة الروح أبدتها لى الفكر
أوصورة مثلت فى النفس من أملى فقد تخيل فى إدراكها البصر
أو لم يكن كل هذا فهى حادثةٌ أتى بها سببا فى حتفى القدر

باب من أحب بالى صف

ومن غريب أصول العشق أن تقع الحجة بالوصف دون المعاينة ، وهذا أمر يُترقى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة والهلم والوجد والسهر على غير الأبصار ، فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً فى النفس ظاهراً .

وأن تسمع نغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال . وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بُنيان هار على غير أس ، وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير لا بد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورةً يتوهمها وعيناً يقيمها نصب ضميره ، لا يتمثل فى هاجسه غيرها ،

قد مال بوجهه نحوها ، فإن وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية ، وكلا الوجهين قد عرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا في ربّات القُصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحُب النساء في هذا أثبت من حُب الرجال لضعفهن وسُرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكّنه منهن . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

ويا مَنْ لامنّي في حُبٍّ مَنْ لم يره طرْفِي
لقد أفرطتَ في وصفك لي في الحب بالضعف
فقل هل تُعرف الجنّة يوماً بسوى الوصف
وأقول شعراً في استحسان النّعمة دون وقوع العين على العيان ، منه :
قد حلّ جيش الغرام سمعى وهو على مُقاتي يبدو
وأقول أيضاً في مخالفة الحقيقة لظنّ المحبوب عند وقوع الرؤية :
وصفوك لي حتى إذا أبصرت ما وصفوا علمتُ بأنه هذيان
فالطبل جلد فارغ وطنينه يرتاع منه ويفرق الإنسان
وفي ضد هذا أقول :

لقد وصفوك لي حتى التقينا فصار الظنُّ حقاً في العيان
فأوصاف الجنان مُقصّرات على التّحقيق عن قدر الجنان
وإن هذه الأحوال لتحدث بين الأصدقاء والإخوان ، وعني أحدث .

نصر :

إنه كان بيني وبين رجل من الأشراف ودّ وكيد وخطاب كثير ، وما تراءينا قط . ثم منح الله لي لقاءه ، فما مرّت إلا أيام قلائل حتى وقعت لنا مُنافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة إلى الآن ، فقلت في ذلك قطعة ، منها :

أبدلت أشخاصنا كرهاً وفرط قلّي كما الصحائف قد يُبدلن بالنّسخ
ووقع لي ضدّ هذا مع أبي عامر بن أبي عامر رحمة الله عليه ، فإني كنت له

على كراهة صحيحة وهو لى كذلك ، ولم يرنى ولا رأيته ، وكان أصل ذلك تنقيلاً
يُحمل إليه عنى وإلى عنه ، ويؤكد انحراف بين أبويننا لتنافسهما فيما كانا فيه من
صُحبة السلطان ووجاهة الدنيا ، ثم وفق الله الاجتماع به فصار لى أود الناس
وصرت له كذلك ، إلى أن حال الموت بيننا . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

أخ لى كسبنيہ اللقاء وأوجدنى فيه علقاً شريفاً

وقد كنت أكره منه الجوار وما كنت أرغبه لى أليفاً

وكان البغيض فصار الحبيب وكان الثقيل فصار الخفيفا

وقد كنت أدمن عنه الوجيف فصرت أديم إليه الوجيفا

وأما أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبرى فكان لى صديقاً مدةً على غير
رؤية ، ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت إلى الآن .

باب من أحب من نظرة واحدة

وكثيراً ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة . وهو ينقسم قسمين ،
فالقسم الواحد مخالف للذى قبل هذا ، وهو أن يعشق المرء صورة لا يعلم من هى
ولا يدرى لها اسماً ولا مستقراً ، وقد عرض هذا لغير واحد .

✱ خبر :

حدثنى صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق عن ثقة أخبره سقط عنى
اسمه ، وأظنه القاضى ابن الحذاء ، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرّمادى
كان مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى
جارية أخذت بمجامع قلبه وتخلّل حبّها جميع أعضائه ، فأنصرف عن طريق
الجامع وجعل يتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة ، فجازتها إلى الموضع المعروف
بالربّض . فلما صارت بين رياض بنى مروان - رحمهم الله - المبنية على قبورهم فى
مقبرة الربض خلف النهر . نظرت منه مُنفرداً عن الناس لاهمة له غيرها ، فأنصرفت
إليه فقالت له : مالك تمشى ورأى ؟ فأخبرها بعظيم بليته بها . فقالت له : دَع

عنك هذا ولا تطلب فضيحتي فلا مطمع لك في المية ولا إلى ما ترغبه سبيل .
فقال : إني أفنع بالنظر . فقالت : ذلك مباح لك . فقال لها : يا سيدتي ، أحرّة أم
مملوكة ؟ قالت : مملوكة . فقال لها : ما أسمك ؟ قالت : خلوة . قال : ولمن أنت ؟
فقالت له : علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع
الحال . فقال لها : ياسيدتي ، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيتني اليوم
في مثل تلك الساعة من كل جمعة . فقالت له : إما أن تنهض أنت وإما أنهنض أنا .
فقال لها : انهنض في حفظ الله . فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنها
كانت تلتفت نحوه لترى أيسارها أم لا . فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها
فلم يقع لها على مسألة .

قال أبو عمر ، وهو يوسف بن هارون : فوالله لقد لازمت باب العطارين
والربض من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعت لها على خبر ولا أدري أسماء لحستها
أم أرض بلعتها ، وإن في قلبي منها منها لأحرّ من الجمر . وهي خلوة التي يتغزل
بها في أشعاره .

ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها إلى سرقة في قصة
طويلة . ومثل ذلك كثير . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

عيني جنت في فؤادي لوعة الفكر فأرسل الدمع مقتصاً من البصر
فكيف تبصر فعل الدمع مُنتصفاً منها بإغراقها في دمعها الدرر
لم ألقها قبل إبصارى فأعرفها وآخر العهد منها ساعة النظر

والقسم الثاني مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب إن شاء الله ، وهو أن
يعلق المرء من نظرة واحدة جارية معروفة الأسم والمكان والمنشأ ، ولكن
التفاضل يقع في هذا في سرعة الفناء وإبطائه ، فمن أحب من نظرة واحدة
وأسرع العلاقة من لحظة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ، ومُخبر بسرعة السلو ،

وشاهد الظرافة والملل . وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناء ، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً .

فهر :

إني لأعلم فتى من أبناء الكتاب ورأته امرأة سرية النشأة ، عالية المنصب ، غليظة الحجاب ، وهو مجتاز ، ورأته في موضع تطلع منه كان في منزلها ، فعلقته وعلقها وتهاديا المراسلة زماناً على أرق من حد السيف ، ولولا أني لم أقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكائد لأوردت مما صحّ عندي أشياء تحير اللبيب وتدهش العاقل ، أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنه ، وكفانا .

باب من لا يحب الامع المطاولة

ومن الناس من لا تصحّ محبته إلا بعد طول المخافة^(١) وكثير المشاهدة ومتامدى الأنس ، وهذا الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مرث الليالي ، فمادخل عسيراً لم يخرج يسيراً ، وهذا مذهبي . وقد جاء في الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسد آدم ، وهو فخار ، فهاب وجزع : أدخل كرهاً وأخرج كرهاً . حدثناه عن شيوينا .

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة من إن أحسّ من نفسه بابتداء هوى ، أو توجّس^(٢) من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور أستعمل الهجر وترك الإمام ، لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده ، ويحال بين العير والنزوان . وهذا يدل على لصوق الحب بأكباد أهل هذه الصفة ، وأنه إذا تمكن منهم لم يحلّ أبداً . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

سأبعد عن دواعي الحبّ إني رأيت الحزم من صفة الرشيد

(١) المخافة : إسرار المنطق .

(٢) في الاصل : « توحش » .

رَأَيْتُ الْحُبَّ أَوَّلَهُ التَّصَدَّى بَعِينُكَ فِي أَزَاهِيرِ الْخُدُودِ
فَبَيْنَا أَنْتَ مَغْتَبِطٌ مُخْلًى إِذَا قَدْ صَرْتَ فِي حَلَقِ الْقِيُودِ
كَمُغْتَرٍّ بِضَحَضَاحٍ قَرِيبٍ فَذَلَّ فُغَابٌ فِي غَمَرِ الْمُدُودِ^(١)

وإني لأطيل العجب من كل مَنْ يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقُه ولا أجعل حُبّه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون في ظنّي متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائي حُبّ قطُّ إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا وأخذى معه في كل جدّ وهزل ، وكذلك أنا في السلوّ والتوقى ، فما نسيت ودّاً لي قطُّ ، وإن حَنِينِي إلى كل عهد تقدم لي لِيُغِصِّنِي بالطعام ويُشْرِقَنِي بالماء ، وقد استراح مَنْ لم تكن هذه صفته . وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به ، ولا أسرعت إليّ الأنس بشيء قط أولَ لقائِي له ، وما رغبتُ في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذكنت ، لا أقول في الألف والإخوان وحدهم ، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك ، وما انتفعتُ بعيش ولا فارقني الإطراق والانفلاق مذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لَشَجِيّ يعتادني وولوع همّ ما ينفك يَطْرُقُنِي ، ولقد نَفَّصَ^(٢) تذكري ما مَضَى كُلُّ عَيْشٍ أَسْتَأْنِفُه ، وإني لَقَتِيلُ الهموم في عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله الحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

مَحَبَّةٌ صَدَقَ لَمْ تَكُنْ بِنْتَ سَاعَةٍ وَلَا وَرَيْتُ حِينَ ارْتِيَادٍ زَنَادُهَا
وَلَكِنْ عَلَى مَهَلٍ سَرَتْ وَتَوَلَّدَتْ بِطُولِ أُمْتِزَاجٍ فَاسْتَقَرَّ عَمَادُهَا
فَلَمْ يَدْنِ مِنْهَا عَزْمُهَا وَأُنْتَقَاضُهَا وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا مُكْنَاهَا وَازْدِيَادُهَا
يُؤَكِّدُ ذَا أَنَا نَرَى كُلَّ نَشَاةٍ تَتِمُّ سَرِيعاً عَنْ قَرِيبٍ مَعَادُهَا

(١) المدود : جمع مد ، وهو الماء الكثير .

(٢) في الاصل : « نَقَصَ » .

ولكنني أرض عزاز صليبةً مَنيع إلى كل الغروس أنقيادها
فما نفدت منها لديها غروقتها فليست تبالي أن يجود عيادها
ولا يظن ظان ولا يتوهم متوهم أن كل هذا مخالف لقولي المسطر في صدر
الرسالة ، أن الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العلوي ، بل هو مؤكّد له .
فقد علمنا أن النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ، ولحققتها الأغراض ،
وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية ، فسترت كثيراً من صفاتها وإن كانت
لم تحله ، لكن حالت دونه فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس
والأستعداد له ، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ، ومقابلة الطبائع
التي خفيت مما يشابهها من طبائع المحبوب ، حينئذ يتصل اتصالاً صحيحاً
بلا مانع .

وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدي ،
وأستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان ، وهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة ،
فإذا غلبت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصل اتصالاً نفساني تشترك فيه
الطبائع مع النفس يُسمى عشقاً . ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب
اثنين ويعشق شخصين متغايرين ، فإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفاً ،
وهي على الجواز تسمى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس الحب فما في الميل به فضل
يصرفه من أسباب دينه ودنياه فكيف بالأشتغال بحب ثان . وفي ذلك أقول :

كذب المدعى هوّى اثنين حتماً مثل ما في الأصول أ كذب ماني
ليس في القلب موضعٌ لحبيبي ن ولا أحدثُ الأمور بثاني
فكما العقل واحدٌ ليس يدرى خالقاً غير واحد رحمان
فكذا القلب واحدٌ ليس يهوى (١) غير فرد مُباعِد أو مدان
هو في شرعة المودة ذو شك بعيد من صحة الإيمان

(١) في الأصل : « يقوى » .

وكذا الدين واحدٌ مستقيمٌ وكفور من عنده دينان
وإني لأعرف فتى من أهل الجدِّ والحسب والأدب كان يبتاع الجارية وهي
سائلة الصدر من حُبِّه ، وأكثَر من ذلك كارهة له لقلّة حلاوة شمائل كانت فيه ،
وقطوب دائم كان لا يفارقه ولا سيما مع النساء ، فكان لا يلبث إلا يسيراً ريثما
يصل إليها بالجماع ويعود ذلك الكُرْه حُبّاً مُفَرطاً وكلفاً زائداً واستهتاراً مكشوفاً ،
ويتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه . صحبه (١) هذا الأمر في عدة منهن . فقال
بعض إخواني : فسألته عن ذلك فتبسّم نحوى وقال : إذا والله أخبرك ، أنا أبطأ
الناس إنزالاً ، تقضى المرأة شهوتها وربما ثنت وإنزالي وشهوتي لم ينقضيا بعد ،
وما فترت بعدها قط ، وإني لأبقي بمنّتي بعد انقضائها الحين الصالح . وما لاق
صدرى صدر امرأة قط عند الخلوة إلا عند تعمدي المعانقة ، وبحسب ارتفاع
صدرى نزول مؤخرى .

فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولّد المحبة ، إذ الأعضاء الحساسة
مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها .

باب

من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها
وأعلم أعزك الله أن للحُب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمرأ
لا يخالف ، وحدّاً لا يعصى ، وملكاً لا يتعدّى ، وطاعة لا تُصرف ، ونفاذاً
لا يُرد ؛ وأنه ينقض المرّر ، ويحلّ المبرم ، ويحلّ الجامد ، ويحلّ الثابت ، ويحلّ
الشغاف ، ويحلّ الممنوع ، ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُتَمَهون في تمييزهم ،
ولا يُخاف عليهم سقوط في معرفتهم ، ولا أختلال بحسن اختيارهم ، ولا تقصير
في حدّسهم ، قد وصفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمُستحسن عند الناس
ولا يرضى في الجمال ، فصارت هجيراتهم ، وعُرْضة لأهوائهم ، ومنتهى استحسانهم .

(١) في الأصل : « صحبه » .

ثم مضى أولئك إما بسلو أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم
استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها ، على ما هو أفضل منها في الخليقة ،
ولا مالوا إلى سواها ؛ بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة
عندهم وساقطة لديهم إلى أن فارقوا الدنيا وأنقضت أعمارهم ، حينئذ منهم إلى من
فقدوه ، وألفة لمن محبوبه . وما أقول إن ذلك كان تصنعاً لكن طبعاً حقيقياً
واختياراً لا دخل فيه ، ولا يرون سواه ، ولا يقولون في طي عقدهم بغيره .
وإني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص فما استحسّن أعيد ولا غيداء
بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر فما أحبّ طويلة
بعد هذا . وأعرف أيضاً من هوى جارية في فمها فوه لطيف فلقد كان يتقدّر كل
فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف عن منقوصي
الخطو في العلم والأدب لكن عن أوفر الناس قسطاً في الإدراك ، وأحقهم
بأسم الفهم والدراية .

وعني أخبرك أني أحببت في صباى جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت
من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه .
وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تؤاتيني نفسي على سواه
ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضى الله عنه وعلى ذلك
جرى إلى أن وافاه أجله .

وأما جماعة خلفاء بني مروان — رحمهم الله — ولا سيما ولد الناصر منهم ،
فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف في ذلك منهم مختلف . وقد
رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر ، نزاعاً
إلى أمهاتهم ، حتى قد صار ذلك فيهم خلقة ، حاشى سليمان الظافر رحمه الله ، فإني
رأيت أسود اللمة واللاحية .

وأما الناصر والحكم المستنصر رضى الله عنهما فحدثني الوزير أبي رحمه الله

وغيره أنهما كانا أشقرين أشهلين ، وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرحمن المرتضى رحمهم الله ، فإنني قد رأيتهم مراراً ودخلت عليهم فرأيتهم شُقرًا شُهلاً ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم ، فلا أدري أذلك أستاذ حسان مركب في جميعهم أم لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فجزوا عليها . وهذا ظاهر في شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطليق ، وكان أشعر أهل الأندلس في زمانهم ، وأكثر تغزله فبالشُقر ، وقد رأيته وجالسته .

وليس العجب فيمن أحب قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك في سواه ، فقد وقع من ذلك ، ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الأدنى ، ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ثم غلب عليه هوى عارض بعد طول بقاءه في الجماعة فأحاله عما عهدته نفسه حوالة صارت له طبعاً ، وذهب طبعه الأول وهو يعرف فضل ما كان عليه أولاً . فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأتي إلا الأدنى . فأعجب لهذا التغلب الشديد والتسلط العظيم ، وهو أصدق المحبة حقاً ، لا من يتحلى بشيم قوم ليس منهم ، ويدعى غريزة لا تقبله فيزعم أنه يتخير من يحب ، أما لو شغل الحب بصيرته ، وأطاح فكرته ، وأجحف بتمييزه ، لحال بينه وبين التخييل والأرتياد . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

كانما الغيّد في عَيْنِهِ جَنَان	منهم قَتَى كان في مَحْبُوبِهِ وَقْص
بِحُجَّةٍ حَقَّاهُ فِي الْقَوْلِ تَبْيَان	وكان مُنْبَسِطاً فِي فَضْلِ خِبْرَتِهِ
لَا يُنْكِرُ الْحَسْنَ فِيهِ الدَّهْرَ إِنْسَان	إِنَّ أَلْمَا وَبِهَا الْأَمْثَالَ سَائِرَةٌ
وَهَلْ تُزَانُ بِطُولِ الْجِيدِ بُعْرَان	وَقُصٌّ فَلَيْسَ بِهَا عَنَقَاءُ وَاحِدَةٌ
يَقُولُ حَسْبِي فِي الْأَفْوَاهِ غَزْلَان	وَأَخَرُ كَانَ فِي مَحْبُوبِهِ قَوَّةٌ
يَقُولُ إِنَّ ذَوَاتِ الطُّولِ غِيلَان	وَتَالَتْ كَانَ فِي مَحْبُوبِهِ قِصْرٌ

وأقول أيضاً :

يَعْيَبُونَهَا عِنْدِي بِشُقْرَةٍ شَعَرَهَا فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا الَّذِي زَانَهَا عِنْدِي
يَعْيَبُونَ لَوْنَ النَّوْرِ وَالتَّبَرِّ ضِلَّةً لِرَأْيِ جَهْوَلٍ فِي الْغَوَايَةِ مَمْتَدَّةً
وَهَلْ عَابَ لَوْنَ النَّزْجِسِ الْغَضَّ عَائِبٌ وَلَوْنَ النُّجُومِ الزَّاهِرَاتِ عَلَى الْبُعْدِ
وَأَبْعَدُ خَلَقَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ مُفَضَّلَ جِرْمٍ فَاحِمِ اللَّوْنِ مُسَوَّدِ
بِهِ وَصُفَتْ أَلْوَانُ أَهْلِ جَهَنَّمَ وَلِبْسَةٌ بَالِكِ مُشْكَلِ الْأَهْلِ مُحْتَدِ
وَمُذْ لَاحَتْ الرَّايَاتُ سُودًا تَيَقَّنَتْ نَفُوسُ الْوَرَى أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الرَّشْدِ

باب التعريض بالقول

وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مَطْلُوبٍ مِنْ مَدْخَلٍ إِلَيْهِ ، وَسَبَبٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ نَحْوَهُ ، فَلَمْ يَنْفَرِدْ
بِالْإِخْتِرَاعِ دُونَ وَاسِطَةِ إِلَّا الْعَلِيمُ الْأَوَّلُ جَلَّ ثَنَاءُهُ . فَأُولَ مَا يَسْتَعْمَلُ طُلَّابُ
الْوَصْلِ وَأَهْلُ الْحُبِّ فِي كَشْفِ مَا يَجِدُونَهُ إِلَى أَحْبَبِهِمُ التَّعْرِيزُ بِالْقَوْلِ ، إِمَّا بِإِنْشَادِ
شَعْرٍ ، أَوْ بِإِرْسَالِ مُثَلٍّ ، أَوْ تَعْمِيَةِ بَيْتٍ ، أَوْ طَرَحِ لَغْزٍ ، أَوْ تَسْلِيْطِ كَلَامٍ .

وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى قَدَرِ إِدْرَاكِهِمْ ، وَعَلَى حَسَبِ مَا يَرُونَهُ مِنْ
أَحْبَبِهِمْ مِنْ نَفَارٍ أَوْ أَنْسٍ أَوْ فَطْنَةٍ أَوْ بِلَادَةٍ . وَإِنِّي لِأَعْرِفُ مِنْ أَوَّلِ كَشْفِ
مَحَبَّتِهِ إِلَى مَنْ كَانَ يُحِبُّ بِأَيِّاتٍ قَلَّتْهَا . فِهَذَا وَشَبَّهَهُ يَبْتَدِئُ بِهِ الطَّالِبُ الْمَوْدَةَ ،
فَإِنْ رَأَى أَنْسًا وَتَسَهُّلاً زَادَ ، وَإِنْ يُعَايِنُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي حِينِ إِنْشَادِهِ
لِشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرْنَا ، أَوْ إِرَادَهُ لِبَعْضِ الْمَعَانِي الَّتِي حَدَدْنَا ، فَانْتَظَرَهُ الْجَوَابَ ، إِمَّا بِلَفْظِ
أَوْ بِهَيْئَةِ الْوَجْهِ وَالْحَرَكَاتِ ، لِمَوْقِفٍ بَيْنَ الرِّجَاءِ وَالْيَأْسِ هَائِلٍ ، وَإِنْ كَانَ حِينًا
قَصِيرًا ، وَلَكِنَّهُ إِشْرَافٌ عَلَى بُلُوغِ الْأَمَلِ أَوْ انْقِطَاعِهِ .

وَمِنْ التَّعْرِيزِ بِالْقَوْلِ : جَنْسٌ ثَانٍ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْإِتْفَاقِ وَمَعْرِفَةِ
الْحُبِّ مِنَ الْمَحْبُوبِ ، فَحِينَئِذٍ يَقَعُ التَّشْكِيُّ وَعَقْدُ الْمَوَاعِيدِ وَالتَّغْرِيرُ وَإِحْكَامُ الْمَوَدَّاتِ
بِالتَّعْرِيزِ ، وَبِكَلَامٍ يَظْهَرُ لِسَامِعِهِ مِنْهُ مَعْنَى غَيْرُ مَا يَذْهَبَانُ إِلَيْهِ ، فَيَجِيبُ السَّامِعُ
عَنْهُ بِجَوَابٍ غَيْرِ مَا يَتَأَدَّى إِلَى الْمَقْصُودِ بِالْكَلَامِ ، عَلَى حَسَبِ مَا يَتَأَدَّى إِلَى سَمْعِهِ
وَيَسْبِقُ إِلَى وَهْمِهِ ، وَقَدْ فَهِمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ وَأَجَابَهُ بِمَا لَا يَفْهَمُهُ

غيرُهما ، إلّا من أيد بحسّ نافذ ، وأعين بذكاء ، وأمدّ بتجربة ، ولا سيما إن أحسن من معانيهما بشيء . وقلّما يغيب عن المتوسّم المُجيد ، فهناك لا خفاء عليه فيما يريدان .

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحابان ، فأرادها في بعض وصالها على بعض مالا يجمل . فقالت : والله لأشكوّنك في الملاء علانيةً ولأفضحنك فضيحةً مستورة . فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلس بعض أكابر الملوك وأركان الدولة وأجلّ رجال الخلافة ، وفيه ممن يُتوقّي أمره من النساء والخدم عددٌ كثير ، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى ، لأنه كان بسبب من الرئيس ، وفي المجلس مغنيات غيرُها . فلما انتهى الغناء إليها سوّت عودها وأنشدت تغني بأبيات قديمة ، وهي :

غزال قد حَكى بدرَ التّام	كشمس قد تجلّت من غمام
سبى قلبي بألحاظِ مِراضٍ	وقدّ الغُصن في حُسن القوَام
خَضعتُ خُضوعَ صَبٍ مُستكين	له وذَلّت ذِلّةُ مُستهام
فَصِلْنِي يافديتْكَ في حَلال	فما أهوى وصالاً في حَرَام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت :

عِتَابٌ واقع وشكَاةٌ ظُلم	أنت من ظالم حَكَمٍ وخَصَم
تَشَكَّتْ ما بها لم يَدْرَ خَلَق	سِوَى المُشكُوِّ ما كانت تُسمّى

باب الإشارة بالعين

ثم يتلو التعريضَ بالقبول ، إذا وقع القبولُ والموافقة ، الإشارةُ بالخط العين . وإنه ليقوم في هذا المعنى المقامُ المحمود ، ويبلغ المبلغ العجيب ، ويُقَطَّع به ويتواصل ، ويُوعَد ويُهدد ، ويُنتهر ويبسط ، ويُؤمر وينهى ، وتُضرب به الوعود ، ويُنبّه على الرقيب ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى .

ولـكـل واحد من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ لا يُوقف على تحديده
إلا بالرؤية ، ولا يُمكن تصوُّرُه ولا وصفُه إلا بالأقل منه . وأنا واصف ما تيسر
من هذه المعاني :

فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهى عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ،
وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها آية الفرح .
والإشارة إلى أطبقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها
بسرعة تنبيه على مُشار إليه .

والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين
إلى المؤق بسرعة شاهد المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام .
وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

واعلم أن العين تنوب عن الرُّسل ، ويدرك بها المراد . والحواس الأربع
أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً ،
وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بها تقف على
الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات . وقد قيل : ليس المخبر كالمعاین .
وقد ذكر ذلك افليمون صاحب الفراسة وجعلها معتمده في الحكم . وبحسبك
من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعها شعاعاً مجلواً صافياً ، إما حديداً مفصولاً
أوزجاجاً أو ماءً أو بعض الحجارة الصافية أو سائر الأشياء المجلوة البراقة ذوات
الرفيف والبصيص والمعان ، يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف سائر مناع
كدر ، انعكس شعاعها فأدرك الفاضل نفسه ومازها عياناً . وهو الذي ترى في
المرآة ، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك . ودليل عياني على هذا أنك
تأخذ مرأتين كبيرتين فتُمسك إحداها بيمينك خلف رأسك والثانية بيسارك
قبالة وجهك ثم تزويها قليلاً حتى يلتقيان بالمقابلة ، فإنك ترى قفاك وكل
ما وراءك . وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرأة التي خلفك ، إذ لم تجد

منفذاً في التي بين يديك ، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ماقبله من الجسم . وإن كان صالح غلام أبي إسحاق النظام خالف في الإدراك فهو قول ساقط لم يوافق عليه أحد . ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جواهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكاناً ، لأنها نورية لا تدرك الألوان بسواها ، ولا شيء أبعد مرئي ولا أنأى غاية منها ، لأنها تدرك بها أجرام الكواكب التي في الأفلاك البعيدة ، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبعدها ، وليس ذلك إلا لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرأة ، فهي تدركها وتصل إليها بالنظر ، لا على قطع الأماكُن والحلول في المواضع وتنقل الحركات ، وليس هذا لشيء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يدركان إلا بالمجاورة ، والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب . ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المصوت قبل سماع الصوت ، وإن تعمّدت إدراكهما معاً . وإن كان إدراكهما واحداً لما تقدمت العين السمع .

باب المراسلة

ثم يتلو ذلك إذا امتزجا المراسلة بالكتب . وللكتب آيات . ولقد رأيتُ أهل هذا الشأن يُبادرون لقطع الكتب وبحلّها في الماء وبمحو أثرها ، فرُبّ فضيحة كانت بسبب كتاب . وفي ذلك أقول :

عزيزٌ علىّ اليومَ قطعُ كتابكم ولكنه لم يُلَفْ للودّ قاطِعُ
فأثرتُ أن يبقى ودادٌ وينمحي مدادُ فإن الفرع للأصل تابع
فكم من كتاب فيه ميتة ربه ولم يدْرِه إذ نمّقه الأصابع

وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال ، وجنسُه أملح الأجناس . ولعمري إن الكتاب لسانُ في بعض الأحياء ، إما لحصر في الإنسان وإما لحياء وإما لهيبة . نعم ، حتى إن لوصول الكتاب إلى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب

والنظر إليه سروراً يعدل اللقاء ، ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه
وقلبه ويُعانقه . ولعمري ببعض أهل الحبة ، ممن كان يدري ما يقول
ويحسن الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويُجيد النظر ويدقق
في الحقائق ، لا يدع المراسلة وهو مُمكن الوصول قريب الدار أتى المزار ، ويحكي
أنها وجوه اللذة . ولقد أخبرت عن بعض السقاط الوضعاء أنه كان يضع
كتاب محبوبه على إحليله . وأن هذا النوع من الاغتلام قبيح وضرب من
الشبق فاحش .

وأما سقى الخبر بالدّمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه ، يسقى
الخبر بالرّيق . وفي ذلك أقول :

جوابُ أتاني عن كتاب بعثته	فسكن مُتَاجاً وهيّج ساكناً
سقيتُ بدمع العين لما كتبتُه	فِعَالٌ مُحِبٌ ليس في الود خائناً
فما زال ماء العين يَمْحُو سُطُورَه	فياماء عيني قد محوت المحاسنا
غدا بدموعي أول الحظ بيننا	وأضحى بدمعي آخرُ الحظ بائناً

فَهِير :

ولقد رأيتُ كتابَ المُحِبِّ إلى محبوبه ، وقد قَطَعَ في يده بسكين له فسال
الدم واستمد منه وكتب به الكتاب أجمع . ولقد رأيت الكتاب بعد جُفوفه فما
شككت أنه بصنغ اللك .

باب السفير

ويقع في الحب بعد هذا ، بعد حُلُولِ الثقة وتَمَامِ الاُسْتِئْثَاسِ ، إدخال السفير .
ويجب تحيُّره وأرتياده وأستجاده وأستفراجه ، فهو دليل عقل المرء ، ويده حياته
وموته ، وسره وفضيحتة بعد الله تعالى . فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة ، حاذقاً
يكتفي بالإشارة ، ويقرطس عن الغائب ، ويحسن من ذات نفسه ويضع من

عقله ما أغفله (١) باعته ، ويؤدى إلى الذى أرسله كل ما يشاهد على وجهه كأنما كان للأسرار حافظاً ، وللعهد وفياً ، قنوعاً ناصحاً . ومن تعدّى هذه الصفات كان ضرره على باعته بمقدار ما نقصه منها . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

رسولك سيفٌ فى يمينك فاستجدِ حُساماً ولا تضرب به قبل صقله
فمن يك ذا سيف كهم فضره يعود على المعنى منه بجعله
وأكثر ما يستعمل المحبّون فى إرسالهم إلى من يحبونه ، إما خاملاً لا يؤبه له ولا يهتدى للحفاظ منه ، لصباه أو لهيئة رثة أو بدادة فى طلعتة .

وإما جليلاً لا تلحقه الظن لنسك يظهره أو لسنّ عالىة قد بلغها .
وما أكثر هذا فى النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتساويح والثوبين
الأحمرين . وإنى لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات
حيثما رأيتها .

أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص . فمن النساء كالطبيبة والحجامة
والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصّناع
فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك .

أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشحّ بها عليه . فكم مَنيع سهّل بهذه الأوصاف .
وعسير يسرّ ، وبعيد قرّب . وجموح أنس ، وكم داهية دهمت الحجب المصونة ،
والأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لأرباب هذه النعوت .
ولولا أن أنبه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها وقلة الثقة بكل واحد .
والسعيد من وعظ بغيره . وبالضد تتميز الأشياء . أسبل الله علينا وعلى جميع
المسلمين ستره ، ولا أزال عن الجميع ظل العافية .

نصير :

وإنى لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدّبة ، ويُعقد الكتاب فى
جناحها . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

(١) فى الأصل : « ما أعقله » .

تَحْيَرُهَا نُوحٌ فَمَا خَابَ ظَنُّهُ لَدَيْهَا وَجَاءَتْ نُحُودَهُ بِالْبَشَائِرِ
سَأَوْدِعُهَا كُتُبِي إِلَيْكَ فَهَا كَمَا رَسَائِلَ تُهْدَى فِي قَوَادِمِ طَائِرِ

باب طي السر

ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان ، وجحود المحب إن سئل ،
والتصنع بإظهار الصبر ، وأن يرى أنه عزّاهة خلى . ويأبى السرّ الدقيق ،
ونار الكلف المتأججة في الضلوع ، إلا ظهوراً في الحركات والعين ، وديباً كديب
النار في الفحم والماء في يبيس المدر . وقد يمكن التّمويه في أول الأمر على غير
ذی الحسّ اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال . وربما يكون السبب في الكتمان
تصاؤن المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من
صفات أهل البطالة ، فيفرّ منها ويتفادى ، وما هذا وجه التصحيح ، فبحسب
المرء المسلم أن يعفّ عن محارم الله عزّ وجل التي يأتيها بأختياره ويحاسب عليها
يوم القيامة . وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ،
إذ القلوب بيد مقلبيها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب
وأن يعتقد الصحيح باليقين . وأما المحبة فخلق ، وإنما يملك الانسان حركات
جوارحه المكتسبة . وفي ذلك أقول :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى	وسيتان عندي فيك لاح وساكت
يقولون جانبك التصاؤن جملة	وأنت عليهم بالشريعة قانت
فقلت لهم هذا الرياء بعينه	صراحاً وزى للمرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد	وهل منعه في محكم الذّكر ثابت
إذا لم أواقع محرماً أتقى به	مجيئ يوم البعث والوجه باهت
فلست أبالي في الهوى قول لأم	سواء لعمري جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره	وهل بحبايا اللفظ يؤخذ صامت

نهر :

وإني لأعرف بعضَ من أمتحن بشيء من هذا فسكن الوجدُ بين جوانحه ،
فراهم جَحَدَه إلى أن غَلِظَ الأمر ، وعرف ذلك في شمائله مَنْ تعرَّض للمعرفة ومن
لم يتعرَّض . وكان مَنْ عَرَضَ له شيء نَجَّهه (١) وقَبَّحَه . إلى أن كان مَنْ
أراد الحظوة لديه من إخوانه يُوهمه تصديقه في إنكاره وتكذيب من ظن به
غير ذلك ، فسر بهذا . ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعضُ من كان يعرض له بما
في ضميره ، وهو ينتفي غاية الانتفاء ، إذ اجتاز بهما الشخص الذي كان يُتهم
بعلاقته ، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى
وأصفر لونه وتفاوتت معاني كلامه بعد حُسن تثقيف ، فقطع كلامه المتكلم معه .
فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره . فقليل له : ما عدا عما بدا . فقال : هو ما تظنون ،
عذر من عذر ، وعذل من عذل . ففي ذلك أقول شعراً ، منه :

مما يرى من تباريح الضنى فيه ما عاش إلا لأنَّ الموتَ يرجه
وأنا أقول : دُموع الصبِّ تَنسُفُكَ
وسِتر الصبِّ يَنْهَتُكَ
كأنَّ القلبَ إذ يبدو قِطَاةُ ضَمَمَها شَرَكُ
فيا أصحابنا قولوا فإنَّ الرأى مُشْتَرَكُ
إلى كم ذا أكاثمه وما لى عنه مُتَرَكُ

وهذا إنما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان ، والتصاوت لطبع المحب وغلبته ،
فيكون صاحبه متحيراً بين نارين مُحْرِقَتَيْن . وربما كان سبب الكتمان إبقاء
الحب على محبوبه ، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع . وفي ذلك أقول :

دَرى الناسُ أُنَى فتيَّ عاشقٍ لثيبٍ مُعَنَّى ولكنَّ يَمَنُ
إذا عاينوا حالتي أيقنوا وإنَّ فَتَشُوا رَجَعُوا فى الظَّنِّ
كخَطِّ يَرى رَسْمُه ظاهراً وإنَّ طَلَبُوا شَرْحَه لم يَبينُ

(١) النجى : استقبالك الرجل بما يكره وردك إياه عن حاجته ، أو هو أقبح الرد .

كصوت حمام على أيكّة يرجع بالصوت في كلّ فنّ
تلدّ بفخّواه أسمعنا ومعهنا مستعجم لم يبين
يقولون بالله سمّ الذي نفى حُبّه عنك طيب الوسن
وهيهات دون الذي حاولوا ذهاب العتول وخوض الفتن
فهم أبدأ في اختلاج الشكوك بظنّ كقطع وقطع كظن
وفي كتمان السر أقول قطعة ، منها :

للسر عندي مكان لو يحلّ به حتى إذا لا أهتدي ريب المنون له
أميته وحياة السرّ ميته كما سرور المعنى في الهوى الوله
وربما كان سبب الكتمان توفّي الحب على نفسه من إظهار سره ، لجلالة
قدر المحبوب .

نهر :

ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعراً تغزل فيه بصبح أم المؤيد
رحمه الله . فغنت به جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبي عامر ليبتاعها ،
فأمر بقتلها .

نهر :

وعلى مثل هذا قتل أحمد بن مغيث . وأستئصال آل مغيث والتسجيل
عليهم ألاّ يستخدم بواحد منهم أبداً حتى كان سبباً لهلاكهم وأنقراض بيتهم .
فلم يبق منهم إلا الشريد الضال . وكان سبب ذلك تغزله بإحدى بنات الخلفاء .
ومثل هذا كثير .

ويحكى عن الحسن بن هانئ أنه كان مغرمًا بحب محمد بن هارون المعروف
بأبن زبيدة . وأحس منه ببعض ذلك فانتهره ، على إدامة النظر إليه . فذكر
عنه أنه قال إنه كان لا يقدر أن يديم النظر إليه إلا مع غلبة السكر على محمد .
وربما كان سبب الكتمان ألاّ ينفر المحبوب أو ينفر به . فإني أدري من كان

محبوبه له سكناً وجليساً ، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلت نجومها . وهذا ضرب من السياسة ، ولقد كان يبلغ من أنبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية ، فما هو إلا أن باح إليه بما يجد فصار لا يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالة الحب وتمنع الثقة بملك الفؤاد ، وذهب ذلك الانبساط ووقع التصنع والتجنى ، فكان أخاً فصار عبداً ، ونظيراً فعاد أسيراً ، ولو زاد في بوحه شيئاً إلى أن يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه إلا في الطيف ، ولا نقطع القليل والكثير ، ولعاد ذلك عليه بالضرر .

وربما كان من أسباب السكتمان الحياء الغالب على الإنسان . وربما كان من أسباب السكتمان أن يرى الحب من محبوبه أنحرافاً وصدًا ويكون ذا نفس أبية ، فيستتر بما يجد لئلا يشمت به عدو ، أو يريهم ومن يحب هوان ذلك عليه .

باب الإذاعة

وقد تعرّض في الحب الإذاعة ، وهو من منكر ما يحدث من أعراضه ، ولها أسباب ، منها :

أن يُريد صاحبُ هذا الفعل أن يتزيّا بزيّ المحبين ويدخل في عدادهم ، وهذه خلافة لا تُرضى ، وتحليج بغيض ، ودعوى في الحب زائفة .
وربما كان من أسباب الكشف غلبة الحب وتسوّر الجهر على الحياء . فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلاً . وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه على العقل ، حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح ، والقبيح في هيئة الحسن . وهنالك يرى الخير شرّاً ، والشر خيراً . وكم من مَصُون الستر مُسَبِّل القناع مَسْدُول الغطاء قد كشف الحبُّ ستره ، وأباح حريمه ، وأهل حمّاه . فصار بعد الصيانة علماً ، وبعد السكون مثلاً . وأحبُّ شيء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ، ولطالت استعاذته منه . فسَهِّل ما كان وعراً ، وهان ما كان عزيزاً ، ولان ما كان شديداً .

ولعدي بفتى من سرّوات الرجال وعِلية إخواني قد دُهي بمحبة جارية
مقصورة هام بها وقطعه حبها عن كثير من مصالحه ، وظهرت آيات هواه
لكل ذي بصر ، إلى ان كانت هي تعذله على ماظهر منه مما يقوده
إليه هواه .

نُهر :

وحدثني موسى بن عاصم بن عمرو قال : كنت بين يدي أبي الفتح والدي
رحمه الله وقد أمرني بكتاب أكتبه . إذ لحت عيني جارية كنت أكلف
بها ، فلم أملك نفسي ورميت الكتاب عن يدي وبادرت نحوها . وبُهِت أبي
وظن أنه عرض لي عارض . ثم راجعني عقلي فمسحت وجهي ثم عُدت واعتذرت
بأنه غلبني الرُعاف .

وأعلم أن هذا داعية نِفار المحبوب ، وفساد في التدبير ، وضعف في السياسة .
وما شيء من الأشياء إلا ولما أخذ فيه سنة وطريقة ، متى تعدّاها الطالب ، أو خرق
في سلوكها أنعكس عمله عليه ، وكان كدّه عناء ، وتعبه هباء ، وبحته وباء . وكما
زاد عن وجه السيرة انحرافاً وفي تحنّبها إغراقاً وفي غير الطريق إيغالا ازداد عن
بلوغ مراده بعداً . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

وَلَا تَسْعَ فِي الْأَمْرِ الْجَسِيمِ تَهَازِئًا وَلَا تَسْعَ جَهْرًا فِي الْيَسِيرِ تُرِيدُهُ
وَقَابِلْ أَفَانِينَ الزَّمَانِ مَتَى يَرِدُ عَلَيْكَ فَإِنَّ الدَّهْرَ جَمٌّ وَرُودُهُ
فَأَشْكَالُهَا مِنْ حُسْنِ سَعْيِكَ يَكْفُكَ الْيَسِيرَ بَغِيرَ وَالشَّرِيدَ شَرِيدُهُ ^(١)
أَلَمْ تُبْصِرِ الْمِصْبَاحَ أَوَّلَ وَقْدِهِ وَإِشْعَالَهُ بِالنَّفْخِ يُطْفَأُ وَقُودُهُ
وَإِنْ يَتَصَرَّمْ لَفَحَهُ وَلَهْمِيهِ فَنفخُكَ يَذْكِيهِ وَتَبْدُو مُدَوْدُهُ

نُهر :

وإني لأعرف من أهل قرطبة من أبناء الكتاب وجلة الخدمة من اسمه

(١) كذا ورد هذا البيت في الأصل .

أحمد بن فتح ، كنت أعهدده كثير التصاون ، من بغاة العلم وطلاب الأدب ،
ييز أصحابه في الانقباض ، ويفوتهم في الدعة ، لا ينظر إلا في حلقة فضل ، ولا يرى
إلا في محفل مرضى ، محمود المذاهب ، جميل الطريقة ، بائناً بنفسه ، ذاهباً بها .
ثم أبعدت الأقدار داري من داره ، فأول خبر طرأ عليّ بعد نزولي شاطبة أنه
خلع عذاره في حب فتى من أبناء الفتانين يُسمى إبراهيم بن أحمد أعرفه ، لا تستأهل
صفاته محبة من بيته خير وتقدم ؛ وأموال عريضة ووفر تالد ، وصحّ عندي أنه
كشف رأسه وأبدى وجهه ورعى رسته وحسر حياءه وشمر عن ذراعيه وصمد
صمد الشهوة ، فصار حديثاً للسمار ومُدافعاً بين نقلة الأخبار ، وتهودي ذكروه في
الأقطار ، وجرت نقلته في الأرض راحلةً بالتعجب ، ولم يحصل من ذلك إلا على
كشف الغطاء ، وإذاعة السر ، وشنعة الحديث . وفتح الأحداث ، وشُرود
محبوبه عنه جملة . والتحذير عليه من رؤيته ألبته ، وكان غنياً عن ذلك وبمندوحة
ومعزل رحب عنه . ولو طوى مكنون سرّه ، وأخفى بليات ضميره لأستدام
لباس العافية ، ولم يُنهج (١) بُرد الصيانة ، ولـكان له في لقاء من بلى به ومحدثته
ومجالسته أمل من الآمال ، وتعلل كاف ، وإن حمل العذر ليقطع به ، والحجة
عليه قائمة ، إلا أن يكون مُختلطاً في تمييزه ، أو مصاباً في عقله بجليل ما فدحه .
فر بما آل ذلك لعذر صحيح ، وإما أن كانت بقية من عقل أو ثبتت مُسكه فهو
ظالم في تعرضه ما يعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذى به .
هذا غير صفة أهل الحب ، وسيأتي هذا مفسراً في باب الطاعة إن
شاء الله تعالى .

ومن أسباب الكشف وجه ثالث

وهو عند أهل العقول وجه مردول وفعل ساقط ، وذلك أن يرى الحب من
محبوبه غدرًا أو مللاً أو كراهة ، فلا يجد طريق الانتصاف منه إلا بما ضرره

(١) نهج الثوب : أخلقه .

عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار . وهذا أشد العار وأقبح
 الشنار وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف . وربما كان الكشف من
 حديث ينتشر وأقاويل تفسو ، توافق قلة مبالاة من المحب بذلك ، ورضى بظهور
 سره ، إما لإعجاب وإما لاستظهار على بعض ما يؤمله . وقد رأيت هذا الفعل
 لبعض إخواني من أبناء القواد ، وقرأت في بعض أخبار الأعراب أن نساءهم
 لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ويجاهر ويعلم
 وينوه بذكرهن ؛ ولا أدري ما معنى هذا ، على أنه يذكر عنهن العفاف ، وأى
 عفاف مع امرأة أقصى منهاها وسرورها الشهرة في هذا المعنى .

باب الطاعة

ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه ، وصرفه طباعه قسراً
 إلى طباع من يحبهم وربما يكون المرء شرس الخلق ، صعب الشكيمة ، جموح القياد ،
 ماضى العزيمة ، حمى الأنف ، أبى الخسف ، فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب ،
 ويتورط غمره ، ويعوم في بحره ، فتعود الشراسة لياناً ، والصعوبة سهولة ، والمضاء
 كلاله ، والحمية استسلاماً . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

فهل للوصال إلينا معاد وهل لتصاريف ذا الدهر حد
 فقد أصبح السيف عبد القضيبي وأضحى الغزال الأسير أسد
 وأقول شعراً ، منه :

وإني وإن تعبت لأهون هالك كذائب نقر^(١) رل من يد جهبذ
 على أن قتلى في هواك لذادة فيا عجباً من هالك متلذذ
 ومنها .

ولو أبصرت أنوار وجهك فارس لأغناهم عن هرمران ومؤبد
 وربما كان المحبوب كارهاً لإظهار الشكوى متبرماً بسماع الوجد ، فترى

(١) نقر ، بالضم : جمع نقرة ، وهى النطعة الذائبة من الذهب والفضة .

المُحِب حينئذ يَكْتُمُ حزنه وَيَكْظِمُ أسفه وَيَنْطَوِي على عِلَّتِهِ . وَإِنْ الحَبِيب مُتَجَنِّ ، فَعِنْدَها يَقَعُ الاعتذار عند كل ذنب والإقرار بالجريمة ، والمرء منها برىء ، تسامياً لقوله وتركاً لمخالفته . وإِنِّي لأَعْرِفُ من دُهِىِ بِمَثَلِ هذا فَمَا كان يَنْفَكُ من تَوْجِيهِ الذنوب نحوه وَلَا ذَنْبَ لَهُ ، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نَقِي الجِلْد .

وأقول شعراً إلى بعض إخواني ، ويقرب مما نحن فيه وإن لم يكن منه :
 وقد كنت تَلْقَانِي بوجه لِقُرْبِهِ تَدَانِي وللِهَجْرَانِ عَنْ قُرْبِهِ سَخَطُ
 وما تَكْرَهُ العَتَبَ اليسير سَجِيَّتِي على أَنَّهُ قد عَيبَ في الشَّعْرِ الوَخْطُ
 فقد يُتَعَبُ الإنسانُ في الفكرِ نَفْسَهُ وقد يَحْسُنُ الخِيْلَانُ في الوجه والنَقَطُ
 تَزِينُ إِذَا قَلَّتْ وَيَفْحُشُ أَمْرُهَا إِذَا أَفْرَطَتْ يوماً وَهَلْ يُحْمَدُ الْفَرْطُ
 وَمِنْهُ :

أَعِنَهُ فَقَدْ أَضْحَى لَفَرْطِ هُمُومِهِ يَبْكِي إِذَا الْقِرْطَاسُ وَالْحَبْرُ وَالْخَطُ
 وَلَا يَقُولَنَّ قَائِلٌ إِنْ صَبَرَ الْمُحِبُّ عَلَى ذِلَّةِ الْمُحِبُّوبِ دَنَاءَةً فِي النَّفْسِ فَقَدْ
 أَخْطَأَ ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْمُحِبُّوبَ لَيْسَ لَهُ كِفْؤٌ وَلَا نَظِيرٌ فَيُقَارِضُ بِأَذَاهُ ، وَلَيْسَ
 سَبَبُهُ وَجْهًا مِمَّا يَغَيِّرُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَيَبْقَى ذِكْرُهُ عَلَى الْأَحْقَابِ ، وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ
 فِي مَجَالِسِ الْخُلَفَاءِ ، وَلَا فِي مَقَاعِدِ الرُّؤَسَاءِ ، فَيَكُونُ الصَّبْرُ جَارًّا لِلْمَذَلَّةِ ،
 وَضَرَاعَةً قَائِدَةً لِلْإِسْتِهَانَةِ ، فَقَدْ تَرَى الْإِنْسَانَ لَا يَكْلَفُ بِأَمْتِهِ الَّتِي يَمْلِكُ رَقَبَهَا ،
 وَلَا يَحُولُ حَائِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّعَدِّيِّ عَلَيْهَا فَكَيْفَ الْإِنْتِصَارُ مِنْهَا . وَسَبِيلُ
 الْإِمْتِعَاضِ مِنَ السَّبَبِ غَيْرُ هَذِهِ ، إِنَّمَا ذَلِكَ بَيْنَ عِلِّيَّةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَحْصُلُ
 أَنْفَاسُهُمْ وَتَتَّبَعُ مَعَانِي كَلَامِهِمْ فَتَوَجَّهَ لَهَا الْوُجُوهُ الْبَعِيدَةُ ، لِأَنَّهُمْ لَا يُوقَعُونَهَا سَدًى
 وَلَا يُلْقَوْنَهَا هَمَلًا ، وَأَمَّا الْمُحِبُّوبُ فَصَمْعَةٌ ثَابِتَةٌ وَقَضِيبٌ مُنَادٍ ، يَجْهَرُ وَيَرْضَى مَتَى
 شَاءَ لَا لِمَعْنَى . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

لَيْسَ التَّذَلُّلُ فِي الْهُوَى يُسْتَنْكَرُ فَالْحُبُّ فِيهِ يَخْضَعُ الْمُسْتَكْبَرُ

لا تعجبوا من ذلتي في حالةٍ قد ذلّ فيها قبليّ المستبصر
ليس الحبيب مماثلاً ومكافياً فيكون صبرك ذلةً إذ تصبر
تفاحة وقعت فآلم وقعها هل قطعها منك انتصاراً يذكر

هـبر :

وحدثني أبو دلف الوراق عن مسامة بن أحمد الفيلسوف المعروف
بالمَرَجِيطِي أنه قال في المسجد الذي بشرقيّ مقبرة قریش بقرطبة الموازي لدار
الوزير ابن عمرو أحمد بن محمد جدير رحمه الله : في هذا المسجد كان
مقدم بن الأصفر مريضاً أيام حادثته لعشق بعجيب ، قتي الوزير أبي عمرو
المذكور . وكان يترك الصلاة في مسجد مسرور وبها كان سكناه ، ويقصد في
الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب ، حتى أخذ الحرس غير مأمرة في الليل
في حين أنصرافه عن صلاة العشاء الآخرة ، وكان يقعد وينظر منه إلى أن
كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه فيؤججه ضرباً ويلطم خديّه وعينيّه ،
فيسر بذلك ويقول : هذا والله أقصى أمنيّ والآن قرّرت عيني ، وكان على
هذا زماناً يماشيه .

قال أبو دلف : ولقد حدثنا مُسلم بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجيب
عندما كان يرى من وجاهة مقدّم بن الأصفر وعرض جاهه وعافيته ، فكانت
حال مقدّم بن الأصفر هذا قد جلّت جداً وأحتص بالمظفر بن أبي عامر اختصاصاً
شديداً واتصل بوالدته وأهله وجرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات
وتسهيل وجوه الخير غير قليل ، مع تصرفه في كل ما يتصرف فيه أصحاب السلطان
من العناية بالناس وغير ذلك .

هـبر :

وأشنع من هذا أنه كانت لسعيد بن مُنذر بن سعيد صاحب الصلاة في
جامع قرطبة أيام الحكم المستنصر بالله رحمه الله جارية يحبها حبّاً شديداً ،

فعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها . فقالت له ساخرة به ، وكان عظيم اللحية : إن لحيتك أستبشع عظمها فإن حذف منها كان ما ترغبه . فأعمل الجملين فيها حتى لطفت . ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها ، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به . وكان في جملة من حضر أخوه حكيم بن منذر فقال لمن حضر : أعرض عليها أني أخطبها أنا ، ففعل فأجابت إليه . فتزوجها في ذلك المجلس بعينه ورضى بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه وأجهاده .

فأنا أدركت سعيداً هذا وقد قتله البربر يوم دخولهم قرطبة عنوة وأنتهبهم إياها وحكم المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم ، وهو مع ذلك شاعر طيب وفقهه . وكان أخوه عبد الملك بن منذر متهماً بهذا المذهب أيضاً . ولى خطبة الرد (١) أيام الحكم رضى الله عنه . وهو الذي صلبه المنصور بن أبي عامر إذ اتهمه هو وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة أنهم يبايعون سرّاً لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر رضى الله عنهم ، فقتل عبد الرحمن وصلب عبد الملك بن منذر وبدد شمل جميع من اتهم . وكان أبوهم قاضى القضاة منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال أيضاً . وكان أخطب الناس وأعلمهم بكل فن وأورعهم وأكثرهم هزلاً ودعابة . وحكم المذكور في الحياة في حين كتابتى إليك بهذه الرسالة قد كُف بصره وأسنّ جدا .

نهر :

ومن عجيب طاعة المحب لمحبوبه أنى أعرف من كان سهر الليالى الكثيرة ولقى الجهد الجاهد فقطعت قلبه ضرور الوجد . ثم ظفر بمن يحب وليس به أمتناع ولا عنده دفع ، فحين رأى منه بعض الكراهة لما نواه تركه وأنصرف عنه ، لا تعقفاً ولا تخوفاً لكن توقفاً عند موافقته رضاه . ولم يجد من نفسه موعينا

(١) فى الأصل : « الرى » .

مسرته منه على كل الوجوه سخط أورضى . ومن ساعده على الوقت هذا وثبتت
جنانهُ وأُتيحت له الأقدار أمتوفى لذته جميعها وذهب غمّه وانقطع همّه ورأى أمله
وبلغ مرغوبه . وقد رأيتُ من هذه صفته . وفي ذلك أقول أبياتاً ، منها :

إذا أنا بَلَغتُ نفسى المُنَى مِنْ رَشَأٍ مازال لى مُمرِضاً
فما أُبالى الكُره من طاعة ولا أُبالى سَخَطاً مِنْ رِضا
إذا وجدتُ الماء لا بُدَّ أَنْ أَطْفِئَ به مُشعلَ جَمَرِ الغضا

باب العاذل

وللحُب آفات ، فأولها العاذل . والعذال أقسام ، فأصلهم صديقٌ قد أسقطت
مؤونةَ التحفظ بينك وبينه فعذله أفضل من كثير المساعدات ؟ وهى من الحظ
والنهي ، وفي ذلك زاجر للنفس عجيب ، وتقوية لطيفة لها عرض ، وعمل ودواء
تشتد عليه الشهوة ، ولا سيما ان كان رفيقاً فى قوله حسن التوصل إلى ما يُورد
من المعانى بلفظه ، عالماً بالأوقات التى يؤكّد فيها النهى ، وبالأحيان التى يزيد
فيها الأمر . والساعات التى يكون فيها وقفاً بين هذين ، على قدر ما يرى من تسهيل
العاشق وتوعّره ، وقبوله وعصيانه .

ثم عاذل زاجر لا يفيق أبداً من الملامة ، وذلك خطب شديد وعبء ثَقِيل .
ووقع لى مثلُ هذا ، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يُشبهه ، وذلك أن
أبا السرى عمار بن زياد صديقنا أكثر من عذلى على نحو نحوه وأعان على
بعض من لامنى فى ذلك الوجه أيضاً ، وكنت أظن أنه سيكون معى مُخطئاً
كنتُ أو مصيباً . لو كيد صداقتى وصحيح أخوتى به .

ولقد رأيتُ من اشتدَّ وجده وعَظُمَ كلفه حتى كان العذْل أحبَّ شىء إليه ،
ليرى العاذلَ عصيانَه ويستلذَّ مخالفتَه ، ويحصلُ مقاومته للأئمة وغلبيته إياه . كالملك
الهازم لعدوه والمجادل الماهر الغالب لخصمه ، ويُسرَّ بما يقع منه فى ذلك وربما

كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل وفي ذلك أقول أبياتاً ، منها :

أحبُّ شيء إلىَّ اليومُ والعَدْلُ كي أسمعَ أسم الذي ذكره إلىَّ أمل
كأنني شاربٌ بالعَدْلُ صافيةً وبأسم مولاي بعد الشرب أتقل

باب المساعدة من الاخوان

ومن الأسباب المتمنّاة في الحُب أن يهب الله عزّ وجل للإنسان صديقاً مُخلصاً ، لطيفَ القول ، بسيطَ الطّول . حسنَ المآخذ . دقيقَ المنفذ . متمكنَ البيان ، مُرهِفَ اللسان ، جليلَ الحلم ، واسعَ العلم ، قليلَ الخالفة ، عظيمَ المساعدة ، شديدَ الاحتمال صابراً على الإدلال ، جمّ الموافقة ، جميلَ الخالفة ، مستوًى المطابقة ، محمودَ الخلائق ، مكفوفَ البوائق ، محتومَ المساعدة ، كارهها للمباعدة ، نبيلَ المدخل ، مصروفَ الغوائل ، غامضَ المعاني ، عارفاً بالأمانى ، طيبَ الأخلاق ، سرىّ الاعراق ، مكتومَ السر ، كثيرَ البر ، صحيحَ الأمانة ، مأمونَ الخيانة ، كريمَ النفس ، نافذَ الحس ، صحيحَ الخدس ، مضمونَ العون ، كاملَ الصّون ، مشهورَ الوفاء ، ظاهرَ الغناء ، ثابتَ القريحة ، مبذولَ النصيحة ، مستيقنَ الوداد ، سهلَ الأنقياد ، حسنَ الاعتقاد ، صادقَ اللهجة ، خفيفَ المهجة ، عفيفَ الطباع ، رحبَ الذراع ، واسعَ الصدر ، متخلقاً بالصبر ، يألف الإمحاض ، ولا يعرف الإعراض ، يستريح إليه ببلا بله ، ويشاركه في خلوة فقره ، ويفاوضه في مكتوماته ، وإن فيه للمحب لأعظمَ الراحة ، وأين هذا ، فإن ظفرت به يداك فشُدّها عليه شدّ الضنين ، وأمسك بهما إمساك البخيل ، وصنّه بطارفك وتالدك ، فمعه يكمل الأنس ، وتنجلي الأحزان ، ويقصر الزمان ، وتطيب الأحوال . ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلاً ، ورأياً حسناً ، ولذلك اتخذ الملوك الوزراء والدخلاء كي يخففوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمور وطوّقوه من باهض الأحوال . واسكى يستغنوا بأرائهم ويستمدّوا بكفائتهم . وإلا فليس في قوة

الطبيعة أن تقاوم كل ما يرد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها .
ولقد كان بعض المحبين ، لعدم هذه الصفة من الإخوان وقلة ثقته منهم لما جرب به
من الناس وأنه لم يعد من باح إليه بشيء من سره أحد وجهين إما إزرأ على
رأيه وإما إذاعة لسره ، أقام الوحدة مقام الأنس . وكان ينفرد في المكان
النازع عن الأنيس ، ويناجي الهوى ، ويكلم الأرض ، ويجد في ذلك راحة كما
يجد المريض في التأوه والحزون في الزفير ؛ فإن الهموم إذا ترادفت في القلب ضاق
بها ، فإن لم ينض منها شيء باللسان ، ولم يسترح إلى الشكوى لم يلبث أن يهلك
غمًا ويموت أسفًا . وما رأيت الاسعاد أكثر منه في النساء . فعندهن من المحافظة
على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواطؤ على طيئه إذا أطلعن عليه ما ليس عند
الرجال ، وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة
مرمية عن قوس واحدة . وإنه ليجد عند العجائز في هذا الشأن مالا يوجد
عند الفتيات ، لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير ، وهذا
لا يكون إلا في الثدرة . وأما العجائز فقد يتسن من أنفسهن فأنصرف الإشفاق
محضًا إلى غيرهن .

هــ :

وإني لأعلم امرأة مؤسرة ذات جوار وخدم ، فشاع على إحدى جواريهـا
أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها وأن بينهما معاني مكروهة ، وقيل لها : إن
جاريـتك فلانة تعرف ذلك وعندها جليـة أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة
فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يصبر على مثله جلداء الرجال ، رجاء
أن تبوح لها بشيء مما ذكر لها ، فلم تفعل البتة .

هــ :

وإني لأعلم امرأة جميلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على
الخير ، وقد ظفرت بكتاب لفتى إلى جارية كان يكلف بها ، وكان في غير ملكها ،

فعرّفته الأمر فرام الإنكار فلم يتهبأ له ذلك ، فقالت له : مالك ؟ ومن ذا عصم ؟
 فلا تُبال بهذا فوالله لا أطلعت على سرّ كما أحداً أبداً ، ولو أمكنتني أن أبتاعها
 لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك فى مكان تصل إليها فيه ولا يشعر
 بذلك أحد ؛ وإنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحب
 أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيها فى تزويج يقيمة ، وإعارة ثيابها
 وحليها لعروس مُقلّة . وما أعلم علّة تمكّن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرّغات
 البال من كل شىء إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتألف ووجوهه
 لاشغل لهن غيره ولا خلّقن لسواه . والرجال مُقتسمون فى كسب المال وصحبة
 السلطان وطّاب العلم وحيطة العيال ومُكابدة الأسفار والصيد وضروب
 الصناعات ومُباشرة الحروب ومُلاقة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الأرض ، وهذا
 كله مُتحيّف للفراغ ، صارف عن طريق البطل . وقرأت فى سير ملوك السودان
 أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقى عليهنّ ضرباً من غزل الصوف
 يشتغلن بها أبد الدهر ؛ لأنهم يقولون : إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى
 الرجال ، وتحنّ إلى النكاح . ولقد شاهدت النساء وعلمتُ من أسرارهنّ ما لا يكاد
 يعلمه غيرى ؛ لأنى رُبيت فى حجورهنّ ، ونشأت بين أيديهنّ ، ولم أعرف غيرهنّ .
 ولا جالستُ الرجال إلا وأنا فى حدّ الشباب وحين تفيل وجهى . وهنّ علمننى
 القرآن ورويننى كثيراً من الأشعار ودرّبننى فى الخط ، ولم يكن وكدى وإعمال
 ذهنى مذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جدّاً إلا تعرّف أسبابهنّ ، والبحث عن
 أخبارهنّ ، وتحصيل ذلك . وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهنّ ، وأصل ذلك غيرة
 شديدة طبعتُ عليها ، وسوء ظن فى جهتهنّ فطرتُ به ، فأشرفتُ من أسبابهنّ
 على غير قليل . وسيأتى ذلك مفسراً فى أبوابه إن شاء الله تعالى .

باب الرقيب

ومن آفات الحب الرقيب ، وإنه لخصى باطنة ، وبرسام مُلحّ ، وفكر

مُكَبِّ . والرقباء أقسام ، فأولهم مُثْقِل بالجلوس غير متممّ في مكان أجمع فيه المرء مع محبوبه ، وعزما على إظهار شيء من سرّهما والبوح بوجدتهما والأفراد بالحديث . ولقد يعرض للمُحب من القلق بهذه الصفة مالا يعرض له مما هو أشد منها ، وهذا وإن كان يزول سريعاً فهو عائق حال دون المُراد وقطع متوفر الرجاء .

ضمير :

ولقد شاهدت يوماً مُحبين في مكان قد ظنّا أنهما أنفردا فيه وتأهبا للشكوى فأستحليا ماهما فيه من الخلوة ، ولم يكن الموضع حمى ، فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يستثقلانه ، فرأى فعَدَل إليّ وأطال الجلوس معي ، فلو رأيت الفتى المحب وقد تمازج الأسفُ البادى على وجهه مع الغضب لرأيت عجباً . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

يُطِيلُ جُلُوساً وهو أثقل جالس ويُبْدي حديثاً لستُ أَرْضَى فُنونه
شام ورَضوى واللُّكامِ وَيَذْبل ولَبنان والصَّمان والحرب دونه

ثم رقيب قد أحس من أمرهما بطرف ، وتوجّس من مذهبهما شيئاً ، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك ، فيُدمن الجلوس ، ويَطيل القعود ، ويتخفى بالحركات ، ويرمُق الوجوه ، ويحصّل الأنفاس . وهذا أعدى من الحرب ، وإنى لأعرف مَنْ همَّ أن يُباطش رقيباً هذه صفته . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

مُواصل لا يُغِبُّ قَصْداً أعظم بهذا الوصال غماً
صار وصِرنا لفرط مالا يزول كالأسم والمُسمّى

ثم رقيب على المحبوب ، فذلك لاحيلة فيه إلا بترضية . وإذا أرضى فذلك غاية اللذة ، وهذا الرقيب هو الذى ذكرته الشعراء في أشعارها . ولقد شاهدت مَنْ تلطف في استرضاء رقيب حتى صار الرقيب عليه رقيباً له ، ومتغافلاً في وقت التغافل ، ودافعاً عنه وساعياً له . ففي ذلك أقول :

ورُب رقيب أرقبوه فلم يزل على سیدی عمداً ليُبعدني عنه
فما زالت الألفاظ تحكم أمره إلى أن غدا خوفاً له آمناً منه
وكان حُساماً سُلّ حتى يَهْدني فعاد مُحبّاً ما لنعمته كُنْه

وأقول قطعة ، منها :

صار حياةً وكان سَهْم رَدَى وكان سَمّاً فصار دِرْياً
وإني لأعرف مَنْ رَقَب على بعض من كان يُشفق عليه رقيباً وثق به عند
نفسه ، فكان أعظم الآفة عليه وأصل البلاء فيه .

وأما إذا لم يكن في الرقيب حيلة ولا وجد إلى ترضيه سبيل فلا طمع إلا
بالإشارة بالعين همساً وبالخاصة أحياناً والتعريض اللطيف بالقول ، وفي ذلك مُتعة
وبلاغ إلى حين يقنع به المُشتاق . وفي ذلك أقول شعراً أوله :

على سیدی منی رقيبٌ محافظٌ وفي لمن والاه ليس بنا كـ

ومنه :

وبقطع أسباب اللبابة في الهوى ويفعل فيها فعل بعض الحوارث
كأن له في قلبه ربيعة تُرى وفي كل عين مُخبر بالاحداث

ومنه :

على كل من حولي رقيبان رتباً وقد خصني ذوالعرش منهم بثالث
وأشنع ما يكون الرقيب إذا كان ممن أمتحن بالعشق قديماً ودُهي به وطالت
مدته فيه ثم عرى عنه بعد إحكامه لمعانيه ، فكان راغباً في صيانة من رقب
عليه . فتبارك الله أي رقبة تأتي منه ، وأي بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى
من جهته . وفي ذلك أقول :

رقيب طالما عَرَف الغراما وقاسى الوجد وأمتنع المناما
ولاقى في الهوى ألماً أليماً وكاد الحب يُورده الحماما
وأَتقن حيلة الصَّب المعنى ولم يضع الإشارة والكلاما

وأعقبه التسلي بعد هذا وصار يرى الهوى عاراً وذاماً
وصير دون من أهوى رقيباً ليبعد عنه صَباً مُستهما
فأى بليّة صُبّت علينا وأى مُصيبة حلّت لِماما
ومن طريف معاني الرقباء أنى أعرف محبين مذهبهما واحد في حُب محبوب
واحد بعينه ، فلعهدي بهما كُل واحد منهما رقيب على صاحبه . وفي ذلك أقول :
صَبَّان هَيَّانَانِ فِي وَاحِدٍ كَلَاهَا عَنْ خِذْنِهِ مُنَحْرِف
كَالْكَلْبِ فِي الْآرَى ^(١) لَا يَعْتَلِف وَلَا يُخَلِّي الْغَيْرَ أَنْ يَعْتَلِف

باب الواشى

ومن آفات الحُب الواشى ، وهو على ضربين . أحدهما واش يريد القطع
بين المتحابين فقط ، وإن هذا لأفترها سوءة ، على أنه السم الذعاف والصاب الممقر
والخُتف القاصد والبلاء الوارد . وربما لم يَنجِع ترقيشه ^(٢) . وأكثر ما يكون
الواشى فإلى المحبوب ، وأما الحب فهيهات ، حال الجريض دون القريض .
ومنع الحُرَب من الطرب ، شغله بما هو مانع له من استماع الواشى . وقد علم
الوُشاة ذلك ، وإِنما يقصدون إلى الخُلَى البال ، الصائل بحوزة الملك ، المتعقب
عند أقل سبب .

وإن للوُشاة ضروباً من التَّنْقِيل ، فمنها أن يذكر للمحبيب عمن يُحِب أنه
غير كاتم للسر ، وهذا مكان صعب المعاناة ، بطيء البرء إلا أن يوافق معارضاً
للمُحِب في محبته . وهذا أمر يوجب النِّفَار ، فلا فرج للمحبوب إلا بأن تُساعده الأقدار
بالإطلاع على بعض أسرار من يُحِب ، بعد أن يكون المحبوب ذا عقل ، وله حظ
من تمييز ، ثم يدعه والمطاولَة . فإذا تكذَّب عنده نقل الواشى مع ما أظهر من الجفاء
والتحفظ ولم يسمع لصره إذاعة علم أنه إِنما زوّر له الباطل ، وأضْمَحِل ماقام في

(١) الآرى : محبس الدابة .

(٢) الترقيش : الكلام المزين المزخرف .

نفسه . ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب ، وكان المحبوب شديد المراقبة عظيم السكتمان ، وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك في وجهه وحدث في حُب لم يكن ، وركبته رحمة ، وأظلمته فكرة ، ودهمته حيرة ، إلى إن ضاق صدره وباح بما نُقل إليه . فلو شاهدت مقام الحب في اعتذاره لعلمت أن الهوى سلطان مُطاع ، وبناء مشدود الأواخي ، وسنان نافذ ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف ، والإنكار والتوبة والرمى بالمقاليد ، فبعد لأي ماصح الأمر بينهما .

وربما ذكر الواشي أن ما يُظهر المحب من المحبة ليست بصحيحة ، وأن مذهبه في ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره . وهذا فصل وإن كان شديداً في النقل فهو أيسر معاناة مما قبله ، فحالة المحب غير حالة المتلذذ ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما . وقد وقع من هذا بُد كافية في باب الطاعة . وربما نقل الواشي أن هوى العاشق مشترك وهذه النار المُحرقة والوجع الفاشي في الأعضاء ، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أن يكون المُحب فتىً حسن الوجه حلوا الحركات مرغوباً فيه مائلاً إلى الذات دُنياوى الطبع ، والمحبوب امرأة جليلة القدر سريرة المنصب ، فأقرب الأشياء سَعِيها في إهلاكه وتصديها لحته . فكم صريع على هذا السبب ، وكم من سقى السم فقطع أمعاه لهذا الوجه . وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حدير ، والد أحمد المتنسك ، وموسى وعبد الرحمن ، المعروفين بابني لبني ، من قبل قطر الندى جاريته . وفي ذلك أقول محذراً لبعض إخواني قطعة ، منها :

وهل يأمن النسوان غير مغفل جهول لأسباب الردى متأرض (١)
وكم وارد حوضاً من الموت أسود ترشفه من طيب الطعم أبيض
والثاني واش يسعى للقطع بين المحبين لينفرد بالمحبوب ويستأثر به . وهذا

أشد شيء وأقطعها وأجزم لاجتهاد الواشي واستفادة جُهدِهِ .

ومن الوُشاة جنس ثالث ، وهو واِش يسعى بهما جميعاً ويكشف سرَّهما ، وهذا لا يُلْتَفَت إليه إذا كان المُجِبّ مساعداً . وفي ذلك أقول :

عجبتُ لوَاشٍ ظَلَّ يَكشِفُ أَمْرَنَا وما يَسْوى أَخْبَارَنَا يَتَنَفَّسُ
وماذا عَلَيْهِ من عَنَائِي وَلَوْ عَنِي أنا آكلُ الرِّمَانِ وَالْوُلْدُ تَضْرُسُ

ولا بد أن أُورد ما يُشبه ما نحن فيه ، وإن كان خارجاً منه ، وهو شيء في بيان التنقيط والنمائم . فالكلام يدعو بعضه بعضاً كما شرطنا في أول الرسالة ، وما في جميع الناس شر من الوُشاة ، وهم النمامون ، وإن النميمة لطبع يدل على تنن الأصل ورداءة الفرع وفساد الطبع وخُبث النشأة ، ولا بد لصاحبه من الكذب . والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه ، وكل نمائم كذاب ، وما أُحِبَّتْ كَذَاباً قَطْ ، وإني لأسامح في إخاء كل ذي عيب وإن كان عظيماً ، وأكل أمره إلى خالقه عزّ وجل ، وأخذ ما ظهر من أخلاقه ، حاشي مَنْ أعلمه يكذب فهو عندي ماحٍ لكل محاسنه ، ومُعَفٍّ على جميع خِصاله ، ومُذهِبٌ كُلَّ ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلاً ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه . وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه ، حاشي الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانهِ حيث كان . وما رأيت قط ولا أخبرني مَنْ رأى كذاباً وترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت قط بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته والمتعرّض لمتاركتِهِ ، وهي سِمة ما رأيتها قط في أحد إلا وهو مزنون في نفسه إليه بشق ، مغموز عليه لعاهة سوء في ذاته . نعوذ بالله من الخذلان .

وقد قال بعض الحكماء : آخ من شئت وأجتنب ثلاثة : الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، والمُلُولُ فإنه أوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكدها يخذلك ، والكذاب فإنه يجني عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر .

وحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسن العهد من الإيمان .
وعنه عليه السلام : لا يؤمن الرجلُ بالإيمان كله حتى يدع الكذب في المزاح .
حدثنا بهما أبو عمر أحمد بن محمد عن محمد بن علي بن رفاعه عن علي بن
عبد العزيز عن أبي عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه ، والآخر منهما مُسند إلى
عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما .

والله عز وجل يقول : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً
عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سُئل هل يكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال :
نعم . قيل : فهل يكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن
كذاباً ؟ قال : لا .

حدثناه أحمد بن محمد بن أحمد عن أحمد بن سعيد عن عبيد الله بن يحيى
عن أبيه عن مالك بن أنس عن صفوان بن سليم .
وبهذا الإسناد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا خير في الكذب . في
حديث سُئل فيه .

وبهذا الإسناد عن مالك أنه بلغه عن ابن مسعود أنه كان يقول : لا يزال
العبد يكذب وينكت في قلبه نُكْة سوداء حتى يسود القلب فيُكتب عنده
الله من الكذابين .

وبهذا الإسناد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : عليكم بالصدق فإنه
يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة . وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور
والفجور يهدى إلى النار .

وروى أنه أتاه صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله ، إنى أستر بثلاث :
الخمر والزنا والكذب . فمرنى أيهما أترك . قال : أترك الكذب . فذهب منه . ثم
أراد الزنا ففكر فقال : آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألنى : أزنيت ؟

فإن قلت : نعم ، حدثني ؛ وإن قلت : لا ، نقضت العهد . فتركه . ثم كذلك في
الخر . فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني تركت
الجميع .

فالكذب أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوء ، وجالب لمقت الله عز وجل .
وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : لا إيمان لمن لا أمانة له .
وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : كل الخلال يُطبع عليها المؤمن إلا الخيانة
والكذب . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاث من كن فيه كان
منافقا : من إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا أُوْتِمَن خان .

وهل الكفر إلا كذب على الله عز وجل ، والله الحق وهو يحب الحق
وبالحق قامت السموات والأرض . وما رأيت أخزى من كذاب ، وما هلك
الدول ولا هلك الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير
النائم والكذب ، ولا أكدت البغضاء والإحسان المردية إلا بنائم لا يحظى
صاحبها إلا بالمقت والخزى والذل ، وأن ينظر منه الذي ينقل إليه فضلاً عن غيره
بالعين التي ينظر بها من الكلب . والله عز وجل يقول : (وَيَلْ لَّكُلٍّ
هُمَزَةٌ لُّزَةٌ) . ويقول جل من قائل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
فَتَبَيَّنُوا) . فسمى النقل باسم الفسوق . ويقول : (وَلَا تَطْعَ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ .
هَمَّازٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ . مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مَعْتَدٌ أَثِيمٌ . عَتُلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ) . والرسول عليه
السلام يقول : لا يدخل الجنة قتات (١) ويقول : وإياكم وقاتل الثلاثة .
يعني المنقل والمنقول إليه والمنقول عنه . والأحنف يقول : الثقة لا يبلِّغ ، وحق لدى
الوجهين ألا يكون عند الله وجيهاً . وهو ما يجعله من أخس الطبائع وأرذلها .
ولي إلى أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفى الشاعر رحمه الله ، وقد نقل إليه
رجل من إخواني عني كذباً على جهة المزلة ، وكان هذا الشاعر كثير الوهم فأغضبه

وصدّقه ، وكلاهما كان لى صديقاً ، وما كان الناقل إليه من أهل هذه الصفة
ولكنه كان كثير المزاح جم الدعابة . فكتبت إلى أبى إسحاق ، وكان يقول
بالخير ، شعراً منه :

ولا تبدّل قاله قد سمعتها تُقال ولا تدرى الصحيح بما تدرى
كمن قد أراق الماء للآل إن بدا فلاقى الردى فى الأفيح المهمه القفر
وكتبت إلى الذى نقل عني ، شعراً منه :

ولا تزعمها فى الجدّ مزحاً كؤلج فساد علاج النفس طيّ صلاحها
ومن كان نقل الزور أمضى سلاحه كمثّل الحبارى (١) تتقي بسلاحها
وكان لى صديق مرة ، وكثّر التدخيل بينى وبينه حتى كدح ذلك فيه واستبان
فى وجهه وفى لحظه ، وطبعت على التأتى والتربّص والمسالمة ما أمكنت ، ووجدت
بالانخفاض سبيلاً إلى معاودة المودة ، فكتبت إليه شعراً ، منه :

ولى فى الذى أبدى مرامٍ لو أنها بدت ما ادعى حسن الرماية وهز
وأقول مخاطباً لعبيد الله بن يحيى الجزيرى الذى يحفظ لعمه الرسائل البليغة ،
وكان طبع الكذب قد أستولى عليه وأستحوذ على عقله وألقه ألفة النفس الأمل ،
ويؤكد نقله وكذبه بالآيمان المؤكّدة المغلّظة ، مجاهرأ بها أ كذب من السراب ،
مستهتراً بالكذب مشغوفاً به ، لا يزال يحدث من قد صحّ عنده أنه لا يصدقه ،
فلا يزجره ذلك عن أن يحدث بالكذب :

بدا كل ما كتمته بين مخبر وحال أرتنى قبّح عقّدك بيناً
وكم حالة صارت بياناً بحالة كما تثبت الأحكام بالحبل الزنا
وفيه أقول قطعة منها :

أنم من المرآة فى كل ما درى وأقطع بين الناس من قصب الهند
أظن المنايا والزمان تعلمها تحيّلها بالقطع بين ذوى الود

(١) الحبارى : طائر أكبر من الدجاج الأهل .

وفيه أيضاً أقول من قصيدة طويلة :

وأكذب من حُسن الظُّنون حديثه
وأقبح من دَيْنٍ وفقر مُلَازِم
وأمر ربَّ العرش أضيعُ عنده
وأهونُ من شكوى إلى غير راحم
تَجَمَّع فيه كلَّ خِزْيٍ وفَضْحة
فلم يُبقِ شتْماً في المقال لشاتم
وأثقلُ من عَذْلٍ على غير قابل
وأبرد برداً من مدينة سالم
وأبغض من بين وهجر ورقبة
جُمِعن على حرَّان حيران هائم
وليس من نَبِّه غافلاً ، أو نصيح صديقاً ، أو حفظ مسلماً ، أو حكي عن فاسق ،
أو حدث عن عدو ما لم يكن يكذب ولا يكذب ، ولا تعتمد الضغائن ، متنبِّلاً .
وهل هلك الضعفاء وسقط من لا عقل له إلا في قلة المعرفة بالناصح من النمام ، وهما
صفتان متقاربتان في الظاهر متفاوتتان في الباطن ، إحداهما داء والأخرى دواء .
والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرها ، لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضى
في الديانة ، ونوى به التشييت بين الأولياء ، والتضريب بين الإخوان ، والتحريش
والتوبيش والترقيش . فمن خاف إن سلك طريق النصيحة أن يقع في طريق
النميمة ، ولم يثق لنفاذ تمييزه ومضاء تقديره فيما يَرده من أمور دنياه ومعاملة
أهل زمانه ، فليجعل دينه دليلاً له وسراجاً يستضيء به ، فحيثما سلك به سلك ،
وحيثما أوقفه وقف . فشارع الشريعة وباعث الرسول عليه السلام ومرتب الأوامر
والنواهي أعلم بطريق الحق وأدرى بعواقب السلامة ومغيبات النجاة من كل
ناظر لنفسه بزعمه ، وباحث بقياسه في ظنه .

باب إلى صل

ومن وجوه العشق الوصل ، وهو حظ رفيع ، ومرتببة سرية ، ودرجة
عالية ، وسعد طالع . بل هو الحياة المجددة ، والعيش السنّي ، والسرور الدائم
ورحمة من الله عظيمة . ولولا أن الدنيا دار ممرٍّ ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء
وأمان من المسكاره ، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه ،

والفرح الذى لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى . ولقد
جربت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنو من
السلطان ، ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ،
ولا الأمن بعد الخوف ، ولا الترويح على المال ، من الموقع فى النفس ، ما للوصل ؛
لا سيما بعد طول الأمتناع ، وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الجوى ، ويتوقد لهيب
الشوق ، وتنصرم نار الرجاء . وما أصناف النبات بعد غيب القطر ، ولا إشراق
الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات فى الزمان السجسج ، ولا خير المياه المتخللة
لأفانين النوار ، ولا تأنق القصور البيض قد أحسدت بها الرياض الخضر ،
بأحسن من وصل حبيب قد رُضيت أخلاقه ، ومُحسنت غرائزه ، وتقابلت فى
الحسن أوصافه . وانه لمعجز السنة البلغاء ، ومقصر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش
الألباب ، وتعزب الأفهام . وفى ذلك أقول :

وسائل لي عما لي من العمر	وقدر أرى الشيب في القودين والعذر
أحبته ساعة لا شيء أحسبه	عمرأ سواها بحكم العقل والنظر
فقال لي كيف ذا بينه لي فلقد	أخبرتني أشنع الأنباء والخبر
فقلت إن التي قلبي بها علق	قبلتها قبلة يوماً على خطر
فما أعدت ولو طالت سني سوى	تلك السوية بالتحقيق من عمرى

ومن لذيذ معاني الوصل المواعيد ، وإن للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شغاف
القلب ، وهو ينقسم قسمين ، أحدهما الوعد بزيارة الحب لمحبه . وفيه أقول
قطعة ، منها :

أسامر البدر لمّا أبطأت وأرى في نوره من سنا إشراقها عرّضا
فبت مشرطاً والود مختلطاً والوصل مُنبسطاً والهجر مُنقبضا
والثاني أنتظار الوعد من الحب أن يزور محبوه ، وإن لمبادئ الوصل وأوائل
الإسعاف لتولّجا على القواد ليس لشيء من الأشياء . وإني لأعرف من كان

مُتَحَنَّا بهوى فى بعض المنازل المصاحبة فكان يصل متى شاء بلا مانع ولا سبيل
إلى غير النظر والمحادثة زماناً طويلاً ، ليلاً متى أحب ونهاراً ، إلى أن ساعدته
الأقدار بإجابة ، ومكنته بإسعاد بعد يأسه ، لطول المدة . ولعهدى به قد كاد أن
يختلط عقله فرحاً ، وما كاد يتلاحق كلامه سروراً ، فقلت فى ذلك :

برغبة لو إلى ربى دعوتُ بها لكان ذنبى عند الله مغفورا
ولو دعوتُ بها أسد الفلا لعدا إضرارها عن جميع الناس مقصورا
فجاد باللهم لى من بعد منعته فاهتاج من لوعتى ما كان مغمورا
كشارب الماء كى يطفى الغليل به فغص فانصاع فى الأجداث مقبورا
وقلت :

جَرى الحُب مَنى مجرى النفس وأعطيت عيني عنان الفرس
ولى سيدٌ لم يزل نافراً ورُبَّتْما جاد لى فى الخلس
فقبَّلْتُهُ طالِباً راحة فزاد أليلاً (١) بقلبي اليبس
وكان فؤادى كنبت هَشم يَبِيس رَمَى فيه رام قَبَس
ومنها :

ويا جَوهر الصِّين سَحَقاً فقد غَنيت بياقوتة الأندلس
هَبر :

وإنى لأعرف جاريةً اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، وهو لا علم عنده ،
وكثر غمها وطال أسفها إلى أن ضنيت بحبه ، وهو بغرارة الصَّبى لا يشعر ،
ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياء منه ، لأنها كانت بكرًا بخاتمها ، مع الإجلال
له عن الهجوم عليه بما لا تدرى لعله لا يوافق . فلما تبادى الأمر وكانا إثنين فى النشأة ،
شكت ذلك إلى امرأة جزلة الرأى كانت تثق بها لتوليها تربيتها ، فقالت لها :
عرضى له بالشعر . ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه فى كل هذا . ولقد كان لقينا

ذِكْيًا لم يظن ذلك فيميل إلى تنقيش الكلام بوجهه ، إلى أن عيل صبرها وضاق صدرها ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردين ، ولقد كان يعلم الله عفيفاً متصاوناً بعيداً عن المعاصي ، فلما حان قيامها عنه بدرت إليه فقبلته في فمه ثم ولّت في ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة ، وهي تنهادى في مشيها ، كما أقول في أبيات لي :

كانها حين تخطو في تأودها قضيب نرجسة في الرّوض مَيّاس
كانما خلدتها في قلب عاشقها ففيه من وقّعها خطر ووسواس
كانما مشيها مشى الحمامة لا كدّ يُعاب ولا بطاء به باس
فبُهِت وسقط في يده وفّت في عضده ووَجِد في كبده وعلتّه وجمة ، فما هو إلا أن غابت عنه ووقع في شرك الرّدى وأشتعلت في قلبه النار وتصدت انفاسه وترادفت أوجاله وكثر قلقه وطال أرقه ، فما غمض تلك الليلة عينا ، وكان هذا بدء الحب بينهما دهرًا ، إلى أن جذّت جملتها يدُ النوى . وإن هذا لمن مصائد إبليس ودواعي الهوى التي لا يقف لها أحد إلا من عصمه الله عز وجل . ومن الناس من يقول : إن دوام الوصل يُودي بالحب ، وهذا هجين من القول ، إنما ذلك لأهل الملل ، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا .

وعنى أخبرك أني مارويتُ قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمًا . وهذا حكم من تداوى برأيه وإن ربه عنه سريعًا . ولقد باغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتني إلا مستزيدًا ، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسامة ولا رهقتني فترة ، ولقد ضمّني مجلس مع بعض من كنتُ أحب فلم أجعل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرًا عن مرادى وغير شافٍ وُجْدَى ولا قاضٍ أقلّ لبانة من لباناتي ، ووجدتني كلما أزددت دنوًا ازددت ولوعًا ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي ، فقلت في ذلك المجلس :

وَدِدْتُ بَأَنَّ الْقَلْبَ شَقَّ بِمُدِيَّةٍ وَأُدْخِلْتَ فِيهِ نَمَّ أَطْبِقَ فِي صَدْرِي
فَأَصْبَحْتَ فِيهِ لَا تَحْلِينَ غَيْرَهُ إِلَى مُقْتَضَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ
تَعِيشِينَ فِيهِ مَا حَيِّتُ فَإِنْ أَمْتُ سَكَنْتُ شَغَافَ الْقَلْبِ فِي ظِلِّ الْقَبْرِ

وما في الدنيا حالة تعدل لمحبين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وساما من
الأمين ، ورغبا عن الهجر ، وبعدا عن الملل ، وفقداء العذال ، ونواقفا في الأخلاق ،
وتكافيا في المحبة ، ، وأتاح الله لهما رزقا دلرا ، وعيشا قارا ، وزمانا هاديا ،
وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال ، وطالت صحبتهما وأتصلت إلى
وقت حلول الحمام الذي لا مرد له ولا بد منه ، هذا عطاء لم يحصل عليه أحد ،
وحاجة لم تقض لـ كل طالب ، ولولا أن مع هذه الحال الإشفاق من بعتات المقادير
الحكمة في غيب الله عز وجل ، من حلول فراق لم يكتسب ؛ واخترام منية في
حال الشباب أو ما أشبه ذلك ، لقلت إنها حال بعيدة من كل آفة ، وسليمة من
كل داخلية . ولقد رأيت من اجتمع له هذا كله إلا أنه كان دهي فيمن كان
يحب به بشراة الأخلاق ، ودالة على المحبة ، فكانا لا يتهنيان العيش ولا تطلع
الشمس في يوم إلا وكان بينهما خلاف فيه ، وكلاهما كان مطبوعا بهذا الخلق .
لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه ، إلى أن دنت النوى بينهما فتفرقا بالموت
المرتّب لهذا العالم ، وفي ذلك أقول :

كَيْفَ أَذْمُ النُّوَى وَأَظْلَمُهَا وَكُلُّ أَخْلَاقٍ مِنْ أَحَبِّ نَوَى
قَدْ كَانَ يَكْفِي هَوَى أَضْيَقَ بِهِ فَكَيْفَ إِذْ حَلَّ بِي نَوَى وَهَوَى

وروى عن زياد بن أبي سفيان رحمه الله أنه قال مجلسائه : من أنعم
الناس عيشة ؟ قالوا : أمير المؤمنين . فقال : وأين ما يلقي من قریش ؟ قيل :
فأنت . قال : أين ما ألقى من الخوارج والثغور ؟ قيل : فمن أيها الأمير . قال .
رجل مسلم له زوجة مسلمة لهما كفاف من العيش قد رضيت به ورضى بها لا يعرفنا
ولا نعرفه .

وهل فيما وافق إعجاب المخلوقين ، وجلا القلوب ، واستمال الحواس ، واستهوى النفوس ، واستولى على الأهواء ، واقتطع الأبواب ، واختلس العقول ، مستحسن يعدل إشفاق مُحب على محبوب . ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً ، وإنه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقة الرائقة المعنى لا سيما إن كان هوى يتكتم به . فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمُحبه ، وخجلته في الخروج مما وقع فيه بالاعتذار ، وتوجيهه إلى غير وجهه ، وتحيله في استنباط معنى يُقيمه عند جلسائه ، لرأيت عجباً ولذة مخفية لا تقاومها لذة ، وما رأيت أجلب للقلوب ولا أغوص على حياتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل . وإن للمُحبين في الوصل من الاعتذار ما أعجزَ أهل الأذهان الذكيّة والأفكار القوية . ولقد رأيت في بعض المرات هذا فقلت :

إذا مزجتَ الحقَّ بالباطلِ جَوَّزْتَ ماشئتَ على الغافلِ
وفيهِما فرقٌ صحيحٌ له علامةٌ تبدو إلى العاقلِ
كالتَّبَرِّ إن تَمَزَّجَ به فِضَّةً جازتَ على كل فتى جاهلِ
وإن تُصادفَ صائغاً ماهراً مَيَّزَ بين المحض والحائلِ

وإني لأعلم فتى وجارية ، كان يكلف كل واحد منهما بصاحبه ، فكانا يضطجعان إذا حضرها أحد وبيניהما المُسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش . ويلتقي رأساهما وراء المسند ويُقبَّل كل واحد منهما صاحبه ولا يُريان ، وكأنهما إنما يتمددان من الكل . ولقد كان بلغ من تكافئهما في المودة أمراً عظيماً ، إلى أن كان الفتى المُحب ربما استطال عليها . وفي ذلك أقول :

ومن أعاجيب الزمان التي طَمَّتْ على السامع والقائلِ
رَغْبَةُ مَرِّ كُوبٍ إلى رَاكِبٍ وَذِلَّةُ الْمَسْئُولِ لِلسَّائِلِ
وَطَوْلُ مَأْسُورٍ إلى آسَرٍ وَصَوْلَةُ الْمُقْتُولِ لِلْقَاتِلِ

ما إن سمعنا في الورى قبلها خضوع مأمول إلى أمل
 هل ها هنا وجه تراه سوى تواضع المفعول للفاعل
 ولقد حدثتني امرأة أثق بها أنها شاهدت فتى وجارية كان يجذ كل واحد منهما
 بصاحبه فضل وجَد ، قد اجتمعوا في مكان على طَرَب ، وفي يد الفتى سكين يقطع بها
 بعض الفواكه ، فجرّها جرّاً زائداً فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم ، وكان
 على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمة ، فصرفت يدها وخرقتها وأخرجت منها
 فضلة شدّ بها إبهامه . وأما هذا الفعل للمحب فقليل فيما يجب عليه ، وفرض
 لازم وشريعة مؤداة ، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها .

ضمير :

وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمي المعروف بابن برطال ، وعمها كان
 قاضي الجماعة بقُرطبة محمد بن يحيى ، وأخوه الوزير القائد الذي كان قتله غالب
 وقائدين له في الواقعة المشهورة بالشعور ، وهما مروان بن أحمد بن شهيد ويوسف
 ابن سعيد العسكي ، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ابن الوزير يحيى بن إسحاق ،
 فعاجلته المنية وهو في أغص عيشه وأنضر سرورها ، فبلغ من أسفها عليه أن باتت
 معه في دثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف
 بعده إلى حين موتها .

وإن للوصل المختلس الذي يُخاتل به الرقباء ويتحفّظ به من الحُضر ، مثل
 الضحك المستور ، والنحنحة ، وجولان الأيدي ، والضغط بالأجناب ، والقرص
 باليد والرجل ، لموقعاً من النفس شهياً . وفي ذلك أقول :

إن للوصل الخفي محلاً ليس للوصل المسكين الجليّ
 لذة أمرها بارتقاب كمسير في خلال النقي

ضمير :

ولقد حدثتني ثقة من إخواني جليل من أهل البيوتات أنه كان علق في

صباه جارية كانت في بعض دُور آله ، وكان ممنوعاً منها فهم عقله بها . قال لي :
فتنزهنا يوماً إلى بعض ضياعنا بالسهلة غربى قرطبة مع بعض أعمامى ، فتمشينا
في البساتين وأبعدنا عن المنازل وانبطنا على الأنهار . إلى أن غيمت السماء
وأقبل الغيث ، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي الجميع . قال : فأمر عمى ببعض
الأغطية فألقى علىّ وأمرها بالاحتضان معى ، فظن بما شئت من التمكن على
أعين الملاء وهم لا يشعرون ، ويالك من جمع كخلاء ، واحتفال كانفراد . قال لي :
فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبداً . واعهدى به وهو يحدثنى بهذا الحديث وأعضاؤه
كلها تضحك وهو يهتز فرحاً على بعد العهد وامتداد الزمان . ففى ذلك أقول
شعراً ، منه :

يَضْحَكُ الرُّوضُ وَالسَّحَابُ تَبْكِي كَحَبِيبٍ رَأَى صَبَّ مُعْنَى
خَبِيرٍ :

ومن بديع الوصل ما حدثنى به بعض إخوانى أنه كان فى بعض المنازل
المُصَاقِبَةِ له هوى ، وكان فى المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر ، فكانت
تقف له فى ذلك الموضع ، وكان فيه بعض البُعد ، فتسلم عليه ويدها ملفوفة فى
قميصها . فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك . فأجابته : إنه ربما أحس من أمرنا شيء
فوقف لك غيرى فسلم عليك فرددت عليه ، فصح الظن ، فهذه علامة بينى وبينك
فإذا رأيت يداً مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدي فلا تجاوب .

وربما استحلى الوصال وأتفقت القلوب حتى يقع التخالج فى الوصال ، فلا
يلتفت إلى لائمه ولا يستتر من حافظ ولا يبالي بناقل ، بل العـذل حينئذ
يُغرى . وفى صفة الوصل أقول شعراً ، منه :

كَمْ دُرْتُ حَوْلَ الْحُبِّ حَتَّى لَقَدْ حَصَّاتْ فِيهِ كَحُصُولِ الْفَرَّاشِ
وَمِنْهُ :

تَعْشُو إِلَى الْوَصْلِ دَوَاعِي الْمَوْتِ كَمَا سَرَى نَحْوَ سَنَا النَّارِ عَاشِ

ومنه : عَلَّمَنِي بِالْوَصْلِ مِنْ سَيِّدِي كَمِثْلِ تَعْلِيلِ الظَّمَاءِ الْعِطَاشِ
ومنه

لَا تَوَقَّفِ الْعَمِينَ عَلَى غَايَةِ فَأُحْسِنَ فِيهِ مُسْتَزِيدَ وَبَاشِ (١)
وَأَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ لِي :

هَلْ لِقَتِيلِ الْحُبِّ مِنْ وَادِي أَمْ هَلْ لِعَانِي الْحُبِّ مِنْ فَادِي
أَمْ هَلْ لِدَهْرِي عَمُودَةٌ نَحْوَهَا كَمِثْلِ يَوْمٍ مَرٍّ فِي الْوَادِي
ظَلَلْتُ فِيهِ سَابِحًا صَادِيًا يَا عَجَبًا لِلْسَابِحِ الصَادِي
ضَنَيْتُ يَا مَوْلَايَ وَجَدًا فَمَا تُبْصِرْنِي أَلْحَظُ عُوَادِي
كَيْفَ أَهْتَدَى الْوَجْدَ إِلَى غَائِبِ عَنْ أَعْيُنِ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي
مَلَّ مَدَاوَاتِي طَبِيبِي فَقَدْ يَرْحَمُنِي لِلشَّقَمِ حُسَادِي

باب الهجر

وَمِنْ آفَاتِ الْحُبِّ أَيْضًا الْهَجْرُ ، وَهُوَ عَلَى ضَرْبٍ : فَأُولَاهُ هَجْرٌ يُوجِبُهُ تَحْفِظُ
مِنْ رَقِيبٍ حَاضِرٍ ، وَإِنَّهُ لِأَحْلَى مِنْ كُلِّ وَصْلٍ ، وَلَوْلَا أَنْ ظَاهَرَ اللَّفْظُ وَحُكْمُ التَّسْمِيَةِ
يُوجِبُ إِدْخَالَهُ فِي هَذَا الْبَابِ لَرَجَعْتَ بِهِ عَنْهُ وَلَا جُلُتَهُ عَنْ تَسْطِيرِهِ فِيهِ . فحِينَئِذٍ
تَرَى الْحَبِيبَ مُنْحَرَفًا عَنْ مُحِبِّهِ مُقْبِلًا بِالْحَدِيثِ عَلَى غَيْرِهِ مُعْرَضًا بِمَعْرُضٍ لِمَثَلِنَا لِحَقِّ
ظَنَّتِهِ أَوْ تَسْبِقُ أُسْتِرَابَتِهِ . وَتَرَى الْحُبَّ أَيْضًا كَذَلِكَ ، وَلَكِنْ طَبْعُهُ لَهُ جَازِبٌ ،
وَنَفْسُهُ لَهُ صَارِفَةٌ بِالرَّغْمِ ، فَتَرَاهُ حِينَئِذٍ مُنْحَرَفًا كَمُتْقِلٍ ، وَسَاكِنًا كَنَاطِقٍ ،
وَنَازِرًا إِلَى جِهَةِ نَفْسِهِ فِي غَيْرِهَا . وَالْحَاقِقُ الْفُطْنُ إِذَا كَشَفَ بُوْهُمَهُ عَنْ بَاطِنِ
حَدِيثِهِمَا عَلِمَ أَنَّ الْخَافِي غَيْرَ الْبَادِي ، وَمَا جَهَرَ بِهِ غَيْرَ نَفْسِ الْخَبَرِ ، وَأَنَّهُ لَمَنْ
الْمَشَاهِدُ الْجَالِبَةُ لِلْفِتَنِ وَالْمَنَاظِرُ الْحَرَكَةُ لِلْسَوَاكِنِ الْبَاعِثَةُ لِلْخَوَاطِرِ الْمُهَيِّجَةِ لِلضَّمَائِرِ
الْجَازِبَةُ لِلْفِتَوَةِ . وَلِي أَيْيَاتٌ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا أَوْرَدْتُهَا . وَإِنْ كَانَ فِيهَا غَيْرُ هَذَا
الْمَعْنَى عَلَى مَا شَرَطْنَا ، مِنْهَا :

(١) كَذِبٌ فِي الْأَصْلِ .

يلوم أبو العباس جهلاً بطبعه
كما غير الحوت النعمة بالصدى
ومنها :

وكم صاحب أكرمه غير طائع
ولا مكره إلا لأمر تعمدا
وما كان ذاك البر إلا لغيره
كما نصبوا للطير بالحُب مصيدا
وأقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحكم وفنون من الآداب الطبيعية :

وسراء أحشائي لمن أنا مؤثر
وسراء أبنائي لمن أتجيب
فقد يشرب الصاب الكريه لعلّة
ويترك صفو الشهد وهو محبب
وأعدل في إجهاد نفسي في الذي
أريد وإني فيه أشقى وأتعب
هل الأولؤ المكنون والدّر كله
رأيت بغير الغوص في البحر يطلب
وأصرف نفسي عن وجوه طباعها
إذا في سواها صحّ ما أنا أرغب
كما نسخ الله الشرائع قبلنا
بما هو أدنى للصلاح وأقرب
وألقى سجايا كل خلق بمثلها
ونعت سجايي الصحيح المذهب
كما صار لون الماء لون إنائه
وفي الأصل لون الماء أبيض معجب
ومنها :

أقت ذوى ودّي مقام طبائعي
حياتي بها والموت منهن يرهب
ومنها :

وما أنا ممن تطبّيه (١) بشاشة
أزيد نفاراً عند ذلك باطناً
فإني رأيت الحرب يعلو أشتعالها
ولا حية الرقشاء وشئ ولوئها
وإن فرند السيف أعجب منظرأ
عجيب وتحت الوشي سمّ مركب
وأجعل ذل النفس عزّة أهلها
وفيه إذا هزّ الحمام المذرب
إذا هي نالت ما بها فيه مذهب

(١) تطبّيه ، أى تختله وتخدعه .

فقد يضع الإنسان في التراب وجهه
فذل يسوق العز أجود للفتى
وكم ما كل أربت عواقب غيه
وما ذاق عز النفس من لا يذلها
ورودك نهل الماء من بعد ظمأة
ومنها :

وفي كل مخلوق تراه تفاضل
ولا ترض وِرْد الرِّيق إلا ضرورة
ولا تقربن ملح المياه فإنها
ومنها :

فخذ من جرأها ما تيسر وأفتنع
فمالك شرط عندها لا ولا يد
ومنها :

ولا تياسن مما ينال بحيلة
ولا تأمن الإظلام فالفجر طالع
ومنها :

أليح فإن الماء يكدر في الصفا
وكثر ولا تقش وقل كثير ما
فلو يتغذى المرء بالشَّم قاته

ثم هجر يُوجه التذلل ، وهو ألد من كثير الوصال ، ولذلك لا يكون إلا عن
ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه ، وأستحكام البصيرة في صحة عقده ، فحينئذ
يُظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر محبه ، وذلك لئلا يصفو الدهر البتة ، وليأسف
الحب إن كان مفترط العشق عند ذلك لا لما حل ، لكن مخافة أن يترقى الأمر

إلى ما هو أجلّ ، يكون ذلك الهجر سبباً إلى غيره ، أو خوفاً من آفة حادث ملل . ولقد عرض لي في الصبا هجر مع بعض من كنت آلف ، على هذه الصفة وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود . فلما كثر ذلك قلتُ على سبيل المزاح شعراً بديهياً ختمتُ كل بيت منه بقسم من أول قصيدة طرفة بن العبد المعلقة ، وهي التي قرأناها مشروحة على أبي سعيد الفقي الجعفري عن أبي بكر المقرئ عن أبي جعفر النحاس ، رحمهم الله ، في المسجد الجامع بقرطبة ، وهي :

تذكرت وداً للحبيب كأنه	نخولة أطلالٍ ببرقة تهمد
وعهدى بعهد كان لي منه ثابت	يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفت به لا موقناً برجوعه	ولا آيساً أبكى وأبكى إلى الغد
إلى أن أطال الناس عذلي وأكثروا	يقولون لا تهلك أسي وتجلد
كان فنون السخط ممن أحبه	خاليا سفين بالنواصف من دد
كان انقلاب الهجر والوصل مركب	يجور به الملاح طوراً ويهتدى
فوقت رضى يتلوه وقت تسخط	كما قسم الثرب المفايل باليد
ويبسم نحوى وهو غضبان مغرض	مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد

ثم هجر يوجب العتاب لذنب يقع من الحب ، وهذا فيه بعض الشدة ، لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل ماضى ، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة ، وموقناً من الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا . وهل شاهد مُشاهد أو رأت عين أوقام في فكر الذُّ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب ، وبعُد عنه كل بغيض ، وغاب عنه كل واش ، واجتمع فيه محبتان قد تصارما لذنب وقع من الحب منهما وطال ذلك قليلاً ، وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثمَّ مانع من الإطالة للحديث ، فابتدأ الحب في الاعتذار والخضوع والتذلل والأدلة بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال والتذم بما سلف ، فطوراً يدلى ببراءته ، وطوراً يردّ بالعفو ويستدعى المغفرة ويقر بالذنب

ولا ذنب له ، والمحجوب في كل ذلك ناظر إلى الأرض يُسارقه اللحظ الخفي ، وربما أدامه فيه ثم يبسم مخفياً لتبسمه ، وذلك علامة الرضى . ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر ، ويقبل القول ، وامتنحت ذنوب النقل ، وذهبت آثار السخط ، ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور ، ولو كان فكيف ولا ذنب ، وختم أمرها بالوصل الممكن وسقوط العقاب والإسعاد وتفرقا على هذا .

هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتلكن بتحديد الألسنة . ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هبة تعادل هبة محب لمحجوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء ، وأنبساط مدبري الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن ان قلب محجوبه عنده ووثق بميله إليه وصحة مودته له .

وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محجوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد امتنحت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف ، لا أجيب إلى الدنية ، ولا أساعد على الخضوع ، وفي الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل ، وأغتم فرصة الخضوع لو نجح ، وأتحمّل بلساني ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفنئ القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضى .

والتجنى بعض عوارض الهجران ، وهو يقع في أول الحب وآخره ، فهو في أوله علامة لصحة المحبة ، وفي آخره علامة لفتورها وباب للسلو .

نصير : فإن كنت تليق بالامانة راحة بسبب ذلك وأذكر في مثل هذا أني كنت مجتازاً في بعض الأيام بقرطبة في مقبرة باب عامر في أمة من الطلاب وأصحاب الحديث ، ونحن نريد مجلس الشيخ أبي القاسم

عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري بالرصافة أستاذي رضي الله عنه ، ومعنا أبو بكر
عبد الرحمن بن سليمان البلوي من أهل سبته ، وكان شاعراً مفلقاً وهو ينشد لنفسه
في صفة متجنّ معهود أبياتاً له ، منها :

سريع إلى ظهر الطريق وإنه إلى نقض أسباب المودة يسرع
يَطُول عَلَيْنَا أَنْ نُرْقِعَ وَدّه إذا كان في ترقيعه يتقطع
فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين خطور أبي الحسين بن علي
الفاقي رحمه الله تعالى وهو يوم أيضاً مجلس ابن أبي يزيد ، فسمعه فتبسّم رحمه الله
نحونا وطوانا ماشياً وهو يقول : بل إلى عقد المودة إن شاء الله ، فهو أولى . هذا
على جد أبي الحسين رحمه الله وفضله وتقربه وبراءته ونسكه وزهده وعلمه .
فقلت في ذلك :

دَع عَنْكَ نَقْضَ مودتي مُتَعَمِّداً وَأَعْقِدْ حِبَالَ وصالنا يا ظالم
ولترجعنْ أَرْدَتَهُ أَوْ لَمْ تُرِدْ كَرهاً لما قال الفقيه العالم
ويقع فيه المهجر^(١) والعتاب . ولعمري إن فيه إذا كان قليلاً للذة ، وأما
إذا تفاقم فهو فال غير محمود ، وأماراة وبيئة المصدر ، وعلامة سوء ، وهي بجملة
الأمر مطية المهجران ، ورائد الصريمة ، ونتيجة التجنى ، وعنوان الثقل ، ورسول
الانفصال ، وداعية القلى ، ومقدمة الصد ، وإنما يستحسن إذا لطف وكان أصله
الإشفاق . وفي ذلك أقول :

لعلّك بعد عَتَبِكَ أَنْ تَجُودَا بما منه عتبتَ وَأَنْ تَزِيدَا
فكم يوم رأينا فيه صَحْواً وَأَسْمَعْنَا بآخِرِهِ الرُّعُودَا
وعاد الصَّحو بعدُ كما عَلِمْنَا وَأَنْتَ كَذَاكَ نَرْجُو أَنْ تَعُودَا

وكان سبب قولي هذه الأبيات عتاب وقع في يوم هذه صفته من أيام الربيع
فقلتها في ذلك الوقت ، وكان لي في بعض الزمن صديقان وكانا أخوين فقابا في

(١) فيه : أى في التجنى .

سفر ثم قدما ، وقد أصابني رمد فتأخرا عن عيادتي ، فكتبتُ إليهما ، والمحاطبة
للا كبر منهما ، شعرا منه :

وكنْتُ أعددُ أيضاً على أخيك بمؤلة السامع
ولكن إذا الدجن غطى ذكا ، فما الظن بالقمر الطالع

ثم هجر يوجهه الوشاة ، وقد تقدم القول فيهم وفيما يتولد من ديب عقاربهم ،
وربما كان سبباً المقاطعة البتة .

ثم هجر الملل ، والملل من الأخلاق المطبوعة في الإنسان ، وأحرى لمن دهي
به ألا يصفو له صديق ، ولا يصح له إخاء ، ولا يثبت على عهد ، ولا يصبر على
إلف ، ولا تطول مساعدته لمحِب ، ولا يعتقد منه ود ولا بغض . وأولى الأمور
بالناس ألا يغروه منهم وأن يفروا عن صحبته ولقائه . فلن يظفروا منه بطائل ،
ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المحبين وجعلناها في المحبوبين ، فهم بالجملة
أهل التجنى والتظنى . والتعرض للمقاطعة . وأما من تزيياً بأسم الحب وهو
مكول فليس منهم ، وحقه ألا يتجرع مذاقه ، ويُنفى عن أهل هذه الصفة ولا يدخل
في حملتهم .

وما رأيت قط هذه الصفة أشد تغلباً منها على أبي عامر محمد بن عامر رحمه الله ،
فلو وصف لي واصل بعض ماعلمته منه لما صدقته . وأهل هذا الطبع أسرع الخلق
محبةً ، وأقلهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه والصد ، وانقلابهم على الود
على قدر تسرعهم إليه . فلا تثق بملول ولا تشغل به نفسك ، ولا تعنها بالرجاء
في وفائه . فإن دُفعت إلى محبته ضرورة فعُدّه ابن ساعته ، وأستأنفه كل حين من
أحيانه بحسب ما تراه من تلونه ، وقابله بما يشا كله . ولقد كان أبو عامر المحدث
عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحقق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتي
عليه حتى يملكها ، ولو حال دون ذلك شك القتاد ، فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت
المحبة نفاراً ، وذلك الأنس سُروداً ، والقلق إليها قلقاً منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً

عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان . هذا كان دأبه حتى أئلف فيما ذكرنا من عشرات
ألوف الدنانير عدداً عظيماً ، وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحدق والذكاء
والنبيل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض .
وأما حسن وجهه وكمال صورته فشيء تقف الحدود عنه وتسكيل الأوهام عن وصف
أقله ولا يتعاطى أحد وصفه . ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ويتعمدون
الخطور على باب داره في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في
الجانب الشرقي بقُرطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، وفي هذا الدرب كانت
داره رحمه الله ملاصقة لنا ، لاشيء إلا للنظر منه . ولقد مات من محبته جوار
كُنْ علقن أوهامهن به ، ورثين له فخانهن مما أملنه منه ، فصرن رهائن البلى
وقتلتهن الوحدة .

وأنا أعرف جارية منهن كانت تُسمى عفراء ، عهدى بها لانتستر بمحبته
حيثما جلست ، ولا تجف دموعها ، وكانت قد تصيرت من داره إلى البركات
الخيال صاحب الفتيان . ولقد كان رحمه الله يُخبرني عن نفسه انه يمل اسمه فضلاً
عن غير ذلك .

وأما إخوانه فإنه تبدل بهم في عمره على قصره مراراً ، وكان لا يثبت
على زى واحد كآبى براقش ، حيناً يسكون في ملابس الملوك وحيناً في
ملابس الفتاك .

فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته على أى وجه كان ألا يستفرغ
عامة جهده في محبته ، وأن يُقيم اليأس من دوامه خصماً لنفسه ؛ فإذا لاحت له
مخايل الملل قاطعه أياماً حتى ينشط بآله ، ويبعد به عنه ، ثم يعاوده ، فربما دامت
المودة مع هذا . وفي ذلك أقول :

لا تَرْجُونَ مَلُولاً ليس المَلُولُ بَعْدَهُ
وَدَّ المَلُولُ فِدَاعَهُ عَارِيَةً مُسْتَرْدَّةً

ومن الهجر ضرب يكون متوليّه الحب ، وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه
والميل عنه إلى غيره ، أو لتقيل يلازمه ، فيرى الموت ويتجرّع غصص الأسى ،
والعضّ على نقيف (١) الحنظل أهون من رؤية ما يكره ، فينقطع وكبدته تنقطع ،
وفي ذلك أقول :

هجرتُ من أهواه لأعن قلى يا عجباً للعاشق الهاجر
لكنّ عيني لم تطق نظرة إلى حياء الرّشاش الغادر
فالموت أحلى مطمعاً من هوى يُباح للوارد والصادر
وفي الفؤاد النار مذكية فاعجب لصبّ جزع صابر
وقد أباح الله في دينه تقيّة المأسور للأسر
وقد أحل الكفر خوف الردى حتى ترى المؤمن كالكافر

هجر :

ومن عجيب ما يكون فيها وشيعه أنى أعرف من هام قلبه بمقتناء عنه نافر
منه ، فقاسى الوجد زمناً طويلاً ، ثم سَنحت له الأيام بسانحة عجيبة من الوصل
أشرف بها على بلوغ أمله ، فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه إلا كهؤلاء عاد
الهجر والبعد إلى أكثر ما كان قبل . فقلت في ذلك :

كانت إلى دهرى لي حاجة مقرونة في البعد بالمشتري
فساقها باللطف حتى إذا كانت من القرب على محجر
أبعدها عني فعادت كأن لم تبد للعين ولم تظهر

وقلت :

دنا أملى حتى مدت لأخذه يدًا فأنثنى نحو الجرّة راحلاً
فأصبحت لأرجو وقد كنت مُوقناً وأضحى مع الشعري وقد كان حاصلاً

(١) نقيف الحنظل : ما شق عن حبه .

وقد كنت محسوداً فأصبحت حاسداً وقد كنت مأمولاً فأصبحت آملاً
 كذا الدهرُ في كَرَاته وأنتقاله فلا يأمنُ الدهرَ مَنْ كان عاقلاً
 ثم هَجَرَ القَلَى ، وهنا ضلَّت الأساطير ونفدت الحيل وعظم البلاء ؛ وهو الذى
 خلى العقولَ ذواهلَ ، فمن دُهي بهذه الداهية فليتصدَّ لمحبوب محبوب به ، وليتعمد
 ما يعرف أنه يستحسنه . ويجب أن يجتنب ما يدرى أنه يكرهه ، فربما عطفه ذلك
 عليه إن كان المحبوب ممن يدرى قدر الموافقة والرغبة فيه ، وأما من لم يعلم قدر
 هذا فلا طمع فى استصرافه ، بل حسناتك عنده ذنوب . فإن لم يقدر المرء على
 استصرافه فليتعمد السُّلوان وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحُرمان ، ويسعى
 فى نيل رغبته على أى وجه أمكنه . ولقد رأيتُ مَنْ هذه صفته ، وفى ذلك
 أقول قطعة أولها :

دُهِيتَ بمن لو أدفع الموتَ دونه لقال إذا ياليتنى فى المقابر
 ومنها :

ولا ذنب لى إذ صرتُ أحدوركا بى إلى الورْد والدُّنيا تُسىء مصادرى
 وماذا على الشمس المنيرة بالضحى إذا قصُرت عنها ضعاف البصائر
 وأقول :

ما أقبحَ الهجرَ بعد وَصْلِ وأحسنَ الوصلَ بعد هجر
 كالوَفَرِ تحويه بعد فَقْر والفَقْرِ يأتيك بعد وَفَر
 وأقول :

معهود أخلاقك قسَمان والدهرُ فيك اليوم صِنْفان
 فإنك النُّعمان فيما مَضَى وكان للنُّعمان يومان
 يومُ نعيمٍ فيه سَعَد الورى ويومُ بَأْسَاءٍ وغُدوان
 فيومُ نِعْماك لغيرى ويو حى منك ذو بؤس وهِجران
 أليس حُبى لك مُستاهلاً لأن تُجازيه يا أحسان

وأقول قطعة منها :

يَا مَنْ جَمِيعُ الْحَسَنِ مُنْتَظِمٍ فِيهِ كَنْظَمُ الدَّرِّ فِي الْعَقْدِ
مَا بَالُ حَتْفِي مِنْكَ يَطْرُقُنِي قَصْداً وَوَجْهُكَ طَالِعُ السَّعْدِ

وأقول قصيدة أولها :

أَسَاعَةٌ تَوَدِّعُكَ أَمَّ سَاعَةُ الْخَشَرِ وَلَيْلَةٌ بَيَّنَّتْ مِنْكَ أُمَّ لَيْلَةُ النَّشْرِ
وَهَجْرُكَ تَعْذِيبُ الْمَوْحِدِ يَنْقُضِي وَيَرْجُو التَّلَاقِي أُمَّ عَذَابِ ذَوِي الْكَفْرِ

ومنها :

سَقَى اللَّهُ أَيَّامًا مَضَتْ وَلِيَالِيًّا تُحَاكِي لَنَا النَّيْلُوفَرَ الْغَضَّ فِي النَّشْرِ
فَأَوْرَاقُهُ الْأَيَّامِ حُسْنًا وَبَهْجَةً وَأَوْسَطُهُ اللَّيْلُ الْمُقْصَرَّ لِلْعُمْرِ
لَهَوْنَا بِهَا فِي غَمْرَةٍ وَتَأَلَّفَ تَمَرٌ فَلَا نَدْرِي وَتَأْتِي فَلَا نَدْرِي
فَاعْتَبِنَا مِنْهُ زَمَانٌ كَأَنَّهُ وَلَا شَكَّ حُسْنُ الْعَقْدِ أَعْقَبَ بِالْغَدْرِ

ومنها :

فَلَا تَيَأْسِي يَا نَفْسُ عَلَّ زَمَانَنَا يَعُودُ بِوَجْهِ مُقْبِلٍ غَيْرِ مُدْبِرٍ (١)
كَمَا صَرَفَ الرَّحْمَنُ مُلْكُ أُمِيَّةٍ إِلَيْهِمْ وَلَوْ ذِي بَالِ تَجَمَّلَ وَالصَّبْرِ
وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَمَدَحُ أَبَا بَكْرٍ هَشَامَ بْنِ مُحَمَّدٍ أَخَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

المرتضى رحمه الله .

فأقول :

أَلَيْسَ يُحِيطُ الرُّوحُ فِينَا بِكُلِّ مَا دَنَا وَتَنَاءَى وَهُوَ فِي حُجُبِ الصَّدْرِ
كَذَا الدَّهْرُ جِسْمٌ وَهُوَ فِي الدَّهْرِ رُوحُهُ مُحِيطٌ بِمَا فِيهِ وَإِنْ شئتُ فَاسْتَقِرْ

ومنها :

إِتَاوَتْهَا تَهْدَى إِلَيْهِ وَمِنَّةٌ تَقْبَلُهَا مِنْهُمْ يَقَاوِمُ بِالشُّكْرِ
كَذَا كُلُّ نَهْرٍ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ طَمَتْ غَزَارَتُهُ يَنْصَبُّ فِي لُجَجِ الْبَحْرِ

(١) كذا في الأصل .

باب الى فاء

ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق في الحب وغيره الوفاء ،
وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر ، وهو
يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات . وفي ذلك أقول قطعة منها :

أفعال كل امرئ تنبئ بعنصره والعين تنميك عن أن تطلب الأثر

ومنها :

وهل ترى قط دُفلى أنبتت عنباً أو تذخر النحل في أوكارها الصبرا
وأول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له ، وهذا فرض لازم وحق
واجب على المحب والمحبوب ، لا يحول عنه إلا خيث المحتد لا خلاق له ولا خير
عنده . ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام في أخلاق الإنسان وصفاته
المطبوعة والتطبع بها ، وما يزيد من المطبوع بالتطبع وما يضمحل من التطبع
بعدم الطبع ، لزدت في هذا المكان ما يجب أن يوضع في مثله ، ولكننا إنما
قصدنا التكلم فيما رغبته من أمراحب فقط . وهذا أمر كان يطول جداً إذ الكلام
فيه يتفنن كثيراً .

فهر :

ومن أرفع ما شاهدته من الوفاء في هذا المعنى وأهوله شأناً قصة رأيها عياناً ،
وهو أنى أعرف من رضى بقطيعة محبوبه وأعز الناس عليه ، ومن كان الموت
عنده أحلى من هجر ساعة في جنب طيبه لسر أودعه ، والتزم محبوبه يميناً غليظة
ألا يكلمه أبداً ولا يكون بينهما خبر أو يفضح إليه ذلك السر . على أن صاحب
ذلك السر كان غائباً فأنى من ذلك وتمادى هو على كتمان والثاني على هجرانه إلى
أن فرقت بينهما الأيام .

ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر ، وهي للمحب دون المحبوب ، وليس للمحبوب
ها هنا طريق ولا يلزمه ذلك ، وهي خطة لا يطبقها إلا جلد قوى واسع الصدر

حر النفس عظيم الحلم جميل الصبر حصيف العقل ماجد الخلق سالم النية . ومن قابل الغدر بمثله فليس بمستأهل للعلامة ، ولكن الحال التي قدمنا تفوقها جيداً وتفوتها بعداً . وغاية الوفاء في هذه الحال ترك مكافأة الأذى بمثله ، والكف عن سيئ المعارضة بالفعل والقول ، والتأني في جر حبل الصحبة ما أمكن ، ورُجيت الألفة ، وطُمع في الرجعة ، ولاحت للعودة أدنى مخيلة ، وشيمت منها أقل بارقة ، أو توجس منها أيسر علامة . فإذا وقع اليأس واستحكم الغيظ حينئذ والسلامة من غررك والأمن من ضررك والنجاة من أذاك ، وأن يكون ذكر ما سلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما وقع ، فرغى الأذمة حق وكيد على أهل العقول ، والحنين إلى ما مضى وألا ينسى ما قد فرغ منه وفنيت مدته أثبت الدلائل على صحة الوفاء . وهذه الصفة حسنة جداً وواجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم على أى حال كانت .

نصير

ولمهدى برجل من صفوة إخواني قد علق بجمارية فتناً كد الود بينهما ، ثم غدرت بعهده ونقضت وده وشاع خبرها ، فوجد لذلك وجداً شديداً .

نصير :

وكان لي مرة صديق ، ففسدت نيته بعد وكيد مودة لا يكفر بمثلها ، وكان علم كل واحد منا سر صاحبه ، وسقطت المؤونة ، فلما تغير على أفشى كل ما اطلع لي عليه مما كنت اطلعت منه على أضعافه ، ثم اتصل به أن قوله في قد بلغني ، فجزع لذلك وخشى أن أقارضه على قبيح فعلته . وبلغني ذلك فكتبت إليه شعراً أوُنسه فيه وأعلمه أني لا أقارضه .

نصير :

ومما يدخل في هذا الدرج ، وإن كان ليس منه ولا هذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب والكنه شبيه له على ما قد ذكرنا وشرطنا ، وذلك

الحب هو البادي بالالصوق والتعرض لعقد الأذمة والقاصد لتأكيد المودة والمستدعى صحة العشرة، والأول في عدد طلاب الأصفياء، والسابق في ابتغاء اللذة باكتساب الخلقة، والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال وخطمها بأشد خطام، فمن قسره على هذا كله إن لم يرد إتمامه؟ ومن أجبره على استجلاب المقة إن لم ينو ختمها بالوفاء لمن أراد عليه؟ والمحبوب إنما هو مجلوب إليه ومقصود نحوه وخير في القبول أو الترك فإن قبل فغاية الرجاء، وإن أبى فغير مستحق للذم. وليس التعرض للوصول والإيلاح فيه والتأني لكل ما يستجلب به من الموافقة وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء في شيء، فخط نفسه أراد الطالب، وفي سروره سعى وله احتطب. والحب يدعو ويحدوه على ذلك شاء أو أبى، وإنما يحمد الوفاء ممن يقدر على تركه.

وللوفاء شروط على المحبين لازمة. فأولها أن يحفظ عهد محبوبه ويرعى غيبته، وتستوى علانيته وسريته، ويطوى شره وينشر خيره، ويغطي على عيوبه ويحسن أفعاله، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ويرضى بما حمله، ولا يكثر عليه بما ينفر منه، وألا يكون طلعة ثؤوباً ولا ملة طروقاً. وعلى المحبوب إن ساواه في المحبة مثل ذلك، وإن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ولا له الاستشاشة عليه بأن يسومه الاستواء معه في درجته. وبحسبه منه حينئذ كتمان خبره وألا يقابله بما يكره ولا يخيفه به، وإن كانت الثالثة وهي السلامة مما يلقي بالجملة فليقنع بما وجد، وليأخذ من الأمر ما استدف (١) ولا يطلب شرطاً ولا يقترح حقاً. وإنما له ما سنعج بجدده أو ما حان بكده، واعلم أنه لا يستبين قبج الفعل لأهله، ولذلك يتضاعف قبجه عند من ليس من ذويه. ولا أقول قولي هذا ممتدحاً ولكن آخذاً بأدب الله عز وجل. (وأما بنعمة ربك فحدث).

(١) استدف : سهل وأمكن.

لقد مَنَحَنِي اللهُ عز وجل من الوفاء لكل من يَمُتُ إِلَى بَلْقِيَةِ واحدة ،
 ووهبني من المحافظة لمن يتذمّم مني ولو بمُحَادَثَتِهِ ساعة حظّاً ؟ أنا له شاكر وحامد
 ومنه مُسْتَمِدٌّ ومُسْتَزِيدٌ ، وما شئٌ أَثْقَلَ عَلَى من الغدر ، ولعمري ما سمحت نفسي
 قط في الفِكْرَةِ في إضرار مَنْ بَيْنِي وبينه أقل ذمام ، وإن عظمت جريرته
 وكثرت إِلَى ذنوبه ، وَلَقَدْ دَهَمَنِي من هذا غير قليل فما جزيت على
 السُّوءِ إِلَّا بِالْحُسْنِ ، والحمد لله على ذلك كثيراً ، وبالوفاء أَفْتَخِرُ في كلمة
 طويلة ذكرت فيها مامضنا من النكبات ، ودهمنا من الحل والترحال والتحول
 في الآفاق . أولها :

وَلِي فَوَلِّيَّ جَمِيلُ الصَّبْرِ يَتَّبِعُهُ	وَصَرَاحُ الدَّمْعِ مَا تُخَفِّيه أَضْلَعُهُ
جِسْمٌ مَلُولٌ وَقَلْبٌ آفٍ فَإِذَا	حَلَّ الْفِرَاقُ عَلَيْهِ فَهُوَ مُوجِعُهُ
لَمْ تَسْتَقَرَّ بِهِ دَارٌ وَلَا وَطَنٌ	وَلَا تَدَفَّأُ مِنْهُ قَطٌّ مَضْجَعُهُ
كَأَنَّمَا صَيَغَ مِنْ رَهْوِ السَّحَابِ فَمَا	تَزَالُ رِيحٌ إِلَى الْآفَاقِ تَدْفَعُهُ
كَأَنَّمَا هُوَ تَوْحِيدٌ تَضْيِقُ بِهِ	نَفْسُ الْكَفُورِ فَتَأْبَى حِينَ تُودَعُهُ
أَوْ كَوَكَبٍ قَاطِعٍ فِي الْآفَاقِ مُنْتَقِلُ	فَالسَّيْرِ يُغَرِّبُهُ حِينًا وَيُطْلَعُهُ
أُظْنَهُ لَوْ جَزَّتْهُ أَوْ تُسَاعِدُهُ	أَلْقَتْ عَلَيْهِ أَهْمَالُ الدَّمْعِ يَتَّبِعُهُ

و بالوفاء أيضاً أفْتَخِرُ في قصيدة لي طويلة أوردتها . وإن كان أكثرها ليس
 من جنس الكتاب ، فكان سبب قولي لها أن قوماً من مُخَالَفِي شَرْقِوَابِي
 فَأَسَاءُوا الْعَتَبَ في وجهي وقذفوني بأني أعضد الباطل بُحْجَتِي ، عجزاً منهم عن
 مُقَاوَمَةِ مَا أوردته من نصر الحق وأهله ، وحسداً لي . فقلت ، وخاطبت بقصيدي
 بعض إخواني وكان ذا فهم ، منها :

وَحُذِّنِي عَصَا مُوسَى وَهَاتِ جَمِيعَهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ حَيَّاتٌ ضَالٌّ نَضَائِضُ
 وَمِنْهَا :

يُرِيدُونَ فِي عَيْنِي عَجَائِبَ جَمَّةٍ وَقَدْ يُتِمَّنِي اللَّيْثُ وَاللَّيْثُ رَابِضُ

ومنها :

وَيَرَّ جُونُ مَا لَا يَبْلُغُونَ كَمَثَلِ مَا يُرْجَى مُحَالاً فِي الْإِمَامِ الرَّوَافِضِ

ومنها :

وَلَوْ جَلَدِي فِي كُلِّ قَلْبٍ وَمُهْجَةٍ لَمَا أَثَّرَتْ فِيهَا الْعَيُونُ الْمَرَائِضُ
أَبَتْ عَنْ دَنَى الْوَصْفِ ضَرْبَةً لَا زَبَّ كَمَا أَبَتْ الْفِعْلَ الْحُرُوفُ الْخَوَافِضُ

ومنها :

وَرَأَيْتُ لَهُ فِي كُلِّ مَا غَابَ مَسْلُكٌ كَمَا تَسْلُكُ الْجَسِمَ الْعُرُوقُ النَوَابِضُ
يَبِينُ مَدَبَ النَّمْلِ فِي غَيْرِ مُشْكَلٍ وَيُسْتَرُّ عَنْهُمْ لِلْفُيُولِ الْمَرَابِضُ

باب الغدر

وكما أنَّ الْوَفَاءَ مِنْ سِرِّيَّ النُّعُوتِ وَنَبِيلِ الصِّفَاتِ ، فَكَذَلِكَ الْغَدْرُ مِنْ ذَمِيمِهَا وَمَكْرُوهِهَا ، وَإِنَّمَا يُسَمَّى غَدْرًا مِنَ الْبَادِي . وَأَمَّا الْمُقَارِضُ بِالْغَدْرِ عَلَى مِثْلِهِ ، وَإِنْ اسْتَوَى مَعَهُ فِي حَقِيقَةِ الْفِعْلِ فَلَيْسَ بِغَدْرٍ وَلَا هُوَ مَعِيًّا بِذَلِكَ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) . وَقَدْ عَلَّمْنَا أَنَّ الثَّانِيَةَ لَيْسَتْ بِسَيِّئَةٍ وَلَكِنْ لَمَّا جَانَسَتْ الْأُولَى فِي الشَّبهِ أَوْقَعَ عَلَيْهَا مِثْلُ أَسْمِهَا ، وَسَيَأْتِي هَذَا مَفْسَّرًا فِي بَابِ السَّلْوِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَلَكثَرَةُ وَجُودِ الْغَدْرِ فِي الْمَحْبُوبِ أَسْتَغْرَبَ الْوَفَاءَ مِنْهُ فَصَارَ قَلِيلُهُ الْوَاقِعُ مِنْهُمْ يُقَاوِمُ الْكَثِيرَ الْمَوْجُودَ فِي سِوَاهُمْ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

قَلِيلُ وِفَاءٍ مِنْ يَهْوَى يَجِلُّ وَعَظْمُ وِفَاءٍ مِنْ يَهْوَى يَقِلُّ
فَنَادِرَةُ الْجَبَابِ أَجَلٌ مِمَّا يَجِيءُ بِهِ الشَّجَاعُ الْمُسْتَقِلُّ

وَمَنْ قَبِيحَ الْغَدْرِ أَنْ يَكُونَ لِلْمُحِبِّ سَفِيرًا إِلَى مُحِبٍّ بِهِ يَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ بِأَسْرَارِهِ فَيَسْعَى حَتَّى يَقْلِبَهُ إِلَى نَفْسِهِ وَيَسْتَأْثِرَ بِهِ دُونَهُ . وَفِيهِ أَقُولُ :

أَقَمْتُ سَفِيرًا قَاصِدًا فِي مَطَالِبِي وَثَقْتُ بِهِ جَهْلًا فَضَرَبَ دِينَنَا
وَحُلَّ عُرَى وَدَّى وَأَثْبَتَ وَدَّهَ وَأَبْعَدَ عَنِّي كُلَّ مَا كَانَ مُمَكِّنًا
فَصَرْتُ شَهِيدًا بَعْدَ مَا كُنْتُ مُشْهَدًا وَأَصْبَحْتُ ضَيْفًا بَعْدَ مَا كَانَ ضَيْفَنَا

ضمير :

ولقد حدثني القاضي يونس بن عبد الله قال : أذكر في الصبي جارية في بعض السدد يهواها فتى من أهل الأدب من أبناء الملوك وتهواه ويتراسلان ، وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتى من أترابه كان يصل إليها ، فلما عرضت الجارية للبيع أراد الذي كان يحبها ابتياعها ، فبدر الذي كان رسولا فاشتراها . فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت درجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها ، فأتى إليها وجعل يفتش الدرج ، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذي كان يهواها مضمناً بالغالية مَصُوناً مُكْرَماً ، فغضب وقال : من أين هذا يا فاسقة ؟ قالت : أنت سقته إلي . فقال : لعله مُحدث بعد ذاك الحين . فقالت : ما هو إلا من قديم تلك التي تعرف . قال : فكأنما ألقمته حجراً ، فسقط في يديه وسكت .

باب البين

وقد علمنا أنه لا بد لكل مُجْتَمِعٍ من أفتراق ، ولكل دانٍ من تناء ، وتلك عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وما شيء من دواهي الدنيا يعدل الأفتراق ، ولو سالت الأرواحُ به فضلاً عن الدموع كان قليلاً . وسمع بعض الحكماء قائلاً يقول : الفراق أخو الموت ، فقال : بل الموت أخو الفراق .

* والبين ينقسم أقساماً :

فأولها مدة يُوقِنُ بأُصْرَامِها وبالعودة عن قريب ، وإنه لشَجَى في القلب ، وغُصَّة في الحلق لا تبرأ إلا بالرجعة ، وأنا أعلم مَنْ كان يَغِيبُ من يُحِبُّ عن بصره يوماً واحداً فيعـتـريه من الهلع والجزع وشغل البال وترادف الكرب ما يكاد يأتي عليه .

ثم بَيْنٌ مَنَعٌ مِنَ اللَّقَاءِ ، وتحظير على المحبوب من أن يراه مُحِبُّه ، فهذا

— ولو كان من تُحبه معك في دار واحدة — فهو بين ؛ لأنه بائن عنك . وإن هذا ليولد من الحزن والأسف غير قليل ، ولقد جرّ بناه فكان مرّاً ، وفي ذلك أقول :

أرى دارها في كل حين وساعة ولكنّ من في الدار عنّي مُغيّب
وهل نافعى قرب الديار وأهلها على وصلهم مني رقيبٌ مُراقِبُ
فيالك جار الجنب أسمع حسّه وأعلم أن الصّين أدنى وأقرب
كصادٍ يرى ماء الطوى بعينه وليس إليه من سبيل يُسبّب
كذلك من في اللحد عنك مُغيّب وما دونه إلا الصّفيح المنصب

وأقول من قصيدة مُطوّلة :

متى تشفى نفسٌ أضرب بها الوجْد وتضقّب دار قد طوى أهلها البُعد (١)
وعهدى بهندٍ وهى جارة بيتنا وأقربُ من هندٍ لطالبا الهند
بلى إن في قرب الديار لراحة كما يمسك الظمآن أن يدنو الورْد

ثم بين يتعمده الحب بُعداً عن قول الوُشاة ، وخوفاً أن يكون بقاؤه سبباً إلى منع اللقاء ، وذريعة إلى أن يفسد الكلام فيقع الحجاب الغليظ .

ثم بين يولده المحب لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان ، وعُذره مقبول أو مطرح على قدر الحافز له إلى الرحيل .

نصر :

ولعهدى بصديق لى داره المريّة ، فعنت له حوائج إلى شاطبة فقصدها ، وكان نازلاً بها في منزلى مدة إقامته بها ، وكان له بالمريّة علاقة هى أكبر همّه وأدهى غمّه ، وكان يؤمل بتّنها وفراغ أسبابه وأن يوشك الرجعة ويسرع الأوبة ، فلم يكن إلا حين لطيف بعد احتلاله عندى حتى جيش الموفق أبو الحسن مجاهد صاحب الجزائر الجيوش وقرب العساكر ونابذ خيران صاحب المريّة وعزم على استئصاله ، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب ، وتحوميت السبل وأحترس البحر

(١) تصقب : تقرب ، من باب فرح .

بالأساطيل ، فتضاعف كربه إذ لم يجد إلى الانصراف سبيلاً البتة ، وكاد يطفأ أسفاً ، وصار لا يأنس بغير الوحدة ، ولا يلجأ إلا إلى الزفير والوجوم . واعمرى لقد كان ممن لم أقدر قط فيه أن قلبه يذعن للود ، ولا شراسة طبعه تجيب إلى الهوى .

وأذكر أني دخلت قرطبة بعد رحيلي عنها ثم خرجت منصرفاً عنها فضمتني الطريق مع رجل من الكتّاب قد رحل لأمر مهم وتخلّف سَكَنَ له (١) ، فكان يَرمِضُ لذلك . وإني لأعلم من علق بهوى له وكان في حال شظف وكانت له في الأرض مذاهب واسعة ومناديح رَحْبة ووُجوه متصرف كثيرة ، فهان عليه ذلك وآثر الإقامة مع من يحب ، وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

لك في البلاد منادحٌ معلومةٌ والسيفُ غُفْلٌ أو يبين قرابه
ثم بينُ رحيل وتباعد ديار ، ولا يكون من الأوبة فيه على يقين خبر ، ولا
يحدث تلاق . وهو الخطب الموجه ، والهلم المنقطع ، والحادث الأشنع ، والداء
الدوى . وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائي هو المحبوب ، وهو الذي
قالت فيه الشعراء كثيراً . وفي ذلك أقول قصيدة ، منها :

وذى علة أعيى الطبيبَ علاجها ستوردني لا شك منهل مضرعى
رَضِيتُ بأن أضحي قتيلاً وداده كجارع سمٍّ في رحيق مُشعشع
فما لليالى ما أقل حياءها وأولعها بالنفس من كل مولع
كأن زماني عبشمى يخالني أعنت على عثمان أهل التشيع
وأقول من قصيدة :

أظنك تمثال الجنان أباحه لجتهد النساء من أوليائه
وأقول من قصيدة :

لأبرد باللقيا غليلاً من الهوى توقع نيران الغضى هيمانه

(١) السكن : أهل الدار .

وأقول شعراً منه :

خَفِيتُ عن الأبصار والوجدُ ظاهر
غداً الفلك الدوار حلقة خاتم
فأعجبُ بأعراض تبين ولا شخص
مُحيط بما فيه وأنت له فص

وأقول من قصيدة :

غَنَيْتُ عن التشبيه حسناً وبهجة
عَجِبْتُ لِنَفْسِي بعده كيف لم تَمُتْ
كَمَا غَنَيْتُ شمسُ السَّما عَنِ الحَلِي
وهِجْرَانُهُ دَفَنِي وفُقْدَانُهُ نَعْيِي
وَلِلْجَسَدِ الغَضِّ الْمُنْعَمِ كيف لم
تُدْبِهِ يدُ خَشْنَاء (١)

وإنَّ للأوبة من البَيْنِ الذى تُشْفِقُ منه النفسُ لِطُولِ مسافته وتكاد تِيَّاسُ
من العودة فيه ، لروعةً تبلغ مالا حدَّ وراءه وربما قتلت . وفى ذلك أقول :

للتلاقى بعد الفراق سرورٌ
فرحةٌ تُبهِجُ النفوسَ وتُحْيِي
كسرور المفيق حانت وفاته
مَنْ دنا منه بالفراق مماته
ربما قد تكون داهية المَوْتِ
كم رأينا من عَبٍّ فى الماء عطشا
نَ فزار الحمام وهو حَيَّاته

وانى لأعلم مَنْ نأت دارُ محبوبه زمناً ثم تيسَّرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر
التسليم واستيفائه ، حتى دعتُه نوى ثانية فكاد أن يَهْلِكَ . وفى ذلك أقول :

أُطِلْتُ زَمانَ البُعدِ حتى إذا انقضى
فلم يكُ إِلَّا كَرَّةَ الطَّرفِ قُرْبَكُمْ
زَمانَ النوى بالقرب عُدْتُ إلى البُعدِ
وعاودكم بَعْدِي وعاودنى وَجَدِي
رَأَى البرقَ فى دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ مُسَوِّدٌ
كذا حائر فى اللَّيْلِ ضاقت وجوهه
وبعضُ الأراجى لا تُفِيد ولا تُجْدِي
فأخلفه مِنْهُ رجاء دوامه

وفى الأوبة بعد الفراق أقول قطعة ، منها :

لقد قَرَرْتُ العِمانَ بالقُربِ مِنْكُمْ
فَللهُ فيما قد مَضَى الصبرُ والرَّضى
كَمَا سَخَنْتُ أَيَّامَ يطويكمُ البُعدُ
وللهُ فيما قد قَضَى الشُّكرُ والحمدُ

فهر :

ولقد نعى إلى بعض من كنت أحب من بلدة نازحة ، فقامت فاراً بنفسى
نحو المقابر وجعلت أمشى بينها وأقول :

وددت بأن ظهر الأرض بطناً وأن البطن منها صار ظهراً
وأنى مت قبل ورود خطب أتى فأثار فى الأكبأد جحراً
وأن دعى لمن قد بان غسلاً وأن ضلوع صدرى كنّ قبرا
ثم اتصل بعد حين تكذيب ذلك الخبر فقلت :

بشرى أتت واليأس مستحكم والقلب فى سبغ طباق شداد
كست فؤادى خضرة بعدما كان فؤادى لابساً للحداد
جلى سواد الغم عنى كما يجلى بلون الشمس لون السواد
هذا وما آمل وصلاً سوى صدق وفاء بقديم الوداد
فالمرن قد تطلب لا للحيا لكن لظل بارد ذى امتداد

ويقع فى هذين الصنفين من البين الوداع ، أعنى رحيل المحب أو رحيل
المحبوب . وإنه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التى تقتضح فيها عزيمة كل
ماضى العزائم ، وتذهب قوة كل ذى بصيرة ، وتسكب كل عين جُود ، ويظهر
مكنون الجوى . وهو فصل من فصول البين يجب التكلم فيه ، كالعقاب فى باب
الهجر . ولعمري لو أن ظريفاً يموت فى ساعة الوداع لكان معذوراً إذا تفكر
فيما يحل به بعد ساعة من انقطاع الآمال ، وحلول الأوجال ، وتبدل السرور بالحزن .
وإنها ساعة ترقّ القلوب القاسية ، وتلين الأفئدة الغلاظ . وإن حركة الرأس
وإدمان النظر والزفرة بعد الوداع لها تسكة حجاب القلب ، وموصلة إليه من الجزع
بمقدار ما تفعل حركة الوجه فى ضد هذا .

والإشارة بالعين والتبسم ومواطن الموافقة والوداع ينقسم قسمين ، أحدهما
لا يتمكن فيه إلا بالنظر والإشارة ، والثانى يتمكن فيه بالعناق والملازمة ، وربما

لعله كان لا يُمكن قبل ذلك البتة مع تجاور المحال وإمكان التلاقى ، ولهذا
تمنى بعض الشعراء البينَ ومدحوا يوم النوى ، وما ذاك بحسن ولا بصواب ولا
بالأصيل من الرأى ، فما يفي سرور ساعة بحزن ساعات ، فكيف إذا كان البين
أياماً وشهوراً وربما أعواماً ، وهذا سوء من النظر ومعوج من القياس ، وإما
أثبتت على النوى فى شعري تمنياً لرجوع يومها ، فيكون فى كل يوم لقاء ووداع .
على أن تحمل مضمض هذا الاسم الكريه ، وذلك عند ما يمضى من الأيام التى
لا التقاء فيها ، يرغب الحب عن يوم الفراق لو أمكنه فى كل يوم . وفى
الصف الأول من الوداع أقول شعراً ، منه :

تنوبُ عن بهجة الأنوار بهجته كما تنوب عن النيران أنفاسي
وفى الصف الثانى من الوداع أقول شعراً ، منه :

وجهٌ تحرَّ له الأنوار ساجدةً والوجهُ تمَّ فلم ينقص ولم يزد
دِفءٌ وشمسُ الضحى بالجدى نازلةً وبارد ناعمٌ والشمسُ فى الأسدِ
ومنه :

يوم الفراق لعمري لست أكرهه أصلاً وإن شئت شملُ الروح عن جسدى
ففيه عانقتُ من أهوى بلا جزع وكان من قبله إن سيل لم يجد
أليس من عجب [دمعى] وعبرتها يوم الوصال ليوم البين ذو حسد
وهل هجس فى الأفكار أوقام فى الظنون أشنع وأوجع من هجر عتاب وقع
بين محبين ، ثم فجأتهما النوى قبل حلول الصلح وانحلال عقدة الهجران ، فقاما
إلى الوداع وقد نسي العتاب ، وجاء ما طمَّ على القوى وأطار الكرى . وفيه
أقول شعراً ، منه :

وقد سقط العتبُ المُقدَّم وأحمى وجاءت جيوش البين تجرى وتسرعُ
وقد دعر البينُ الصدودَ فراعهُ فولىَّ فما يدرى له اليومَ موضعُ
كذب خلا بالصَّيد حتى أضله هزبر له من جانب الغيل مطلع

لئن سَرَّني في طَرْدِهِ الهَجَرَ أَنِّي لِإِبْعَادِهِ عَنِّي الحَبِيبَ لَمُوجَع
ولا بُدَّ عِنْدَ المَوْتِ مِنْ بَعْضِ رَاحَةٍ وَفِي غَيْبِهَا المَوْتُ الوَحِيَّ المَصْرَعُ
وأَعْرِفُ مِنْ أَتَى لِيُودِّعَ مَحْبُوبَهُ يَوْمَ الفِرَاقِ فَوَجَدَهُ قَدْ فَاتَ ، فَوَقَفَ عَلَى آثارِهِ
سَاعَةً وَتَرَدَّدَ فِي المَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ ثُمَّ أُنْصَرَفَ كَثِيبًا مُتَغَيِّرَ اللَوْنِ كَاسْفِ
البَالِ ، فَمَا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ حَتَّى أُعْتِلَ وَمَاتَ رَحِمَهُ اللهُ .

وَإِنْ لِلْبَيْنِ فِي إِظْهَارِ السَّرَائِرِ المَطْوِيَةِ عَمَلًا عَجَبًا ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ كَانَ حُبَّهُ
مَكْتُومًا وَبِمَا يَجِدُ فِيهِ مُسْتَتَرًّا حَتَّى وَقَعَ حَادِثُ الفِرَاقِ قُبَاحِ المَسْكُونِ وَظَهَرَ الخُفْيُ .
وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً ، مِنْهَا :

بَذَلْتُ مِنَ الوَدِّ مَا كَانَ قَبْلُ . مَنَعْتَ وَأَعْطَيْتَنِيهِ جُزْأً
وَمَا لِي بِهِ حَاجَةٌ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَوْ جُدْتَ قَبْلَ بُلْغَتِ الشَّغَفَا
وَمَا يَنْفَعُ الطَّبَّ عِنْدَ الحِمَامِ وَيَنْفَعُ قَبْلَ الرَّدَى مِنْ تِلَافَا
وَأَقُولُ :

الآن إِذْ حَلَّ الفِرَاقُ جُدْتَ لِي بِخَفِيِّ حُبِّ كُنْتَ تُبْدِي بُخْلَهُ
فَزِدْتَنِي فِي حَسْرَتِي أَضْعَافَهَا وَيَحْيَ فِهْلًا كَانَ هَذَا قَبْلَهُ
وَلَقَدْ أَذْكَرْنِي هَذَا أَنِّي حَظَّيْتُ فِي بَعْضِ الأَزْمَانِ بِمُودَةِ رَجُلٍ مِنْ وَزَرَاءِ
السُّلْطَانِ أَيَّامَ جَاهِهِ فَأَظْهَرَ بَعْضَ الأُمْتِسَاكِ ، فَتَرَكَتُهُ حَتَّى ذَهَبَتْ أَيَّامُهُ وَأُنْقَضَتْ
دَوْلَتُهُ ، فَأَبْدَى لِي مِنَ المُودَةِ والأُخُوَّةِ غَيْرَ قَلِيلٍ ، فَقُلْتُ :

بَذَلْتُ لِي الإِعْرَاضَ وَالدَّهْرَ مُقْبِلُ وَتَبَذَلْتُ لِي الإِقْبَالَ وَالدَّهْرَ مُعْرَضُ
وَتَبَسَّطَنِي إِذْ لَيْسَ يَنْفَعُ بَسْطُكُمْ فَهْلًا أَبْجَتِ البَسْطُ إِذْ كُنْتُ تَقْبِضُ
ثُمَّ بَيْنَ المَوْتِ وَهُوَ القُوَّةُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُرْجَى لَهُ إِيَابُ ، وَهُوَ المَصِيبَةُ الحَالَّةُ
وَهُوَ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ ، وَدَاهِيَةُ الدَّهْرِ ؛ وَهُوَ الوَيْلُ ، وَهُوَ المُنْعَطِيُّ عَلَى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ؛ وَهُوَ
قَاطِعُ كُلِّ رَجَاءٍ ، وَمَا حَى كُلِّ طَمَعٍ وَالمُؤَيِّسُ مِنَ اللِّقَاءِ . وَهَذَا حَادِثُ الأَلْسَنِ ،
وَأَنْجِزْ حَبْلَ العِلَاجِ ، فَلَا حِيلَةَ إِلَّا الصَّبْرَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا . وَهُوَ أَجَلٌ مَا يُبْتَلَى بِهِ

المحبون ، فما لمن دهي به إلا النوح والبكاء إلى أن يتلف أو يمل ، فهي القرحة
التي لا تنسكى ، والوجع الذي لا يفنى ، وهو الغم الذي يتجدد على قدر بلاء من
أعتمدته ، وفيه أقول :

كُلُّ بَيْنٍ واقعٍ فمُرَجَّى لم يَفُتْ
لا تَعَجَّلَ قَنِطاً لم يَفُتْ مَنْ لم يَمُتْ
والذي قد مات فال يأس عنه قد ثَبَت

وقد رأينا مَنْ عَرَضَ له هذا كثيراً . وعنى أخبرك أنى أحدٌ من دهي بهذه
الفادحة وتعجَّلَتْ له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنتُ أشدَّ الناس كلفاً وأعظمهم
حُباً بجارية لى ، كانت فيما خلا اسمها نَعَم . وكانت أمنية التمنى وغاية الحسن
خُلُقاً وخُلُقاً ومُوافقة لى ، وكنت أنا عذرُها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى
بها الأقدار وأخترمتها الليالى ومرُّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار . وسنى
حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أَمُتْ بعدها
سبعة أشهر لا أتجرّد عن ثيابى ولا تَفُتْ لى دَمعة على جُمود عيني وقلة إسعادها .
وعلى ذلك فوالله ما سلوتُ حتى الآن . ولو قُبِلَ فداء لَفديتها بكل ما أملك من
تالد وطارف وبيعض أعضاء جسمى العزيزة على مُسارعاً طائِعاً . وما طاب لى
عيش بعدها ولا نسيْتُ ذكراها ولا أُنِسْتُ بسواها . ولقد عَفَى حُبى لها على كل
ما قبله ، وحرَّم ما كان بعده . ومما قلتُ فيها :

مُهَذَّبَةٌ بَيْضاء كالشَّمْسِ إن بدتْ وسائر ربّاتِ الحِجَالِ نُجُوم
أطارهواها القلبَ عن مُستقرِّه فبعد وقوعِ ظلٍّ وهو يَحُوم
ومن مرأىٍّ فيها قصيدةٌ ، منها :
كأنى لم آنسُ بِالْفَاطِكِ التي على عُقَدِ الألبابِ هُنَّ نوافثُ
ولم أتحكّم فى الأمانى كأننى لإفراط ما حُكِّمَتْ فيهنَّ عابثُ

ومنها :

وَيُبْدِينَ إِعْرَاضًا وَهَنَ أَوَالَفَ وَيُقْسِمْنَ فِي هَجْرِي وَهْنِ حَوَانِثُ
وَأَقُولُ أَيْضًا فِي قَصِيدَةِ أَخَاطِبَ فِيهَا ابْنُ عَمِي أَبَا الْمُغِيرَةِ عَبْدِ الْوَهَّابِ أَحْمَدُ بْنُ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَزْمٍ بْنُ غَالِبٍ وَأَقْرَضَهُ ، فَأَقُولُ :

قِفَا فَأَسْأَلَا الْأَطْلَالَ أَيْنَ قَطِينُهَا أَمَرَتْ عَلَيْهَا بِالْبَيْلَى الْمَلَوَانِ
عَلَى دَارَسَاتٍ مُقْفَرَاتٍ عَوَاطِلَ كَانَ الْمَغَانِي فِي الْخَفَاءِ مَعَانِي
وَأَخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَى الْأَمْرَيْنِ أَشَدَّ : الْبَيْنُ أَمْ الْهَجْرُ ؟ وَكَلَاهَا مُرْتَقِي صَعْبٍ
وَمَوْتَ أَحْمَرٍ وَبَلِيَّةٍ سُودَاءَ وَسَنَةِ شَهْبَاءَ . وَكُلَّ يَسْتَبْشِعُ مِنْ هَذَيْنِ مَا ضَادَّ طَبْعَهُ ،
فَأَمَّا ذُو النَّفْسِ الْأَبِيَّةِ ، الْأَلُوفِ الْخَنَانَةِ ، الثَّابِتَةِ عَلَى الْعَهْدِ ، فَلَا شَيْءَ يَعْدِلُ
عِنْدَهُ مُصِيبَةُ الْبَيْنِ ، لِأَنَّهُ أَتَى قَصْدًا ، وَتَعَمَّدَتْهُ النَّوَائِبُ عَمْدًا ، فَلَا يَجِدُ شَيْئًا يَسْلَى
نَفْسَهُ وَلَا يَصْرِفُ فِكْرَتَهُ فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي إِلَّا وَجَدَ بَاعِثًا عَلَى صُبَابَتِهِ ، وَمَحْرَكًا
لِأَشْجَانِهِ ، وَعَلَيْهِ لَا لَهُ ، وَحِجَّةٌ لَوْجَدِهِ ، وَحَاضًا عَلَى الْبُكَاءِ عَلَى إِلْفِهِ . وَأَمَّا الْهَجْرُ
فَهُوَ دَاعِيَةُ السُّلُوكِ ، وَرَائِدُ الْإِقْلَاعِ .

وَأَمَّا ذُو النَّفْسِ التَّوَّاقَةُ الْكَثِيرَةُ النَّزْوَعِ وَالتَّطَلُّعِ ، الْقَلُوقُ الْعَزُوفُ ، فَالْهَجْرُ
دَاوُهُ وَجَالِبُ حَتْفِهِ . وَالْبَيْنُ لَهُ مَسَلَاةٌ وَمَنْسَاةٌ .

وَأَمَّا أَنَا فَالْمَوْتُ عِنْدِي أَسْهَلُ مِنَ الْفِرَاقِ ، وَمَا الْهَجْرُ إِلَّا جَالِبٌ لِلْكَدِّ فَقَطْ ،
وَيُوشِكُ أَنْ دَامَ أَنْ يُحْدِثَ إِضْرَارًا ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

وَقَالُوا أَرْتَحِلُ فَلَعَلَّ السُّلُوكَ يَكُونُ وَتَرْغَبُ أَنْ تَرْغَبَهُ
فَقُلْتُ الرَّدَى لِي قَبْلَ السُّلُوكِ وَمَنْ يَشْرَبُ السَّمَّ عَنْ تَجَرُّبِهِ

وَأَقُولُ :

سَبَى مُهْجَتِي هَوَاهُ وَأَوْدَتْ بِهَا نَوَاهُ
كَأَنَّ الْغَرَامَ ضَيْفَ وَرُوحِي غَدَا قِرَاهُ

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يَسْتَعْمَلُ هَجْرَ مَحْبُوبِهِ وَيَتَعَمَّدُهُ خَوْفًا مِنْ مَرَارَةِ يَوْمِ الْبَيْنِ
وَمَا يُحْدِثُ بِهِ مِنْ لَوْعَةِ الْأَسْفِ عِنْدَ التَّفَرُّقِ ، وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي مِنْ

المذاهب المرضية ، فهو حجة قاطعة . على أن البين أصعب من الهجر ، وكيف لا
وفي الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين ، ولم أجد أحداً في الدنيا يلوذ بالبين
خوفاً من الهجر ، وإنما يأخذ الناسُ أبداً الأسهل ويتكفون الأهون . وإنما قلنا
إنه ليس من المذاهب المحمودة لأن أصحابه قد أستهجلوا البلاء قبل نزوله ، وتجرعوا
غصة الصبر قبل وقتها . ولعل ما تخوفوه لا يكون وليس من يتعجل المكروه ،

وهو على غير يقين مما يتعجل ، بحكيم ، وفيه أقول شعراً ، منه :

لَيْسَ الصَّبُّ لِلصَّبَابَةِ بَيْنًا لَيْسَ مِنْ جَانِبِ الْأَحِبَةِ مَنًا
كَغَنِيِّ يَعِيشُ عَيْشَ فَقِيرٍ خَوْفَ فَقْرٍ وَفَقْرُهُ قَدْ أَبْنَا

وأذكر لابن عمي أبي المغيرة هذا المعنى ، من أن البين أصعب من الصد ،
أبياتاً من قصيدة خاطبني بها وهو ابن سبعة عشر عاماً أو نحوها ، وهى :

أَجْزَعْتَ أَنْ أَزِفَ الرَّحِيلَ وَوَلَهْتَ أَنْ نُصَّ النَّمِيلَ
كَلَّا مُصَابِكَ فَادِحٌ وَأَجَلُ فِرَاقِهِمْ جَلِيلٌ
كَذَّبَ الْأَلَى زَعَمُوا بِأَنَّ الصَّدَّ مَرْتَعُهُ وَبَيْلُ
لَمْ يَعْرِفُوا كُنْهُ الْغَلِيهِ لَوْ قَدْ تَحَمَّلْتَ الْحُمُولَ
أَمَّا الْفِرَاقُ فَإِنَّهُ الْمَوْتُ إِنْ أَهْوَى دَلِيلُ

ولى فى هذا المعنى قصيدة مطولة ، أولها :

لَا مِثْلَ يَوْمِكَ ضَحْوَةُ التَّنْعِيمِ فِي مَنَظَرِ حَسَنٍ وَفِي تَنْعِيمِ
قَدْ كَانَ ذَاكَ الْيَوْمُ نَذْرَةَ عَاقِرٍ وَصَوَابَ خَاطِئَةٍ وَوُلْدَ عَقِيمِ
أَيَّامَ بَرْقِ الْوَصْلِ لَيْسَ بِخَابٍ عِنْدِي وَلَا رَوْضُ الْهَوَى بِهَيْشِمِ
مِنْ كُلِّ غَانِيَةٍ تَقُولُ ثُدِيهَا سِيرَى أَمَامِكَ وَالْإِزَارُ أَقِيمِ
كُلَّ يُجَاذِبُهَا فَحُمْرَةَ خَدِّهَا خَجَلٌ مِنَ التَّأْخِيرِ وَالتَّقْدِيمِ
مَا بِي سِوَى تِلْكَ الْعُيُونِ وَلَيْسَ فِي بُرْنَى سِوَاهَا فِي الْوَرَى بَزَعِيمِ
مِثْلَ الْأَفَاعَى لَيْسَ فِي شَيْءٍ سِوَى أَجْسَادِهَا إِبْرَاءُ لَدَغِ سَلِيمِ

والبين أبكى الشعراء على المعاهد فأدروا على الرسوم الدموع ، وسقوا الديار
ماء الشوق ، وتذكروا ما قد سلف لهم فيها فأعولوا وأنتحبوا ، وأحيت الآثار دفين
شوقهم فباحوا وبكوا .

والقد أخبرني بعضُ الورَّاد من قرطبة ، وقد أُستخبرته عنها ، أنه رأى دورنا
ببلاط مُغيث ، في الجانب الغربي منها وقد اُمّحت رسومها ، وطُمست أعلامها ،
وخفيت معاهدها ، وغيَّرها البلى وصارت صحارى مجذبة بعد العمران ، وفيافي موحشة
بعد الأُنس ، وخرائب مُنقطعة بعد الحُسن ، وشعاباً مُفرَّعة بعد الأمن ، ومأوى
للذئاب ، ومعارف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكان للوحوش ، بعد رجال
كالليوث ، وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية . تبدد شملهم فصاروا في
البلاد أيادي سبا ، فكأن تلك الحارِيب المنمقة ، والمقاصير المزينة ، التي كانت
تُشرق إشراق الشمس ، ويحلو الهموم حُسن منظرها ، حين شملها الخراب ، وعمَّها
الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتُريك عواقب أهلها ، وتُخبرك
عمَّا يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد في طلبها بعد أن طالما زهدت في
تركها ، وتذكرت أيامي بها ولذاتي فيها وشهور صباي لديها ، مع كواعب إلى
مثلهن صبا الحليم ، ومثلت لنفسى كونهن تحت الثرى وفي الآثار النائية والنواحي
البعيدة وقد فرَّقتهن يدُ الجلاء ، ومزقتهن أ كفُّ النوى ، وخيَّل إلى بَصري **بهاء**
تلك النُصبة بعد ما علمته من حسنِها وغضارتها ، والمراتب المحكَّمة التي نشأت
فيما لديها ، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها ، وأوهمتُ سمعى صوتَ
الصدى والهام عليها ، بعد حركة تلك الجماعات التي رُبِّيت بينهم فيها ، وكان
ليلها تبعاً لنهارها في انتشار ساكنها والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعاً ليلها في الهدوء
والاستيحاش ، فأبكى عيني ، وأوجع قلبي ، وقرع صفاة كبدي ، وزاد في بلاء
لبي ، فقلت شعراً ، منه :

لئن كان أظمانا فقد طالما سقى وإن ساءنا فيها فقد طالما سراً

والبين يولد الحنين والأهتياح والتذكر . وفي ذلك أقول :

ليت الغراب يعيد اليوم لي فعسى يبين بينهم عني فقد وقفنا
أقول والليل قد أرخى أجليته وقد تألى بالآ ينقضي فوفى
والنجم قد حار في أفق السماء فما يمضي ولا هو للتغوير مُنصرفا
تخاله مخطئاً أو خائفاً وجلاً أو راقباً موعداً أو عاشقاً دنفا

باب القنوع

ولا بد للمحب ، إذا حُرِمَ الوصل ، من القنوع بما يجد ، وإن في ذلك لمتعللاً
للنفس ، وشغلاً للرجا ، وتجديداً للمنى ، وبعض الراحة . وهو مراتب على قدر
الإصابة والتمكن .

فأولها الزيارة ، وإنها لأمل من الآمال ، ومن سرى ما يسنح في الدهر مع ما
تبدى من الخفر والحياء ، لما يعلمه كل واحد منهما مما في نفس صاحبه . وهي على
وجهين : أحدهما أن يزور المحب محبوبه ، وهذا الوجه واسع . والوجه الثانى أن
يزور المحبوب محبه . ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر . وفي
ذلك أقول :

فإن تنأ عني بالوصال فإنني سأرضى بلحظ العين إن لم يكن وصل
فحسبى أن ألقاك في اليوم مرة وما كنت أرضى ضعفاً منك لي قبل
كذا همّة الوالى تكون رفيعة ويرضى خلاص النفس إن وقع العزل

وأما رجع السلام والمخاطبة فأمل من الآمال ، وإن كنت أنا أقول في قصيدة لى :

فها أنا ذا أخفى وأقنع راضياً برجع سلام إن تيسر في الحين
فإنما هذا لمن ينتقل من مرتبة إلى ما هو أدنى منها . وإنما يتفاضل المخلوقات
في جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلى ما هو فوقها أو دونها . وإني لأعلم من
كان يقول لمحبوبه : عدنى واكذب ، قنوعاً بأن يسلى نفسه في وعده وإن كان
غير صادق . فقلت في ذلك :

إن كان وصلك ليس فيه مَطْمَعُ والقربُ ممنوعٌ فعدني وأكذب
فعمى التعللُ بالتقائك مُسْكٌ لحياة قلبٍ بالصُدودِ مُعَذِّبُ
فلقد يُسَلِّي المُجْدِبِينَ إذا رأوا في الأفق يَلْمَعُ ضوءُ بَرَقِ خُلبِ

ومما يدخل في هذا الباب شيءٌ رأيته وراه غيري معي ، أن رجلاً من إخواني
جرحه من كان يُحبه بمُدِيَّةٍ ، فلقد رأيته وهو يُقْبَلُ مكان الجرح ويندبه مرة بعد
مرة . فقلت في ذلك :

يقولون شجك من همت فيه فقلت أعمري ما شجني
ولكن أحسّ دمي قرّبه فطار إليه ولم يَنْشَنِ
فيا قاتلي ظالماً مُحْسِناً فديتك من ظالمٍ مُحْسِنِ

ومن القنوع أن يُسر الإنسان ويرضى ببعض آلات محبوبه ، وإن له من
النفس لموقعاً حسناً وإن لم يكن فيه إلا مانص الله تعالى علينا ، من ارتداد يعقوب
بصيراً حين شَمَّ قميص يوسف عليهما السلام . وفي ذلك أقول :

لما مُنعتُ القُربُ من سيدي ولجّ في هَجْرِي ولم يُنصفِ
صِرتُ بِابْصَارِي أثوابه أو بعضَ ما قد مَسّه أَكْتَفِي
كذلك يعقوب نبيّ الهدى إذ شَفّه الحُزنُ على يوسفِ
شَمَّ قميصاً جاء من عنده وكان مَكفوفاً فَمَنه شُفِي

وما رأيتُ قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خُصل الشعر مَبخَرَةً بالعنبر
مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت في أصلها بالمُصطكى وبالشمع الأبيض المصفى .
ولفت في تطاريف الوشى والخز وما أشبه ذلك . لتكون تذكرة عند البين .

وأما تهادي المساويك بعد مَضغها والمُصطكى إثر استعمالها فكثير بين كل
متحابين قد حُظِرَ عليهما اللقاء . وفي ذلك أقول قطعة منها :

أرى ريقها ماء الحياة تيقنّاً على أنها لم تُبق لي في الهوى حَشَى

فهير :

وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل
الحاجب بجزيرة صقلية ، وذكر أنه كان غايةً في الجمال ، فشاهده يوماً في بعض
المتنزهات ماشياً وأمرأة خلفه تنظر إليه ، فلما أبعد أتت إلى المكان الذي قد
أثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الأرض التي فيها أثر رجله . وفي ذلك أقول
قطعة ، أولها :

يلوموني في مَوطيء خُفِّه خطا	ولو علموا عاد الذي لام يَحْسُدُ
فيأهل أرضٍ لا تجود سحابها	خُذوا بوَصاتي تستقلُّوا وتُحمدوا
خُذوا من تُراب فيه موضعُ وطئه	وأضمن أن المَحَلَّ عنكم يُبعد
فكُلُّ تراب واقع فيه رِجله	فذاك صعيدٌ طيب ليس يُجحد
كذلك فَعَلَ السامريّ وقد بدا	لعينيه من جَبْريلِ إِثر ممجد
فصير جوف العِجل من ذلك الثرى	فقام له منه خُوار ممدّد

وأقول :

لقد بُوركت أرض بها أنت قاطنٌ وبُورك مَنْ فيها وحلَّ بها السعدُ
فأحجارُها دُرٌّ وسعدانها ورْد وأموهاها شُهد وترُبتها نَد
ومن القنوع الرضا بَمَزار الطَّيف ، وتسليم الخيال . وهذا إنما يحدث عن
ذكر لا يفارق ، وعهد لا يحول ، وفكر لا ينقضي . فإذا نامت العيون وهدأت
الحركات سرى الطيف . وفي ذلك أقول :

زار الخيالُ فتى طالت صبا بته	على احتفاظ من الحُرَّاس والحَفَظَه
فبت في ليلتي جذلان مُبتهجاً	ولذة الطَّيف تُدسى لذّة اليَقَظَه

وأقول :

أتى طيفٌ نَعَم مَضْجعي بعد هدأة	ولَّيلِ سُلطانٍ وظلٍّ مُمدّد
وعهدى بها تحت التُّراب مُقيمةً	وجاءت كما قد كنتُ من قبل أَعهد

فَعَدُّنَا كَمَا كُنَّا وَعَادَ زَمَانُنَا كَمَا قَدْ عَمِدْنَا قَبْلُ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
وللشعراء في علة مزار الطيف أقاويل بديعة بعيدة المرمى، مُخترعة، كلُّ سَبَقٍ
إلى مَعْنَى من المعاني، فأبو إسحاق بن سيار النظام رأس المعتزلة جعل علة مزار
الطيف خوف الأرواح من الرقيب المرقب، على بهاء الأبدان. وأبو تمام حبيب
ابن أوس الطائي جعل علته أن نِكَاحِ الطيف لا يفسد الحب ونِكَاحِ الحقيقة
يفسده. والبُحتري جعل علة إقباله استضاءته بنار وجده، وعلة زواله خوف
الغرق في دموعه. وأنا أقول من غير أن أمثل شعري بأشعارهم، فلهم فضل
التقدم والسابقة وإنما نحن لا قُطُون وهم الحاصدون، ولكن اقتداء بهم وجرياً
في ميدانهم وتبعاً لطريقتهم التي نهجوا وأوضحوا، أبياناً بيّنت فيها مزار
الطيف مقطّعة:

أغارُ عليك من إدراك طَرْفِي وأشفق أن يُذِيبك لمس كُفْيٍ
فأمتنع اللقاء حِذارَ هذا وأعتمد التلاق حين أغْفِي
فروحي إن أنم بك ذو أنفِرادٍ من الأعضاء مُستترٌ وخُفْيِ
ووصل الرُّوحَ ألطفُ فيك وقَعاً من الجسمِ المواصل ألف ضِعْفِ
وحال المزور في المنام ينقسم أقساماً أربعة: أحدهما مُحِبٌّ مهجور قد تطاول
غمه، ثم رأى في هجمته أن حبيبهِ وصله فسُرَّ بذلك وأبتَهج، ثم استيقظ فأسِفَ
وتلهف حيث علم أن ما كان فيه أمانى النفس وحديثها. وفي ذلك أقول:
أنت في مَشْرِقِ النهار بِخَيْلٍ وإذا الليلُ جُنَّ كُنتَ كَرِيماً
تجعل الشمس منك لى عوضاً هِيَّ هات ماذا الفِعالُ منك قوِيماً
زارني طيفُك البعيدُ فيسألي واصلاً لى وعائداً ونديماً
غير أني منعتني من تمام العِيَدِ ش لكن أبجت لى التَّشْمِيما
فكأني من أهل الأعراف لا الفِرِّ دوس دارِي ولا أخاف الجَحِيما
والثاني مُحِبٌّ مواصل مُشفق من تغيُّرِ يقع، قد رأى في وَسَنِهِ أن حبيبهِ

يهجره فاهتم لذلك همًا شديدًا ، ثم هب من نومه فعلم أن ذلك باطل وبعض وساوس الإشفاق .

والثالث محب داني الديار يرى أن التناثني قد فدحه ، فيكثرث ويوجل ، ثم ينتبه فيذهب ما به ويعود فرحًا . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

رَأَيْتُكَ فِي نَوْمِي كَأَنَّكَ رَاحِلٌ وَقُمْنَا إِلَى التَّوْدِيْعِ وَالدَّمْعِ هَامِلِ
وَزَالَ السَّكْرَى عَنِّي وَأَنْتَ مُعَانِقِي وَغَمِّي إِذْ عَايَنْتُ ذَلِكَ زَائِلِ
فَجَدَدْتُ تَعْنِيْقًا وَضْمًا كَأَنَّنِي عَلَيْكَ مِنَ الْبَيْنِ الْمُفَرَّقِ وَاجِلِ

والرابع محب نائي المزار ، يرى أن المزار قد دنا ، والمنازل قد تصاقبت ، فيرتاح ويأنس إلى فقد الأسي ، ثم يقوم من سنته فيرى أن ذلك غير صحيح ، فيعود إلى أشد ما كان فيه من الغم ، وقد جعلت في بعض قولي علة النوم الطمع في طيف الخيال ، فقلت :

طَافَ الْخِيَالُ عَلَى مُسْتَهْتَرٍ كَلِيفٍ لَوْلَا أُرْتَقَابُ مَزَارِ الطَّيْفِ لَمْ يَنَمِ
لَا تَعَجَّبُوا إِذْ سَرَى وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَنُورُهُ مُوْهَبٌ فِي الْأَرْضِ لِلْظَلَمِ
وَمِنَ الْقُنُوعِ أَنْ يَقْنَعَ الْمُحِبُّ بِالنَّظَرِ إِلَى الْجُدْرَانِ وَرُؤْيَا الْحَيِّطَانِ الَّتِي تَحْتَوِي
عَلَى مِنْ يُحِبُّ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ هَذِهِ صِفَتُهُ . وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَبُو الْوَلِيدِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ
ابْنُ إِسْحَاقَ الْخَازِنِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ رَجُلٍ جَلِيلٍ ، أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ بِمِثْلِ هَذَا .
وَمِنَ الْقُنُوعِ أَنْ يَرْتَاحَ الْمُحِبُّ ، إِلَى أَنْ يَرَى مَنْ رَأَى مَحْبُوبَهُ وَيَأْنَسَ بِهِ وَمَنْ
أَتَى مِنْ بِلَادِهِ ، وَهَذَا كَثِيرٌ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

تَوَحَّشَ مِنْ سَكَانِهِ فَكَأَنَّهُمْ مَسَاكِنُ عَادٍ أَعْقَبَتْهُ ثَمُودُ
وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَيْبَاتٌ لِي ، مُوجِبُهَا أَنِّي تَنَزَّهْتُ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنْ
إِخْوَانِي مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالشَّرَفِ إِلَى بَسْتَانٍ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِنَا ، فُجِّلْنَا سَاعَةً ثُمَّ
أَفْضَى بِنَا الْقُعُودَ إِلَى مَكَانٍ دُونَهُ يُتَمَنَّى ، فتمددنا في رياض أريضة ، وأرض عريضة ؛
للبصر فيها مُنْفَسِحٌ ، وللنفس لديها مَسْرَحٌ ؛ بَيْنَ جَدَاوِلٍ تَطَّرَدُ كَأَبَارِيْقِ اللَّجَيْنِ ،

وأطيار تغرّد بألحان تَزرى بما أبدعه معبد والغريز ، وثمار مهدّلة قد ذلّت
للأيدى ودنت للمتناول ، وظلال مُظلة تلاحظنا الشمس من بينها فتصوّر بين
أيدينا كرقاع الشّطرنج والثياب المدبّجة ، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة ،
وأنهار متدفقة تنساب كبُطون الحيات لها خير يقوم ويهدأ ، ونواير مؤنقة
مختلفة الألوان تُصفّقها الرياح الطيبة النسيم ، وهواء سجّسج ، وأخلاق جُلاس
تفوق كل هذا ، في يوم ربيعى ذى شمس ظليلة ، تارة يُغطيها الغيم الرقيق والمُزن
اللطيف ، وتارة تتجلّى ، فهي كالعذراء الخفيرة والخريذة الخجلة تتراءى لعاشقها
من بين الأستار ثم تغيب فيها ، حذر عين مراقبة . وكان بعضنا مُطرقاً كأنه
يحادث أخرى ، وذلك لسرّ كان له ، فعرض لى بذلك ، وتداعبنا حيناً فكلفت
أن أقول على لسانه شيئاً فى ذلك ، فقلتُ بديهة ، وما كتبوها إلا من تذكّرها
بعد انصرافنا ، وهى :

ولما تروّحنا بأكناف روضةٍ	مُهدّلة الأفنان فى تُربها الندى
وقد ضحككت أنوارها وتضوّعت	أساورها فى ظلّ فى ممدّد
وأبدت لنا الأطيار حُسن صريفها	فمن بين شاكٍ شجّوه ومُغرّد
وللماء فيما بيننا مُتصرّف	وللعين مُرتاد هناك واليّد
وما شئت من أخلاق أروع ماجدٍ	كريم السجايا للفخار مُشيد
تُغصّ عندى كلّ ما قد وصفته	ولم يهنّنى إذ غاب عنيّ سيدى
فيا ليتنى فى السّجن وهو مُعانقى	وأنتم معاً فى قصر دار المجدّد
فمن رام منّا أن يُبدّل حاله	بحال أخيه أو بمُلكٍ مخلّد
فلا عاش إلا فى شقاء ونكبة	ولا زال فى بُوسى وخزى مُردّد

فقال هو ومن حضر : آمين آمين . وهذا الوجوه التى عدّدت وأوردت فى
حقائق القناعة هى الموجودة فى أهل المودة ، بلا تزيّد ولا إعياء .
وللشعراء فنّ من القنوع أرادوا فيه إظهار غرضهم وإبانة اقتدارهم على المعانى

الغامضة والمرامى البعيدة ، وكلُّ قال على قدر قوة طبعه ، إلا أنه تحكَّم باللسان
وتشدَّق في الكلام واستطال بالبيان ، وهو غير صحيح في الأصل .

فمنهم من قنع بأن السماء تُظله هو ومحبوه والأرض تُقلِّهما . ومنهم من قنع
بأستوائهما في إحاطة الليل والنهار بهما ، وأشبه هذا . وكلُّ مُبادرٍ إلى احتواء
الغاية في الاستقصاء ، وإحراز قَصَب السبق في التدقيق . ولى في هذا المعنى قول
لا يُمكن لتعقب أن يجد بعده مُتناولا ، ولا وراءه مكاناً ، مع تبيني علة قرب
المسافة البعيدة ، وهو :

وقالوا بعيدٌ قلتُ حسبي بأنه معي في زمان لا يُطبق محيداً
تمرُّ على الشمسُ مثلَ مُرورها به كَلَّ يومٌ يستنير جديداً
فمن ليس بيني في المسير وبينه سوى قطعِ يومٍ هل يكون بعيداً
وعِلْمُ إله الخلق يجمعنا معاً كفي ذا التَّداني ما أريد مزيدا
فبيّنت كما ترى أني قانعٌ بالأجماع مع مَنْ أحب في علم الله ، الذي السدواتُ
والأفلاك والعوالم كلها وجميع الموجودات لا تنفصل منه ولا تتجزأ فيه ولا يشذ
عنه منها شيء ، ثم أقتصرت من علم الله تعالى على أنه في زمان ، وهذا أعم مما
قاله غيري في إحاطة الليل والنهار ، وإن كان الظاهر واحداً في البادى إلى السامع ؛
لأن كلَّ المحلوقات واقعة تحت الزمان ، وإنما الزمان أسم موضوع لمرور الساعات
وقطع الفلك وحركاته وأجرامه ، والليل والنهار متولدان عن طلوع الشمس
وغروبها ، وهما متناهيان في بعض العالم الأعلى ، وليس هكذا الزمان ، فإنهما بعض
الزمان . وإن كان لبعض الفلاسفة قولٌ إن الظل متمادٍ ، فهذا يخطئه العيان ،
وعِلْلُ الردِّ عليه بيّنة ليس هذا موضعها ، ثم بيّنت أنه وإن كان في أقصى المعمور
من المشرق وأنا في أقصى المعمور من المغرب ، وهذا طول السكني ، فليس بيني
وبينه إلا مسافة يوم ؛ إذ الشمس تبدو في أول النهار في أول المشرق وتغرب في
آخر النهار في آخر المغرب .

ومن القنوع فصلٌ أوردته وأستعيز بالله منه ومن أهله ، وأحمده على ما عرّف
نفوسنا من منافرتة ، وهو أن يضل العقلُ جُهلة ، ويُفسد القريحة ، ويُتلف التمييز .
ويهون الصعب ، ويذهب الغيرة ، ويُعدم الأنفة ، فيرضى الإنسان بالمشاركة فيمي
يحب . وقد عَرَضَ هذا لقوم . أعاذنا الله من البلاء . وهذا لا يصح إلا مع كُليّة
في الطبع ، وسقوط من العقل الذي هو عيار على ما تحته ، وضعف حسن . ويؤيد
هذا كله حُبٌّ شديدٌ مُعم . فإذا اجتمعت هذه الأشياء وتلاحقت بمزاج الطبائع
ودُخول بعضها في بعض نتج بينهما هذا الطبع الخسيس ، وتوالت هذه الصفة
الردلة ، وقام منها هذا الفعل المقتور القبيح ، وأما رجلٌ معه أقلُّ همّة وأيسر مروءة
فهذا منه أبعدُ من الثريّا ولو مات وجداً وتقطع حُبّاً ، وفي ذلك أقول زارياً على
بعض المساحين في هذا الفصل :

وأفضلُ شيء أن تَلينَ وتَسْمَحَا	رَأَيْتُكَ رَحْبَ الصَّدْرِ تَرْضَى بِمَا أَتَى
على أن يحوز الملكُ من أصلها الرّحى	فَحْظُكَ مِنْ بَعْضِ السَّوَانِي مُفْضَل
تُقَدِّرُهُ فِي الْجَدْيِ فَاعِصِ الذِي لَهَا	وَعُضْوٌ بَعِيرٌ فِيهِ فِي الْوِزْنِ ضِعْفٌ مَا
فَكُنْ نَاحِيَاً فِي نَحْوِهِ كَيْفَمَا نَحَا	وَلَعَبُ الذِي تَهْوَى بِسَيْفَيْنِ مُعْجَب

باب الضنى

ولا بد لكل مُحِبٍّ صادق المودة ممنوع الوصل ، إمّا بَبَيْنَ وإمّا بهَجَرٍ وإمّا
بَكتمانٍ واقعٍ لمعني ، من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول ، وربما
أضجعه ذلك . وهذا الأمر كثير جداً موجود أبداً ، والأعراض الواقعة من المحبة
غيرُ العلل الواقعة من هجمات العِلل ، ويميّزها الطبيبُ الحاذق والمتفرّسُ الناقِد .
وفي ذلك أقول :

تَدَاوُ فَأَنْتَ يَا هَذَا عَلِيلٌ	يَقُولُ لِي الطَّبِيبُ بَغِيرِ عِلْمٍ	نَسَقُ ✕
وَرَبُّ قَادِرٌ مَلِكٌ جَلِيلٌ	وَدَائِي لَيْسَ يَدْرِيهِ سَوَائِي	
يُلَازِمُنِي وَإِطْرَاقُ طَوِيلٌ	أَأَكْتُمُهُ وَيَكْشِفُهُ شَهِيْقٌ	

ووجهٌ شاهداتُ الحزن فيه وجسْمٌ كالحَيالِ ضَنْ نَحِيلِ
 وأثبتُ ما يكون الأمر يومًا بلا شك إذا صحَّ الدليلُ
 فقلتُ له أبنٌ عني قليلًا فلا والله تعرّف ما تقول
 فقال أرى نُحولًا زاد جدًّا وعلتك التي تشكو ذُبُولِ
 فقلتُ له الذُّبُولُ تعلّ منه الـ بجوارح وهي حمى تستحيلُ
 وما أشكو لعمرُ الله حمى وإن الحرَّ في جسمي قليلُ
 فقال أرى التفانًا وأرتقابًا وأفكارًا وصمتًا لا يزولُ
 وأحسب أنها السوداء فانظر لنفسك إنها عرض ثقيلُ
 فقلتُ له كلامك ذا محال فما للدمع من عيني يسيلُ
 فأطرق باهتًا ممّا رآه ألا في مثل ذا بهت النبيلُ
 فقلتُ له دوائى منه دائى ألا في مثل ذا ضلّت عقولُ
 وشاهد ما أقول يرى عيانًا فروع النَّبت إن عكست أصولُ
 وترياق الأفاعى ليس شيء سواه بئره ما لدغت كَفِيلُ

وحدثني أبو بكر محمد بن بقيّ الحَجري ، وكان حَكيم الطبع عاقلًا فهِيمًا ،
 عن رجل من شيوخنا لا يمكن ذكره ، أنه كان بيغداد في خانٍ من
 خاناتها فرأى أبنةً لوكيلة الخان فأحبها وتزوجها ، فلما خلا بها نظرتُ إليه
 وكانت بكراً ، وهو قد تكشف لبعض حاجته ، فراعها كبر أيره ، ففرت إلى
 أمها وتفادت منه . فرام بها كُلَّ من حوالها أن تردّ إليه ، فأبت وكادت
 أن تموت ، ففارقها ثم ندم ، ورام أن يُراجعها فلم يُمكنه ، واستعان بالأبهرى
 وغيره . فلم يقدر أحد منهم على حيلة في أمره ، فاختلط عقله وأقام في المارستان
 يُعاني مدةً طويلةً حتى نقّه وسلاً وما كاد ، ولقد كان إذا ذكرها
 يتنفّس الصُّعداء .

وقد تقدّم في أشعاري المذكورة في هذه الرسالة : من صفة النحول مُفرّقًا

ما استغنيتُ به عن أن أذكر هنا من سواها شيئاً خوف الإطالة . والله المعين
والمستعان .

وربما تَرَقَّتْ إلى أن يُغلب المرء على عقله ويحال بينه وبين ذهنه فيوسوس .

فهر :

وإني لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القوَّاد ،
وقد بلغ بها حُب فتى من إخواني جدًّا من أبناء الكتَّاب مبلغ هيجان المزار
الأسود ، وكادت تختلط . وأشتهر الأمر وشاع جدًّا حتى علمناه وعلمه الأباعد ،
إلى أن تدوركت بالعلاج ، وهذا إنما يتولد عن إدمان الفكر ، فإذا غلبت
الفكرة وتمكن الخلط التداوى خرج الأمر عن حدِّ الحُب إلى حدِّ الوله
والجنون ، وإذا أغفل التداوى في الأول إلى المعانة قوى جدًّا ولم يوجد له دواء
سوى الوصال . ومن بعض ما كتبتُ إليه قطعة ، منها :

قد سلبتُ القوَّاد منها اختلاسا	أى خلق يعيش دون قوَّاد
فاغشها بالوصل تحي شريفا	وتفرُّ بالثواب يوم المعاد
وأراها تعترض إن دام هذا	من خلاخيلها حلى الأقياد
أنت حقًّا مُقيمُ الشمس حتى	عشقها بين ذا الورى لك بادى

فهر :

وحدثني جعفر مولى أحمد بن محمد بن جدير ، المعروف بالبلينى : أن سبب
اختلاط مروان بن يحيى بن أحمد بن جدير وذهاب عقله اعتلاقه بجارية لأخيه ،
فمنعها منه وباعها لغيره ، وما كان في إخوته مثله ولا أتم أدباً منه .

وأخبرني أبو العافية مولى محمد بن عباس بن أبي عبدة ، أن سبب جنون يحيى
ابن أحمد بن عباس بن أبي عبدة بيع جارية له كان يجد بها وجداً شديداً ،
كانت أمه أباعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريَّات .

فهذان رجلا نجليلان مشهوران فقدَّا عقولهما واختلطا وصارا في القيود

والأغلال ، فأما مروان فأصابته ضربة مُحْطَّة يوم دخول البربر قُرْطبة وانتهائهم إليها ، فتوفى رحمه الله . وأما يحيى بن محمد فهو حيٌّ على حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتى هذه ، وقد رأيته أنا مراراً وجالسته في القصر قبل أن يمتحن بهذه المحنة . وكان أستاذى وأستاذة الفقيه أبو الخيار اللُّغوى . وكان يحيى لعمري حُلُوًّا من الفتيانِ نبيلًا .

وأما من دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيرًا ، ولكن لم نسمهم لخفائهم ، وهذه درجة إذا بلغ المشغوف إليها فقد أنبت الرجاء وأنصرم الطمع ، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره ، إذ قد استحكم الفساد في الدماغ ، وتلّفت المعرفة ، وتغلّبت الآفة . أعاذنا الله من البلاء بطوّله ، وكفانا النقم بمنّه .

باب السلو

وقد علمنا أن كلَّ ماله أول فلا بُدَّ له من آخر ، حاشى نعيم الله عزَّ وجل ، الجنة لأوليائه وعذابه بالنار لأعدائه . وأما أعراض الدنيا فنافة فانية وزائلة مضمحلة ، وعاقبة كلِّ حُب إلى أحد أمرين : إمَّا أخترام منية ، وإمَّا سلو حادث . وقد نجد النفس تغلب عليها بعضُ القوى المصروفة معها في الجسد ، فكما نجد نفساً ترفض الراحة والملاذ للعمل في طاعة الله تعالى وللرياء في الدنيا ، حتى تشتهر بالزهد ، فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة في لقاء شكلها للألفة المستحكمة المنافرة للغدر ، أو استمرار سوء المكافأة في الضمير ، وهذا أصح السلو . وما كان من غير هذين الشيئين فليس إلا مذموماً . والسلو المتولد من الهجر وطوله إنما هو كالْيأس يدخل على النفس من بلوغها إلى أملها ، فيفتقر نزاعها ولا تقوى رغبته . ولى في ذم السلو قصيدة ، منها :

إذا مارَنت فالْحى مَيّت بلَحْظها وإن نَطَقْتَ قُلْتَ السَّلام رِطَاب
كَأَنَّ الهوى ضيفُ أَلَمٍ بمُهْجتي فلهِمْ طَعَام والنَّجيع شراب
ومنها :

صَبَّورٌ عَلَى الْأَرْزَمِ الَّذِي الْعَزُّ خَلَفَهُ وَلَوْ أَمْطَرَتْهُ بِالْحَرِيقِ سَحَابٌ
جَزُوعاً مِنَ الرَّاحَاتِ إِنْ أَنْتَجَتْ لَهُ تُخَوَّلًا وَفِي بَعْضِ النَّعِيمِ عَذَابٌ
وَالسَّلَوُ فِي التَّجَرُّبَةِ الْجَمِيلَةِ يَنْقَسِمُ قَسْمَيْنِ : سَلَوٌ طَبِيعِيٌّ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالنَّسِيَانِ .
يُخَلُّو بِهِ الْقَلْبَ وَيَفْرَغُ بِهِ الْبَالُ ، وَيَكُونُ الْإِنْسَانُ كَأَنَّهُ لَمْ يَحْبُ قَطْ . وَهَذَا الْقَسْمُ
رَبَّمَا لِحَقِّ صَاحِبِهِ الذَّمُّ لِأَنَّهُ حَادِثٌ عَنْ أَخْلَاقٍ مَذْمُومَةٍ ، وَعَنْ أَسْبَابٍ غَيْرِ مُوجِبَةٍ
اسْتِحْقَاقِ النَّسِيَانِ . وَسَتَأْتِي مُبَيَّنَّةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَرَبَّمَا لَمْ تَلَحِّقْهُ اللَّامَةُ لِعَذْرِ
صَحِيحٍ . وَالثَّانِي سَلَوٌ تَطْبِيعِيٌّ ، قَهَرِ النَّفْسِ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالتَّصْبِرِ ، فَتَرَى الْمَرْءَ
يُظْهِرُ التَّجَلُّدَ وَفِي قَلْبِهِ أَشَدُّ لَدَغًا مِنْ وَخَزِ الْإِشْقَى ، وَلَكِنَّهُ يَرَى بَعْضَ الشَّرِّ
أَهْوَنَ مِنْ بَعْضِ ، أَوْ يَحَاسِبُ نَفْسَهُ بِحُجَّةٍ لَا تُصَرِّفُ وَلَا تُكْسِرُ . وَهَذَا قَسْمٌ
لَا يُذَمُّ آتِيهِ ، وَلَا يَلَامُ فَاعِلُهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَحْدُثُ إِلَّا عَنْ عَظِيمَةٍ ، وَلَا يَقَعُ إِلَّا عَنْ
فَادِحَةٍ ، إِمَّا لِسَبَبٍ لَا يَصْبِرُ عَلَى مِثْلِهِ الْأَحْرَارُ ، وَإِمَّا لِنَظْبٍ لَا مَرَدَّ لَهُ تَجَرَّى بِهِ
الْأَقْدَارُ . وَكَفَاكَ مِنَ الْمَوْصُوفِ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِنَاسٍ لَكِنَّهُ ذَا كَرٍ ، وَذُو حَنِينٍ وَاقِفٍ ،
عَلَى الْعَهْدِ ، وَمَتَجَرِّعٍ مَرَارَاتِ الصَّبْرِ ، وَالْفَرْقِ الْعَامِيٍّ بَيْنَ الْمُتَصَبِّرِ وَالنَّاسِيِ ، أَنَّكَ
تَرَى الْمُتَصَبِّرَ وَإِنْ أَبْدَى غَايَةَ الْجَلَدِ وَأَظْهَرَ سَبَبًا مَحْبُوبَةً وَالتَّحَمُّلَ عَلَيْهِ ، يَحْتَمِلُ
ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً ، مِنْهَا :

دَعُونِي وَسَيِّئِي لِلْحَبِيبِ فَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ أُبْدِي لِهَجْرَلَسْتُ مُعَادِيًا
وَلَكِنْ سَيِّئِي لِلْحَبِيبِ كَقَوْلِهِمْ أَجَادُ فَلَقَّاهُ الْإِلَهُ الدَّوَاهِيَا
وَالنَّاسِيِ ضِدُّ هَذَا ، وَكُلُّ هَذَا فَعَلَى قَدْرِ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ وَإِجَابَتِهَا وَأَمْتِنَاعِهَا
وَقُوَّةِ تَمَكُّنِ الْحُبِّ مِنَ الْقَلْبِ أَوْ ضَعْفِهِ ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ ، وَسَمِيتُ السَّالِي فِيهِ
الْمُتَصَبِّرَ ، قِطْعَةً مِنْهَا :

نَاسِيِ الْأَحِبَّةِ غَيْرُ مَنْ يَسْلُوهُمْ حُكْمُ الْمُقْصَرِّ غَيْرِ حُكْمِ الْمُقْصَرِ
مَا قَاصِرٌ لِلنَّفْسِ غَيْرَ مُجِيبِهَا مَا الصَّابِرُ الْمَطْبُوعُ كَالْمُتَصَبِّرِ
وَالْأَسْبَابُ الْمَوْجِبَةُ لِلْسَّلَوِ الْمُنْقَسِمِ هَذِينَ الْقَسْمَيْنِ كَثِيرَةٌ ، وَعَلَى حَسَبِهَا وَبِمَقْدَارِ

الواقع منها يُعذر السالى ويُذم .

فمنها المَلَل ، وقد قدمنا الكلام عليه ، وإن من كان سلوه عن مَلَل فليس حُبه حقيقة ، والمتسم به صاحبُ دعوى زائفة ، وإنما هو طالب لذّة ومُبَادِر شهوة ، والسالى من هذا الوجه ناس مذموم .

ومنها الاستبدال ، وهو وإن كان بُشبه المَلَل ففيه معنى زائد ، وهو بذلك المعنى أقبح من الأول وصاحبه أحق بالذم .

ومنها حياء مركّب يكون فى المُحب يحول بينه وبين التعريض بما يجد ، فيتطاول الأمر ، وتتراخى المدة ، ويبلى جديد المودة ، ويحدث السلو . وهذا وجه إن كان السالى عنه ناسياً فليس بمُنصف ، إذ منه جاء سببُ الحرمان ، وإن كان متصبراً فليس بملوم ، إذ أثر الحياء على لذّة نفسه . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الحياء من الإيمان والبذاء من النفاق .

وحدثنا أحمد بن محمد عن أحمد بن مطرف عن عبد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك عن سلمة بن صفوان الزرقى عن زيد بن طلحة بن رُكّانة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء .

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المُحب وأبتدأوها من قبله ، والدم لاصق به فى نسيانه لمن يُحب .

ثم منها أسباب أربعة هن من قبل المحبوب وأصلها عنده ، فمنها : الهجر ، وقد مرّ تفسير وجوهه . ولا بد لنا أن نورد منه شيئاً فى هذا الباب يوافقه ، والهجر إذا تطاول وكثر العتاب واتصلت المفارقة يكون باباً إلى السلو ، وليس من وصلك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر فى شيء ، لأنه الغدر الصحيح ، ولا من مال إلى غيرك دون أن يتقدّم لك معه صلة من الهجر أيضاً فى شيء ، إنما ذاك هو النّفار . وسيقع الكلام فى هذين الفصلين بعد هذا إن شاء الله تعالى .

لكن الهجر ممن وصلك ثم قطعك لتنقيل واش ، أولذنب واقع ، أولشيء قام
في النفس ، ولم يميل إلا سواك ولا أقام أحداً غيرك مقامك . والناسي في هذا
الفصل من المحبين ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المحبوب ؛ لأنه لا تقع حالة
تقيم العذر في نسيانه ، وإنما هو راغب عن وصلك ، وهو شيء لا يلزمه . وقد تقدم من
أزمة الوصال وحق أيامه ، ما يلزم التذكر ويوجب عهد الألفة ، ولكن السالى على
جهة التصبر والتجلد ها هنا معذور ، إذا رأى الهجو متآمداً ولم ير للوصال علامة
ولا للمراجعة دلالة . وقد استجاز كثير من الناس أن يسموا هذا المعنى عذراً ، إذ
ظاهرهما واحد ، ولكن عليهما مختلفتان . فذلك فرقنا بينهما في الحقيقة . وأقول
في ذلك شعراً ، منه :

فكونوا كمن لم أدر قط فإنتى كآخر لم تدروا ولم تصلوه
أنا كالصدي ما قال كل أجيبه فما شئتموه اليوم فاعتمدوه
وأقول أيضاً قطعة ، ثلاثة أبيات قلتها وأنا نائم ، وأستيقظت فأضفت إليها
البيت الرابع :

ألا لله دهر كنت فيه أعز على من روى وأهلى
فما برحت يد الهجران حتى طواك بنائها طي السجل
سقاني الصبر هجر كم كما قد سقاني الحب وصلكم بسجل
وجدت الوصل أصل الوجد حقاً وطول الهجر أصلاً للتسلى
وأقول أيضاً قطعة :

لو قيل لي من قبل ذا أن سوف تسلو من تود
فخلقت ألف قسامة لا كان ذا أبد الأبد
وإذا طويل الهجر ما معه من السلوان بد
لله هجر ركه إنه ساع لبرئ مجتهد
فالآن أعجب للسد وكنتم أعجب للجدد

وأرى هواك كجَمرة تحت الرماد لها مدد

وأقول :

كانت جهنم في الحَشَى من حُبِّكم فلقد أراها نارَ إبراهيم
ثم الأسباب الثلاثة الباقية التي هي من قِبَل المحبوب ، فالمتصبر من الناس
فيها غير مذموم . لما سُورده إن شاء الله في كل فصل منها .
فمنها نِفار يكون في المحبوب وأنزواء قاطع للأطماع .

* خبر :

وإني لأخبرُ عنِّي أني ألفت في أيام صباي ألفةً المَحبةَ جاريةً نشأت في دارنا
وكانت في ذلك الوقت بنتُ ستة عشر عاماً ؛ وكانت غايةً في حُسن وجهها
وعقلها وعفافها وطهارتها وخَفَرها ودُمائتها ، عديمة الهزل ؛ منيعةً البذل ، بديعة
البشر ، مُسَبِّلة السُتر ؛ فقيدة الدام ، قليلة الكلام ؛ مغضوضة البصر ، شديدة
الحذر ؛ نقيّة من العيوب ، دائمة القطوب ؛ حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ؛
مليحة الصدود ، رزينة العقود ؛ كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجى
نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل
القلوب ، وحالها طارد من أمها . تزدان في المنع والبخل ، ما لا يزدان غيرها
بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت
تحسن العود إحساناً جيداً . فجنحت إليها وأحببتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت
عامين أو نحوهما أن تَجِيئني بكلمة وأسمع من فيها لفظة ، غير ما يقع في الحديث
الظاهر إلى كل سامع ، بأبلغ السَّعى فما وصلتُ من ذلك إلى شيء البتة ، فلهي
بمُصْطَنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا
ودخله أخى رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ،
من يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدرأ من النهار ثم تنقلن إلى قِصبة
كانت في دارنا مشرفة على بُستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة

وفحوصها^(١)، مفتحة الأبواب . فصرن ينظرن من خلال الشراحيب وأنا ينيهن ،
فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقر بها متعرّضاً للدنو
منها ، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف
الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل
من الزوال إلى غيره . وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن
فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً . وإذا كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب
الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يُطلع من غيرها عليها . واعلم أن قيافة
النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج في الآثار . ثم نزلن إلى البستان
فرغب عجائزنا وكرأمننا إلى سيدتها في سماع غنائها ، فأخذت العود
وسوته بخقر وخجل لا عهد لي بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين
مُستحسنه ، ثم اندفعت نغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إني طربتُ إلى شمس إذا غرّبت	كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية	كان أعطافها طي الطوامير
ليست من الإنس إلا في مناسبة	ولا من الجن إلا في التماوير
فالوجه جوهرة والجسم عبّرة	والريح عبّرة والكل من نور
كانها حين تخطو في مجاسدها	تخطو على البيض أوحداً القوارير

فلعمري لكان المضرب إنما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه
إلى يوم مفارقتي الدنيا . وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع
كلامها ، وفي ذلك أقول :

لا تلمها على النفار ومنع الـ	وصل ما هذا لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد	أو يكون الغزال غير نفور

وأقول :

(١) فحوصها : دورها .

منعتِ جمالَ وجهك مُقلتيًا ولنفظُك قد ضننتِ به عليًا
أراكِ نذرتِ للرحمن صومًا فلستُ تكلمين اليوم حيًا
وقد غنيتِ للعباس شعرًا هنيئًا ذا لعباس هنيًا
فلو يلقاك عباس لأضحى لفوزٍ قاليًا وبكم شحيًا

ثم أنتقل إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة . وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمر أوجبت ذلك . ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحننا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس ، وخصمتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة . واتصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها . وقد أرتفعت الواعية (١) ، قائمة في المآتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادر . فلقد أثارت وجدًا دفينًا وحررت ساكنًا ، وذكرتنى عهدًا قديمًا وحُبًّا تليدًا ودهرًا ماضيًا وزمنًا عافيًا وشهورًا خوالي وأخبارًا بوالى ودهورًا فواني وأيامًا قد ذهبت وآثارًا قد دثرت ، وجددت أحزاني وهيجت بلايلي ، على أنى كنت في ذلك النهار مرزأ مصابًا من وجوه ، وما كنت نسيت ولكن زاد الشجى وتوقدت اللوعة وتأكد الحزن وتضاعف الأسف ، وأستجلب الوجد ما كان منه كامنًا فلباه مجيبًا . فقلت قطعة ، منها :

يُبَكِّي لِمَت مَاتَ وَهُوَ مُكْرَمٌ وَلَلْحَيِّ أُولَى بِالْدموعِ الدَّوَارِفِ
فِيَا عَجَبًا مِنْ آسَفٍ لَامْرئٍ ثَوَى وَمَا هُوَ لِمَقْتُولٍ ظَلَمًا بِآسَفِ

(١) الواعية . الصراخ والصوت لا الصارخة

ثم ضرب الدهر ضرباً شديداً وأجلينا عن منازلنا وتغلب علينا جند البربر ،
فخرجتُ عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعين وغابت عن بصرى بعد تلك
الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعين ،
فنزلت على بعض نساء فرأيتها هنالك ، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي هذه
فلانة وقد تغيرت أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنت تلك البهجة ، وغاض
ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية ، وذبل ذلك النوار
الذي كان البصر يقصد نحوه متنوراً ، ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً .
فلم يبق إلا البعض المنبئ عن السكل ، والخبر الخبز عن الجميع ، وذلك لقلة
أهتبالها بنفسها ، وعدمها الصيانة التي كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلمنا ،
ولتبذرها في الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تُصان وترفع عنه قبل ذلك . وإنما
النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت ، ولذلك
قال من قال : إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلاً وأعتق جودة لصبه
على ما لو لقي بعضه^{١٩} وجوه النساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم
والرياح واختلاف الهواء وعدم السكن ، وإني لو نلت منها أقل وصل وأنست
لي بعض الأنس خلوطت طرباً أولت فرحاً ، ولكن هذا النفار الذي
صبرني وأسلاني . *

وهذا الوجه من أسباب السلو صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم ؛ إذ
لم يقع تثبت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضي المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط
تصادف يُلام على تضييعه ونسيانه .

ومنها جفاء يكون من المحبوب ، فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المحب
نفساً لها بعض الأنفة والعزة تسلي ، وإذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً أو دائماً أو
كبيراً منقطعاً احتمل وأغضى عليه ، حتى إذا كثر ودام فلا بقاء عليه . ولا يلام
الناسي لمن يحب في مثل هذا .

ومنها الغدر ، وهو الذى لا يحتمله أحد ، ولا يُغضى عليه كريم ، وهو المسلاة
حقاً . ولا يلام السالى عنه على أى وجه كان ناسياً أو مُتصبراً ، بل اللائمة لاحقة
لمن صبر عليه . ولولا أن القلوب بيد مُقلِّبها لا إله إلا هو ولا يكلف المرء صرف
قلبه ولا إحاطة استحسانه ، لولا ذاك لقلت إن المُتصبر فى سلوه مع الغدر يكاد
أن يستحق الملامة والتعنيف . ولا أدعى إلى السلو عند الحر النفس وذوى الحفيظة
والسرى السجايا من الغدر ، فما يصبر عليه إلا دنىء المروءة خسيس النفس نذل
الهمة ساقط الأنفة ، وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

هَواك فلست أقربه غرور وأنت لـكل من يأتى سرير
وما إن تصبرين على حبيب فحولك منهم عدد كثير
فلو كنت الأمير لما تعاطى لقاءك خوف جمهم الأمير
رأيتك كالأماني ما على من يلم بها ولو كثروا غرور
ولا عنها لمن يأتى دفاع ولو حشد الأنام لهم نفير
ثم سبب ثامن ، وهو لا من المحب ولا من المحبوب ، ولكنه من الله
تعالى ، وهو اليأس . وفروعه ثلاثة : إما موت ، وإما بين لا يرجى معه أوبة ،
وإما عارض يدخل على المتحابين بعة الحب التى من أجلها وثق المحبوب فيغيرها .
وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبر ، وعلى الحب الناسى فى هذا
الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة من الغضاضة والذم واستحقاق أسم اللوم
والغدر غير قليل ، وإن لليأس لعملا فى النفوس عجيباً . وثلاجاً لحرّ الأكباد كبيراً .
وكل هذه الوجوه المذكورة أولاً وآخراً فالتأني فيها واجب ، والتربص على أهلها
حسن ، فيما يمكن فيه التأني ويصح لديه التربص ، فإذا انقطعت الأطماع
وأنحست الآمال فينثذ يقوم العذر .

وللشعراء فنٌّ من الشعر يذمّون فيه الباكى على الدمن ، ويُثنون على المشابر
على اللذات . وهذا يدخل فى باب السلو . ولقد أكثر الحسن بن هانئ فى هذا

الباب واقتخر به ، وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح في أشعاره ، تحكماً
بلسانه واقتداراً على القول . وفي مثل هذا أقول شعراً ، منه :

خَلَّ هذا وبادر الدهر وأرحل في رياض الربى مطىَّ القفار
واحدها بالبديع من نغمت الـ مود كـيما تُحِثَّ بالمزمار
إن خيراً من الوقوف على الدار ر وقوفُ البنان بالأوتار
وبدا النرجسُ البديع كصبِّ حائر الطرف مائلاً كالمدار
لونه لونُ عاشقٍ مُستهام وهو لاشكَّ هائمٌ بالبهار

ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعاً ، ومعصية الله بشرب الرّاح لنا
خلقاً ، وكساد الهمة لنا صفة ، ولكن حسبنا قول الله تعالى ، ومن أصدق من الله
قيلاً في الشعراء : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » .
فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ، ولكنّ شدوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر
خطأ . وكان سبب هذه الأبيات أن حَفَنِي العامرية ، إحدى كرائم المظفر عبد الملك
ابن أبي عامر ، كَلَفَتْنِي صَنَعَتِهَا فَأَحْبَبْتُهَا ، وكنت أجملها ، ولها فيها صنعة في طريقة
النشيد والبسيط رائقة جدا . ولقد أنشدتها بعض إخواني من أهل الأدب فقال
سروراً بها : يجب أن توضع هذه في جملة عجائب الدنيا .

لجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية : منها ثلاثة هي من الحب ، اثنان
منها يذم السالي فيهما على كل وجه ، وهما الملل والاستبدال ، وواحد منها يذم
السالي فيه ولا يذم المتصبر ، وهو الحياء كما قدمنا . وأربعة من المحبوب ، منها
واحد يذم الناسي فيه ولا يذم المتصبر ، وهو الهجر الدائم . وثلاثة لا يذم السالي
فيها على أي وجه كان ناسياً أو متصبراً ، وهي النفار والجفاء والغدر . ووجه ثامن
وهو من قبل الله عز وجل ، وهو اليأس إما بموت أو بين أو آفة تزامن . والمتصبر
في هذه معذور .

وعني أخبرك أني جُبلت على طبيعتين لا يهنئني معهما عيش أبداً ، وإني لأبرم

بحياتي بأجمعهما وأودّ التثبّت من نفسي أحياناً لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجليهما، وهما: وفاء لا يشو به تلون قد استوت فيه الحضرة والمغيّب، والباطن والظاهر، تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عمّا دريته، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته، وعزة نفس لا تقرّ على الضيم، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه. فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها. وإني لأجفي فأحتمل، وأستعمل الاناة الطويلة، والتلوّم الذي لا يكاد يطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر وحّيت نفسي تصبّرت، وفي القلب ما فيه. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

لى حلتان أذاقاني الأسى جرّعاً ونغصا عيشتي وأستهلكا جلدي
كلتاهما تطيّبني نحو جبلتها كالصيد ينشب بين الذئب والأسد
وفاء صدق فما فارقتُ ذامقة فزال حزني عليه آخر الأبد
وعزة لا يحل الضيم ساحتها صرامة فيه بالأموال والولد
ومما يشبه ما نحن فيه، وإن كان ليس منه، أن رجلاً من إخواني كنتُ أحللتُهُ من نفسي محلّها، وأسقطت المؤونة بيني وبينه، وأعددت ذخراً وكنزاً، وكان كثير السمع من كل قائل، فدبّ ذو النيمة بيني وبينه، فحاكواله وأنجح سعيهم عنده، فانقبض عما كنت أعهده. فتربّصت عليه مدة في مثلها أوب الغائب، ورضى العاتب، فلم يزد إلا انقباضاً فتركته وحاله.

باب الموت

وربما تزايد الأمر ورقّ الطبع وعظم الإشفاق فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا، وقد جاء في الآثار: من عشق فعفّ فمات فهو شهيد. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

فإن أهلك هوّ أهلك شهيداً وإن تمنن بقيتُ قرير عين
روى هذا لنا قومٌ ثقاتٌ ثووا بالصدق عن جرح ومين
ولقد حدثني أبو السريّ عمار بن زياد صاحبنا عن يثق به، أن الكاتب ابن

قزمان أمتحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز ، أخى الحاجب هاشم بن عبد العزيز .
وكان أسلم غايةً فى الجمال ، حتى أضجره لما به وأوقعه فى أسباب المنية . وكان
أسلم كثير الإلحاح به والزيارة له ولا علم له بأنه أصل دائه ، إلى أن توفى
أسفاً ودنفاً (١) .

قال المخبر : فأخبرت أسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال : هلا
أعلمتني ؟ فقلت : ولم ؟ قال : كنت والله أزيد فى صلته وما أكاد أفارقه ، فما على
فى ذلك ضرر . وكان أسلم هذا من أهل الأدب البارع والتفنن ، مع حظ من
الفقه وافر ، وذا بصارة فى الشعر ، وله شعر جيد ، وله معرفة بالأغاني وتصرفها ،
وهو صاحب تآليف فى طرائق غناء زرياب وأخباره ، وهو ديوان عجيب جداً .
وكان أحسن الناس خلقاً وخلقاً ، وهو والد أبى الجعد الذى كان ساكناً بالجانب
الغربي من قرطبة .

وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشيء بلغه فى جبهتها لم
يكن يوجب السخط ، فباعها . فجزعت لذلك جزعاً شديداً وما فارقها النحول
والأسف ، ولا بان عن عينيها الدمع إلى أن سلت ، وكان ذلك سبب موتها . ولم
تعش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة . ولقد أخبرتني عنها امرأة
أثق بها أنها لقيتها وهى قد صارت كالخيال نحولاً ورقة فقالت لها : أحسب
هذا الذى بك من محبتك لفلان ؟ فتنفست الصعداء وقالت : والله لأنسيته أبداً ،
وإن كان جفانى بلا سبب . وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيراً .

وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى رحمه الله ، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند ،
صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبى عامر محمد بن عامر ، وكانت التى لا مرمى
وراءها فى جمالها وكريم خلاها ، ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها . وكانا فى
حد الصبا وتمسكن سلطانه تغضب كل واحد منهما الكلمة التى لا قدر لها ،

فكانا لم يزلّا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام ، وكانت قد شفّها حُبّه وأضناها الوجد فيه وأنحماها شدة كلفها به حتى صارت كالخيال المتوسّم دنفًا ، لا يُلهمها من الدنيا شيء ، ولا تُسرّ من أموالها على عرّضها وتكاثرها بقليل ولا كثير إذا فاتها اتفاقه معها وسلامته لها . إلى أن توفّي أخى رحمه الله في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعمئة ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، فما أنفكت منذ بان عنها من السّقم الدّخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذى أكمل هو فيه تحت الأرض عامًا . ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جوارها أنها كانت تقول بعده : ما يُقوّى صبرى ويُمسك رمقى في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سُرورى وتيقّنى أنه لا يضمّه وأمرأة مضجع أبدًا ، فقد أمنتُ هذا الذى ما كنتُ أنخوفُ غيره ، وأعظمُ آمالى اليومَ اللّحاق به .

ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهى كذلك لم يكن لها غيره ، فكان كما قدّرت . غفر الله لها ورضى عنها .

وأما خبر صاحبنا أبى عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمى ، المعروف بابن الطنبى . فإنّه كان رحمه الله كأنه قد خلّق الحُسن على مثاله أو خلق من نفس كل من رآه ، لم أشاهد له مثلاً حُسنًا وجمالًا وخلْقًا وعفة وتصاوانًا وأدبًا وفهمًا وحلمًا ووفاء وسؤددًا وطهارة وكرمًا ودماثة وحلاوة ولبابة وإغضاء وعقلًا ومروءة ودينًا ودراية وحفظًا للقرآن والحديث والنحو واللغة ، وشاعرًا مُفلقًا ، حسن الخط ، وبلغيًا مُفنّنًا ، مع حظ صالح من الكلام والجدل ، وكان من غلمان أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدي أستاذى في هذا الشأن ، وكان بينه وبين أبيه اثنا عشر عامًا في السن ، وكنت أنا وهو متقاربين في الأسنان ، وكنا أليفين لا نفترق ، وخدينين لا يجرى الماء بيننا إلا صفاء ، إلى أن ألفت الفتنة جيرانها وأرخت عزاليها ووقع أنتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربى بقرطبة ونزولهم

فيها ، وكان مسكن أبي عبد الله في الجانب الشرقى ببلاط مُغيث ، وتقلبت بي الأمور إلى الخروج عن قرطبة وسُكنى مدينة المريّة ، فكنا نتهاذى النظم والنثر كثيراً . وآخر ما خاطبني به رسالة في درجها هذه الأبيات :

ليت شعري عن حبلٍ ودك هل يُم سى جديداً لدى غير رثيث
وأراني أرى مُحَيَّاكَ يوماً وأناجيـك في بلاط مُغيث
فلو أن الديار ينهضها الشوّ ق أتك البلاط كالمستغيث
ولو أن القلوب تستطيع سيراً سار قلبي إليك سير الحثيث
كن كما شئت لي فإني مُحِبٌّ ليس لي غير ذكر كم من حديث
لك عندي وإن تناسيت عهد في صميم الفؤاد غير نكيث
فكنا على ذلك إلى أن أنقطعت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر أمير المؤمنين وظهرت دولة الطالبية وبيع على بن حمود الحسني ، المسمى بالناصر ، بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملكها وأستمر في قتاله إياها بجيوش التغلبين والثوار في أقطار الأندلس . وفي إثر ذلك نسكني خيران صاحب المريّة ، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغيين — وقد انتقم الله منهم — عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ، ثم أخرجنا على جهة التغريب ، فصرنا إلى حصن القصر . ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي ، المعروف بابن المقل ، فأقمنا عنده شهوراً في خير دار إقامة ، وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة وأكملهم معروفاً وأتمهم سيادة . ثم ركبنا البحر قاصدين ببلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن ابن محمد ، وساكناه بها . فوجدت ببلنسية أبا شاكر عبد الرحمن بن محمد بن موهب الغنبري صديقنا ، فعنى إلى أبا عبد الله بن الطنبلي وأخبرني بموته رحمه الله . ثم أخبرني بعد ذلك بمديدة القاضي أبو الوليد يونس بن محمد المرادي وأبو عمرو أحمد ابن محرز ، أن أبا بكر المصعب بن عبد الله الأزدي ، المعروف بابن الفرضي ،

حدثهما ، وكان والد المصعب هذا قاضي بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدي ، وكان المصعب لنا صديقاً وأخاً وأليفاً أيام طلبنا الحديث على والده وسائر شيوخ المحدثين بقرطبة ، قالوا : قال لنا المصعب : سألت أبا عبد الله بن الطنبلي عن سبب علمته ، وهو قد نحل وخفيت محاسن وجهه بالضي فلم يبق إلا عين جواهرها المخبر عن صفاتها السالفة ، وصار يكاد أن يطيره النفس ، وقرب من الانحناء ، والشجاء باد على وجهه ، ونحن منفردان ، فقال لي . نعم : أخبرك أني كنت على باب داري بقديد الشمس في حين دخول علي بن حمود قرطبة ، والجيوش واردة عليها من الجهات تتسارب ، فرأيت في جملتهم فتى لم أقدر أن للحسن صورة قائمة حتى رأيته ، فغلب على عقلي وهام به لبي ، فسألت عنه فقل لي : هذا فلان بن فلان ، من سكان جهة كذا ، ناحية قاصية عن قرطبة بعيدة المأخذ . فيئست من رؤيته بعد ذلك . ولعمري يا أبا بكر لا فارقني حبه أو يوردني رمسى .

فكان كذلك ، وأنا أعرف ذلك الفتى وأدريه ، وقد رأيته لكنني أضربت عن اسمه لأنه قد مات والتقى كلاهما عند الله عز وجل . عفا الله عن الجميع .

هذا على أن أبا عبد الله ، أكرم الله نزل ، ممن لم يكن له وله قط ، ولا فارق الطريقة المثلى ، ولا وطىء حراماً قط ، ولا قارف منكراً ، ولا أتى منهيّاً عنه يحل بدينه ومروءته ، ولا قارض من جفا عليه ، وما كان في طبقتنا مثله . ثم دخلت أنا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون فلم أقدم شيئاً على قصد أبي عمرو القاسم بن يحيى التميمي أخى عبد الله رحمه الله . فسألته عن حاله وعزّيته عن أخيه ، وما كان أولى بالتعزية عنه مني ، ثم سألته عن أشعاره ورسائله إذ كان الذي عندي منه قد ذهب بالنهب في السبب الذي ذكرته في صدر هذه الحكاية ، فأخبرني عنه أنه لما قرّبت وفاته وأيقن بحضور المنية ولم يشك في الموت دعا جميع شعره وبكتبي التي كنت خاطبته أنا بها ، فقطعها كلها ثم أمر بدفنها . قال أبو عمرو : فقلت له : يا أخى ، دعها تبقى . فقال : إني أقطعها وأنا أدري أي

أقطع فيها أدباً كثيراً ، ولكن لو كان أبو محمد بعيني حاضراً لدفعتهُ إليه تكون عنده تذكرة لمودتي ، ولكني لا أعلم أي البلاد أضمرته ولا أحى هو أم ميت . وكانت نكبتني أتصلت به ولم يعلم مستقرى ولا إلى ما آل إليه أمرى . فمن مراني له قصيدة ، منها :

لئن سترتك بطون اللحد فوجدى بعدك لا يستتر
قصدتُ ديارك قصْدَ المشوق وللدَّهر فينا كرُور ومَرَّ
فألقيتها منك قفراً خلاء فأسكبتُ عيني عليك العبر

وحدثني أبو القاسم الهمداني رحمه الله قال : كان معنا ببغداد أخ لعبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون الفقيه ، الذي عليه مدارُ الفتيا بقرطبة ، وكان أعلم من أخيه وأجلّ مقداراً ، ما كان في أصحابنا ببغداد مثله ، وأنه أجتاز يوماً بدرب قُطنة في زقاق لا ينفذ ، فدخل فيه فرأى في أقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه ، فقالت : له . يا هذا ، إنَّ الدرب لا ينفذ . قال : فنظر إليها فهم بها . قال : وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها ، وخشى الفتنة فخرج إلى البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله ، وكان فيما ذكر من الصالحين .

مطايبة :

لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر ، أن رجلاً أندلسياً باع جارية ، كان يجد بها وجداً شديداً ، لفاقة أصابته ، من رجل من أهل ذلك البلد ، ولم يظن بأنَّها أن نفسه تتبعها ذلك التتبع . فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسي تخرج . فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكمه في ماله أجمع وفي نفسه ، فأبى عليه ، فتحمل عليه بأهل البلد فلم يسعف منهم أحد . فكاد عقله أن يذهب ، ورأى أن يتصدى إلى الملك فتعرض له وصاح ، فسمعه ، فأمر بإدخاله ، والملك قاعد في عليّة له مشرفة عالية فوصل إليه . فلما مثل بين يديه أخبره بقصته وأسترجه وتضرّع إليه ، فرق له الملك فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر ؛ فقال له : هذا

رجل غريب وهو كما تراه وأنا شفيعه إليك . فأبى المبتاع وقال : أنا أشد حُباً لها منه وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غداً وأنا في أسوأ من حالته . فعرض له الملك ومن حواليه من أموالهم ، فأبى ولجّ وأعتذر بمحبته لها ، فلما طال المجلس ولم يروا منه البتة جنوحاً إلى الإسعاف قال للأندلسي : يا هذا ، مالك بيدي أكثر مما ترى ، وقد جهدت لك بأبلغ سعى ، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك وأنه يخشى على نفسه شراً مما أنت فيه ، فاصبر لما قضى الله عليك . فقال له الأندلسي : فمالى بيدك حيلة ؟ قال له : وهل هاهنا غير الرغبة والبذل ، ما أستطيع لك أكثر . فلما يئس الأندلسي منها جمع يديه ورجليه وأنصب من أعلى العلية إلى الأرض . فارتاع الملك وصرخ ، فابتدر الغلمان من أسفل ، فقضى أنه لم يتأذى في ذلك الوقوع كبير أذى ، فصعد به إلى الملك ، فقال : ماذا اردت بهذا ؟ فقال : أيها الملك ، لاسبيل لى إلى الحياة بعدها ثم همّ أن يرمى نفسه ثانية ، فسمع فقال الملك : الله أكبر ، قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة ، ثم التفت إلى المشتري فقال : يا هذا ، إنك ذكرت أنك أود لها منه وتخاف أن تصير في مثل حاله ، فقال : نعم . قال : فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لولا أن الله عز وجل وقاه ، فأنت قم فصحح حبك وترام من أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك ، فإن مت فبأجلك وإن عشت كنت أولى بالجارية ، إذ هى في يدك ويمضى صاحبك عنك ، وإن أبيت نزع الجارية منك رغماً ودفعها إليه ، فتمنع ثم قال ، أترامى . فلما قرب من الباب ونظر إلى الهوى تحته رجع القهقري ، فقال له الملك : هو والله ما قلت ، فهمّ ثم نكل ، فلما لم يقدم قال له الملك : لا تتلاعب بنا ، يا غلمان ، خذوا بيديه وأرموا به إلى الأرض . فلما رأى العزيمة قال : أيها الملك ، قد طابت نفسى بالجارية . فقال له : جزاك الله خيراً . فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها ، وانصرفا .

باب قبح المعصية

قال المصنّف رحمه الله تعالى : وكثير من الناس يُطيعون أنفسهم ويعصون عقولهم ، ويتبعون أهواءهم ، ويرفضون أديانهم ، ويتجنبون ما حضّ الله تعالى عليه ورتبه في الأبواب السليمة من العفة وترك المعاصي ومقارعة الهوى ، ويخالفون الله ربهم ، ويوافقون إبليس فيما يُحبه من الشهوة المعطّبة فيواقعون المعصية في حُبهم . وقد علمنا أن الله عز وجل ركب في الإنسان طبيعتين متضادتين : إحداهما لا تشير إلا بخير ولا تحض إلا على حسن ولا يتصور فيها إلا كل أمر مرضى ، وهي العقل ، وقائده العدل .

والثانية : ضدّها لا تشير إلا إلى الشهوات ، ولا تقود إلا إلى الردى ، وهي النفس ، وقائدها الشهوة . والله تعالى يقول : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) . وكفى بالقلب عن العقل فقال : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) . وقال تعالى : (وَحَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) . وخاطب أولى الأبواب .

فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان ، وهما قوتان من قوى الجسد الفعّال بهما ، ومطر حان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العلويين . ففي كل جسد منهما حظّه على قدر مُقابله لهما في تقدير الواحد الصمد ، تقدّست أسماؤه حين خلقه وهَيَّاه . فهما يتقابلان أبداً ويتنازعان دائماً ، فإذا غلب العقل النفس ارتدع الإنسان وقمع عوارضه المدخولة وأستضاء بنور الله وأتبع العدل ، وإذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة ، ولم يصحّ الفرق بين الحسن والقيح ، وعظم الالتباس وتردى في هوة الردى ومهواة الهلكة ، وبهذا حسن الأمر والنهي ، ووجب الاكتمال ، وصح الثواب والعقاب ، واستحق الجزاء . والروح واصل بين هاتين الطبيعتين ، وموصل ما بينهما ، وحامل الالتقاء بهما . وإن الوقوف عند حدّ الطاعة لمعدوم إلا بطول الرياضة وصحة المعرفة ونفاذ التمييز ، ومع ذلك

أجتناب التعرض للفتن ومداخلة الناس جملة والجلوس في البيوت ، وبالحرى أن تقع السلامة المضمونة أو يكون الرجل حصوراً لا أرب له في النساء ولا جراحة له تعينه عليهن قديماً . وورد : من وقى شر لقلقه وقبقه وذبدبه فقد وقى شر الدنيا بخذافيرها . والقلق : اللسان . والقبب : البطن . والذبذب : الفرج . ولقد أخبرني أبو حفص الكاتب هو من ولد روح بن زنباع الجذامي ، أنه سمع بعض المتسمين باسم الفقه من أهل الرواية المشاهير ، وقد سئل عن هذا الحديث فقال : القبب : البطيخ .

وحدثنا أحمد بن محمد بن أحمد ، ثنا وهب بن مسرة ومحمد بن أبي دليم عن محمد بن وضاح عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث طويل : من وقاه الله شرّ أثنيتين دخل الجنة . فسئل عن ذلك فقال : ما بين لحييه وما بين رجليه .

وإني لأسمع كثيراً ممن يقول : الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء . فأطيل العجب من ذلك ، وإن لي قولاً لا أحول عنه : الرجال والنساء في الجنوح إلى هذين الشئيين سواء ، وما رجل عرضت له امرأة جميلة بألحظ وطال ذلك ولم يكن ثم من مانع إلا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي واستفزه الحرص وتغوله الطمع ، وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ، حتماً مقضياً وحكماً نافذاً لا محيد عنه البتة .

ولقد أخبرني ثقة صدق من إخواني من أهل التمام في الفقه والكلام والمعرفة ، وذو صلابة في دينه ، أنه أحب جارية نبيلة أدبية ذات جمال بارع ، قال : فعرضت لها فنفرت ، ثم عرضت فأبت . فلم يزل الأمر يطول وحبها يزيد ، وهي لا تطيع البتة ، إلى أن حملني فرط حبي لها مع عمي الصبي على أن نذرت أني متى نلت منها مرادى أن أتوب إلى الله توبة صادقة . قال : فما مرّت الأيام

والليالى حتى أذعنتُ بعد شماس ونفار . فقلت له : أبا فلان ، وفيتَ بعهدك ؟
فقال : إى والله ، فضحكتُ .

وذُكرتُ بهذه الفعلة ما لم يزل يتداول في أسماعنا من أن في بلاد البربر التي
تجاور أندلسنا يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد أن يتوب إلى الله ،
فلا يمنع من ذلك . وينسكرون على من تعرض له بكلمة ويقولون له : أتحرم
رجلاً مسلماً التوبة .

قال : واعهدى بها تبكى ونقول : والله لقد بلغتني مبلغاً ما خطر قط لى ببال ،
ولا قدرتُ أن أجيب إليه أحداً .

ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن
أظن غير هذا ، وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة ، أعنى الصلاح ،
غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبُطت
أنضبطت ، وإذا قُطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هي التي إذا ضبُطت لم
تنضبط ، وإذا حِيلَ بينها وبين الأسباب التي تُسهِّل الفواحش تحيَّات في أن
تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يدخل أهل
الفسوق ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة
التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة
الصنعة ، ويتصدى المشاهد المؤذية ، ويحب الخملوات المهلكات . والصالحان
من الرجال والنساء كالنار السكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تُحرَّك ،
والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء .

وأما امرأة مهمللة ورجل متعرض فقد هلكا وتلفا . ولهذا حُرِّم على المسلم
الالتذاذ بسماع نغمة امرأة أجنبية . وقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك .
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى
حجم عظامها فقد أفطر . وإن فيما ورد من النهي عن الهوى بنص التنزيل شيئاً

مَقْنَعاً . وفي إيقاع هذه الحكامة ، أعنى الهوى . أسماً على معان ، وأشتقاقها عند العرب ، وذلك دليل على ميل النفوس وهويها إلى هذه المقامات . وإن المتمسك عنها مُقَارِعَ لنفسه محارب لها .

وشىء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أنى ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسها إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأنت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفين لكلامها وحركاتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لأنحاء فيها ظاهراً عليها لا خفاء به . والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزينة وترتيب المشى وإيقاع المزح عند خُطُور المرأة بالرجل وأجتياز الرجل بالمرأة فهذا أشهر من الشمس في كل مكان . والله عز وجل يقول : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) . وقال تقدّست أسماؤه : (وَلَا يَضُرُّ بَنَ بَارِجِلَهُنَّ لِيُعَلِّمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) . فلولا علم الله عز وجل برقة إنغاضهن في السعى لإيصال حُبهن إلى القلوب ، ولطف كيدهن في التحييل لأستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى ، وهذا حد التعرض فكيف بما دونه .

ولقد أطاعت من سرّ معتقد الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم ، وأصل ذلك أنى لم أحسن قط بأحد ظناً في هذا الشأن ، مع غيرة شديدة ركبّت في . وحدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن أحمد ، ثنا أحمد ، ثنا محمد بن علي بن رفاعه ، حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الغيرة من الإيمان . فلم أزل باحثاً عن أخبارهن كاشفاً عن أسرارهن ، وكن قد أنسن مني بكتان ، فكنّ يطلعنني على غوامض أمورهن . ولولا أن أكون منبهاً على عورات يُستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن في السر ومكرهن في—— عجائب تذهل الأبواب .

وإني لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله وكفى به عليماً أني برىء الساحة ،
سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجرة ، وإني أقسم بالله أجلّ الأقسام أني
ما حللت مئزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت
إلى يومى هذا . والله الحمد على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقى .

حدثنا القاضى أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حجاج المعافى ،
وإنه لأفضل قاض رأيته ، عن محمد بن إبراهيم الطليطلى عن القاضى بمصر بكر بن
العلاء فى قول الله عز وجل : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) . أن لبعض المتقدمين
فيه قولاً ، وهو أن المسلم يكون مخبراً عن نفسه بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة
ربه التى هى من أعظم النعم ، ولا سيما فى المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه .
وكان السبب فيما ذكرته أني كنت وقت تأجج نار الصبا وشيرة الحداثة وتمكن
غارة الفتوة مقصوراً محظراً على بين رُقباء ورقائب ، فلما ملكت نفسى وعقلت
صَحبتُ أبا على الحسين بن على القاسى فى مجلس أبى القاسم عبد الرحمن بن
أبى يزيد الأزدي شيخنا وأستاذى رضى الله عنه ، وكان أبوعلى المذكور عاقلاً
عاملاً عالماً ممن تقدّم فى الصلاح والنسك الصحيح فى الزهد فى الدنيا والاجتهاد
للاخرة ، وأحسبه كان حصوراً لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله جملة
علماً وعملاً ودينياً وورعاً ، فنفعني الله به كثيراً وعلمتُ موقع الإساءة وقبح المعاصى .
ومات أبوعلى رحمه الله فى طريق الحج .

ولقد ضمني المبيت ليلة فى بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارف مشهورة
بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتنا من اللاتي قد ضمتها معى
النشأة فى الصبا ، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة . وكنت تركتها حين أعصرت
ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وأنساب ، وتفجرت عليها ينابيع
الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت ،
وانبعث فى خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت ، فأتت كما أقول :

خَرِيدَة صَاغَهَا الرَّحْمَنُ مِنْ نُورٍ جَلَّتْ مَلاَحِظُهَا عَنْ كُلِّ تَقْدِيرٍ
 لَوْ جَاءَنِي عَمَلِي فِي حَسَنِ صَوْرَتِهَا يَوْمَ الْحِسَابِ وَيَوْمَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ
 لَكُنْتُ أَحْظَى عِبَادَ اللَّهِ كُلِّهِمْ بِالْجَنَّتَيْنِ وَقُرْبِ الْخُرْدِ الْخُورِ
 وَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ صَبَاحَةِ ، وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَى صُورَةِ تَعْجِزِ الْوَصَافِ ، وَقَدْ
 طَبَّقَ وَصْفُ شَبَابِهَا قُرْطُبَةً ، فَبِتُّ عِنْدَهَا ثَلَاثَ لَيَالٍ مُتَوَالِيَةٍ وَلَمْ تَحْجِبْ عَنِّي عَلَى
 جَارِي الْعَادَةِ فِي التَّرْبِيَةِ . فَلَعَمْرِي لَقَدْ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَصْبُو وَيَثُوبَ إِلَيْهِ مَرْفُوضِ
 الْهَوَى ، وَيَعَاوِدُهُ مَنْسَى الْغَزْلِ . وَلَقَدْ أَمْتَنَعْتُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ دُخُولِ تِلْكَ الدَّارِ
 خَوْفًا عَلَى لُبِّي أَنْ يَزْدَهِيهِ الِاسْتِحْسَانُ . وَلَقَدْ كَانَتْ هِيَ وَجْمَعُ أَهْلِهَا مِنْ لَا تَتَعَدَّى
 الْأَطْمَاعُ إِلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ الشَّيْطَانُ غَيْرُ مَأْمُونِ الْغَوَائِلِ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

لَا تَتَّبِعِ النَّفْسَ الْهَوَى وَدَعِ التَّعَرُّضَ لِلْمَحَنِ
 إِبْلِيسَ حَتَّى لَمْ يَمُتْ وَالْعَيْنُ بَابٌ لِلْفَتَنِ

وَأَقُولُ :

وَقَائِلٌ لِي هَذَا ظَنُّ يَزِيدُكَ غِيَا
 فَقُلْتُ دَعِ عَنْكَ لَوْمِي أَلَيْسَ إِبْلِيسُ حَيًّا

وَمَا أورد الله تعالى علينا من قصة يوسف بن يعقوب وداود بن إيشي رُسل
 الله عليهم السلام إلا ليعلمنا نقصاننا وفاقتنا إلى عصمته ، وأن بنيّتنا مدخولة
 ضعيفة ، فإذا كانا صلى الله عليهما وهما نبيّان رسولان أبناء أنبياء رسل ومن أهل
 بيت نبوة ورسالة متكررين في الحفظ ، مغموسين في الولاية ، محفوفين بالكلاءة ،
 مؤيدين بالعصمة ، لا يجعل للشيطان عليهما سبيل ولا فتحة لوسواسه نحوهما طريق ،
 وبلغا حيث نص الله عز وجل علينا في قرءانه المنزل بالجملة الموكلة والطبع البشري
 والخليفة الأصيلة ، لا بتعمد الخطيئة ولا القصد إليها ، إذ النبيّون مبرّون من كل
 ما خالف طاعة الله عز وجل ، لكنه أَسْتَحْسَانُ طَبِيعِيّ فِي النَّفْسِ لِلصُّورِ ، فَمِنْ ذَا
 الَّذِي يَصِفُ نَفْسَهُ بِمِلْكِهَا وَيَتَعَاطَى ضَبَطَهَا إِلَّا بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ . وَأَوَّلُ دَمِ سَفْكَ

في الأرض قدمُ أحدِ ابني آدمَ على سببِ المنافسة في النساء . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : باعدُوا بين أنفاس الرجال والنساء . وهذه امرأة من العرب تقول وقد حبلى من ذى قرابة لها حين سُئلت : ما يبطنك يا هند ؟ فقالت : قرب الوساد وطول السواد . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

لا تَلْمُ مَنْ عَرَّضَ النَّفْسَ لِمَا	ليس يُرْضَى غَيْرُهُ عِنْدَ الْمُحَنِّ
لَا تُقَرِّبْ عَرْجًا مِنْ لَهَبٍ	ومَتَى قَرَّبَتْهُ قَامَتْ دَحَنٌ
لَا تُصَرِّفْ ثِقَةً فِي أَحَدٍ	فَسَدَ النَّاسُ جَمِيعًا وَالزَّمَنُ
خُلِقَ النَّسْوَانُ لِلْفَحْلِ كَمَا	خُلِقَ الْفَحْلُ بِلا شَكٍّ لَهْنُ
كُلِّ شَكْلٍ يَتَشَبَّهُ شَكْلَهُ	لَا تَكُنْ عَنْ أَحَدٍ تَنَفَّى الظَّنُّ
صِفَةُ الصَّالِحِ مَنْ إِنْ صُنَّتْهُ	عَنْ قَبِيحٍ أَظْهَرَ الطَّوْعُ الْحَسَنُ
وَسِوَاهُ مَنْ إِذَا تَقَقَّتْهُ	أَعْمَلُ الْحِيلَةَ فِي خَلْعِ الرَّسَنِ

وإني لأعلم فتى من أهل الصيانة قد أولع بهوى له ، فاجتاز بعض إخوانه فوجده قاعداً مع مَنْ كَانَ يُحِبُّ ، فاستجلبه إلى منزله ، فأجابه إلى منزله بأمثال المسير بعده . فمضى داعيه إلى منزله وأنتظره حتى طال عليه التربُّص فلم يأت . فلما كان بعد ذلك اجتمع به داعيه فعدَّد عليه وأطال لومه على إخلافه مواعده ، فاعتذر وورى . فقلت أنا للذي دعاه : أنا أكشف عُذْرَهُ صَاحِبًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ يَقُولُ : (مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ) . فضحك مَنْ حَضَرَ . وكُلِّفْتُ أَنْ أَقُولَ فِي ذَلِكَ شَيْئًا فَقُلْتُ :

وَجَرَّحَكَ لِي جَرَّحُ جَبَّارٍ فَلَا تَلْمُ	وَلَكِنْ جَرَّحَ الْحُبَّ غَيْرَ جُبَّارٍ
وَقَدْ صَارَتْ الْخِيَلَانُ وَسْطَ بَيَاضِهِ	كَتَيْلَوْفٍ حَقَّتْهُ رَوْضُ بَهَارٍ
وَكَمْ قَالَ لِي مَنْ مِتُّ وَجَدًا بِحُبِّهِ	مَقَالَةَ مَحْمُولِ الْمَقَالَةِ زَارِي
وَقَدْ كَثُرَتْ مِنِّي إِلَيْهِ مَطَالِبُ	أَلَحَّ عَلَيْهِ تَارَةً وَأَدَارِي
أَمَّا فِي التَّوَانِي مَا يَبْرُدُ غُلَّةً	وَيَذْهَبُ شَوْقًا فِي ضُلُوعِكَ سَارِي

فقلت له لو كان ذلك لم تكن عداوة جارٍ في الأنام لجار
وقد تتراءى العسكران لدى الوغى وبينهما للموت سَيْلُ بَوار
ولى كلمتان قلتُهما مُعرَّضاً بل مُصرِّحاً برجل من أصحابنا كُنَّا نعرفه كلنا،
من أهل الطلب والعناية والورع وقيام الليل وأقتفاء آثار النساك وسلوك مذاهب
المتصوفين القدماء باحثاً مجتهداً ، وقد كُنَّا نتجنب المزاح بحضرته ، فلم يَمُض
الزمن حتى مكَّن الشيطان من نفسه ، وفتك بعد لباس النساك ، وملك إبليس من
خِطامه فسوَّل له الغرور ، وزين له الويل والثبور ، وأجره رَسَنه بعد إباء . وأعطاه
ناصيته بعد شماس ، فخب في طاعته وأوضع ، وأشتهر بعد ما ذكرته في بعض المعاصي
القبیحة الوضرة ، ولقد أطلت ملامه وتشددت في عذله إذ أعلن بالمعصية بعد
أستتار ، إلى أن أفسد ذلك ضميره على ، وخبثت نيته لى ، وتربص بى دوائر
السوء ، وكان بعض أصحابنا يُساعده بالكلام أستجراً إلیه ، فیانس به ويُظهر
له عداوتى ، إلى أن أظهر الله سريره ، فعلمها البادى والحاضر ، وسقط من
عيون الناس كلهم بعد أن كان مقصداً للعلماء ومُنتاباً للفضلاء ، ورذُل عند
إخوانه جملة . أعاذنا الله من البلاء ، وسترنا فى كفايته ، ولا سلیمانما بنا من نعمته .
فيا سوء تاه لمن بدأ بالأستقامة ولم يعلم أن الخذلان يحل به وأن العصمة ستفارقه ،
لا إله إلا الله ، ما أشنع هذا وأفظعه . لقد دهمت إحدى بنات الحرس ، وألقت
عصاها به أم طبق . من كان لله أولاً ثم صار للشيطان آخراً ، ومن إحدى
الكلمتين :

أما الغلام فقد حانت فضيحتُه وأنه كان مستوراً فقد هتكَا
ما زال يضحك من أهل الهوى عجباً فالآن كل جهول منه قد ضحكا
إليك لا تلح صَباً هائماً كلفاً يرى التهتك فى دين الهوى نسكا
ذو مخبر وكتاب لا يفارقه نحو المحدث يسعى حيث ماسكا
فاعتاض من سمر أقلام بنان فتى كأنه من لجين صيغ أو سُبكا
(٩)

يا لائمي سَفَهَا في ذاك قِلَّ فلم تشهد جبينين يوم الملتقى أشتبكا
دَعْنِي وَوَرْدِي في الآبار أطلبه إليك غنى كذا لا أبتغي البركا
إذا تَعَفَّفت عَفَّ الحب عنك وإن تركت يوماً فإنَّ الحب قد تركا
ولا تحلَّ من المهجران مُنْعَقداً إلا إذا ما حلت الأزر والتككا
ولا تُصَحِّح للسلطان مملكة أوتدخل البرد عن إنفاذه السككا
ولا بغير كثير المسح يذهب ما يعلو الحديد من الأصداء إن سُبكا

وكان هذا المذكور من أصحابنا قد أحكم القراءات إحكاماً جيداً ، واختصر كتاب الأنباري في الوقف والابتداء اختصاراً حسناً أعجب به من رآه من المقرئين ، وكان دائماً على طلب الحديث وتقييمه ، والمتولى لقراءة ما يسمعه على الشيوخ المحدثين ، مثابراً على النسخ مجتهداً به . فلما أمتحن بهذه البليّة مع بعض الغلمان رفض ما كان مُعْتَنياً وباع أكثر كتبه واستحال استحالة كلية ، نعوذ بالله من الخذلان ، وقلت فيه كلمة وهي التالية للكلمة التي ذكرت منها في أول خبره ثم تركتها .

وقد ذكر أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الرويدى في كتاب اللفظ والإصلاح : أن إبراهيم بن سيّار النظام رأس المعتزلة ، مع علوّ طبقة في الكلام وتمكنه وتمكّنه في المعرفة ، تسبّب إلى ما حرم الله عليه من فتى نصراني عشقه بأن وضع له كتاباً في تفضيل التشليث على التوحيد . فيا غوثاه عياذك يارب من تولّج الشيطان ووقع الخذلان . وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون القبيح ، ويرق الدين حتى يرضى الإنسان في جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفصائح ، كمثّل ما دهم عُبيد الله بن يحيى الأزدي المعروف بابن الحريري ، فإنه رضى بإهمال داره وإباحة حريمه والتعريض بأهله طمعاً في الحصول على بُغيته من فتى كان علقه . نعوذ بالله من الضلال ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا وإطابة أخبارنا ، حتى لقد صار المسكين حديثاً تعمّر به المحافل ، وتصاغ فيه الأشعار ، وهو

الذى تسميه العرب الديوث . وهو مشتق من التدبث ، وهو التسهيل . وما بعد تسهيل من تسمع نفسه بهذا الشأن تسهيل ، ومنه بعير مديث . أى مدلل . ولعمري إن الغيرة لتوجد في الحيوان بالخلق ، فكيف وقد أكدتها عندنا الشريعة ، وما بعد هذا مصاب . ولقد كنت أعرف هذا المذكور مستورا إلى أن أستهواه الشيطان ونعوذ بالله من الخذلان . وفيه يقول عيسى بن محمد بن محمل الحولاني :

يا جاعلاً إخراج حُرِّ نسائه شرَّكا لصيد جاذر الغزلان
إني أرى شرَّكا مُمِزَّق ثم لا تحظى بغير مذلة الحرمان
وأقول أنا أيضاً :

أباح أبو مروان حُرَّ نسائه ليلبغ ما يهوى من الرِّشَاء الفرد
فعاتبته الديوث في قبْح فعله فأنشدني إنشاد مُستبصر جلد
لقد كنت أدركت المنى غير أنني يُعيرني قومي بإدرا كهوا وحدى
وأقول أيضاً :

رأيت الحزيري فيما يُعاني قليل الرِّشاد كثير السِّفاه
يبيع ويبتاع عرضاً بعرض أمور وجدك ذاتُ اشتباه
ويأخذ مِياً بإعطاء هاء ألا هكذا فليكن ذو النواهي
ويبدل أرضاً تُغذي النبات بأرض تُحف بشوك العِضاه
لقد خاب في تجرّه ذو أبتياح مهبّ الرياح بمجرى المياه

ولقد سمعته في المسجد الجامع يستعيز بالله من العصمة كما يستعاذ به من الخذلان .

ومما يشبه هذا أني أذكر أني كنت في مجلس فيه إخوان لنا عند بعض مياسير أهل بلدنا ، فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة أيضاً من أهل صاحب المجلس أمراً أنكرته وغمزاً أستبشعته ، وخلوات الحين بعد الحين ،

وصاحب المجلس كالغائب أو النائم ، فنبهته بالتعريض فلم ينتبه ، وحر كته بالتصريح فلم يتحرك ، فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يَفطن . وهما هذان :

إن إخوانه المقيمين بالأمس أتوا للزناء لا للغناء
قطعوا أمرهم وأنت حمار موقر من بلادة وغباء

وأكثر من إنشادهن حتى قال لي صاحب المجلس : قدأملت أن من سماعهما
تفضل بتركهما أو إنشاد غيرهما . فأمسكت وأنا لا أدري أغافل هو أم متغافل .

وما أذكر أني عدت إلى ذلك المجلس بعدها . فقلت فيه قطعة منها :

أنت لاشك أحسن الناس طناً و يقيناً ونيةً و ضميراً
فأنتبه إن بعض من كان بالأمس جلساً لنا يعانى كثيراً
ليس كل الرُّكوع فأعلم صلاةً لا ولا كل ذى لحاظ بصيراً

x وحديثي ثعلب بن موسى الكلاذاني قال : حدثني سليمان بن أحمد الشاعر
قال : حدثتني امرأة اسمها هند كنت رأيتهما في المشرق ، وكانت قد حجّت خمس
حجّات ، وهى من المتعبّدات المجتهدات ، قال سليمان : فقالت لى : يا بن أخى ،
لا تحسن الظن بأمرأة قط فإني أخبرك عن نفسي بما يعلمه الله عز وجل : ركبْتُ
البحر مُنصرفاً من الحج وقد رفضت الدنيا وأنا خامسة خمس نِسوة ، كلهن قد
حجّجن ، وصرنا في مركب في بحر القلزم ، وفي بعض ملاحى السفينة رجل مضمّر
الخلق مديد القامة واسع الأكتاف حسن التركيب ، فرأيتُه أول ليلة قد أتى إلى
إحدى صواحي فوضع إحليله في يدها وكان ضخماً جداً . فأمكنته في الوقت من
نفسها . ثم مر عليهن كلهن في ليالى متواليات ، فلم يبق له غيرها ، تعنى نفسها ،
قالت : فقلت في نفسي : لأنتقم منك . فأخذت موسى وأمسكتها بيدي . فأتى
في الليل على جارى عادته . فلما فعل كفعله في سائر الليالى سقطت الموسيقى عليه
فارتاع وقام لينهض . قالت : فأشفقت عليه وقلت له : وقد أمسكته : لازلت أو
أخذ نصيبي منك . قالت العجوز : فقضى وطره وأستغفر الله .

وإن للشعراء من لطف التعريض عن الكناية لعجبا . ومن بعض ذلك
قولي حيث أقول :

أتانى وماء المزن فى الجو يسفك كمحض لجين إذ يمد ويسبك
هلال الدياجى انحط من جو أفقه فقل فى محب نال ما ليس يدرك
وكان الذى إن كنت لى عنه سائلا فالى جواب غير أنى أضحك
لفرط سرورى خلتنى عنه نائما فىا عجبا من مؤقن يتشكك

وأقول أيضا قطعة منها :

أتيتى وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس
كحاجب الشيخ عم الشيب أكثره وإخص الرجل فى لطف وتقويس
ولاح فى الأفق قوس الله مكتسيا من كل لون كأذ ناب الطواويس
وإن فيما يبدو إلينا من تعادى المتواصلين فى غير ذات الله تعالى بعد الألفة ،
وتدابرهم بعد الوصال ، وتقاطعهم بعد المودة ، وتباغضهم بعد المحبة ، واستحكام
الضغائن ، وتأكد السخائم فى صدورهم ، لكاشفا ناهيا لو صادف عقولا سليمة
وآراء نافذة وعزائم صحيحة . فكيف بما أعد الله لمن عصاه من النكال الشديد
يوم الحساب وفى دار الجزاء ، ومن الكشف على رؤوس الخلائق (يوم تذهل
كل مربية عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى
وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) . جعلنا الله ممن يفوز برضاه
ويستحق رحمته .

ولقد رأيت امرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عز وجل . فعهدتها أصفى
من الماء والطف من الهواء وأثبت من الجبال وأقوى من الحديد وأشد امتزاجا
من اللون فى الملون ، وأنفذ استحكاما من الأعراض فى الأجسام ، وأضوأ من
الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كدر القطا ، وأعجب
من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجمل من وجه أبى عامر ، وألد من العافية ، وأحلى

من المنى ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش في الحجر ، ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفضع من الموت ، وأنفذ من السهم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحلق ، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار ، وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية المصاب ، وأشنع من خرق العادات ، وأقطع من فجأة البلاء ، وأبشع من السيم الزعاف ، وما لا يتولد مثله عن الذحول والترات وقتل الآباء وسبي الأمهات . وتلك عادة الله في أهل الفسق القاصدين سواء ، الآمين غيره ، وذلك قوله عز وجل : (ياليتني لم أنخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني) . فيجب على اللبيب الاستجارة بالله مما يورط فيه الهوى . فهذا خلف مولى يوسف بن ق مقام القائد المشهور ، كان أحد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر ، فلما أسر هشام وقتل وهرب الذين وازروه فرّ خلف في جملتهم ونجا . فلما أتى القسطلات لم يطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة فكّر راجعاً . فظفر به أمير المؤمنين المهدي ، فأمر بصلبه . فلعهدي به مصلوباً في المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النيل .

ولقد أخبرني أبو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث رحمه الله أن سبب هروبه إلى محلة البرابر أيام تحوّلهم مع سليمان الظافر إنما كان لجارية يكلف بها تصيرت عند بعض من كان في تلك الناحية ، ولقد كاد أن يتلف في تلك السفرة .

وهذان الفصلان وإن لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على مايقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر ، الذي يستوى في فهمه العالم والجاهل ، فكيف من العصمة التي لا يفهمها من ضعفت بصيرته . ولا يقولن امرؤ : خلوت . فهو وإن انفرد فبمرأى ومسمع من علام الغيوب (الذي يعلم خائنة الأعين

وما تخفى الصدور) (وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) (وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا وهو عليم بذات الصدور) وهو عالم الغيب والشهادة (وَيَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ) وقال: (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد).

وليعلم المستخف بالمعاصي. المتكلم على التسويف. المعرض عن طاعة ربه أن إبليس كان في الجنة مع الملائكة المقرَّبين فلمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنة الأبد وعذاب الخلد وصير شيطاناً رجياً وأبعد عن رفيع المسكن. وهذا آدم صلي الله عليه وسلم بذنب واحد أُخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونكدها. ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين. أفترى هذا المغتر بالله ربه ويأمل أنه ليزداد إثماً يظن أنه أكرم على خالقه من أبيه آدم الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد لهم ملائكته الذين هم أفضل خلقه عنده؟ أو عقابه أعزّ عليه من عقوبته إياه؟ كلا، ولكن أستمعذاب التمني واستيطاء مركب العجز وسخف الرأي قائدة أصحابها إلى الوبال والخزي، ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نهى الله تعالى ولا حامٍ من غليظ عقابه لكان في قبيح الأحداث عن صاحبه وعظيم الظلم الواقع في نفس فاعله أعظم مانع وأشد رادع لمن نظر بعين الحقيقة واتبع سبيل الرشd، فكيف والله عز وجل يقول: (وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهَا مُهَانًا).

حدثنا الهمداني في مسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة سنة إحدى وأربع مائة. حدثنا ابن سبويه وأبو إسحاق البلخي بخراسان سنة خمس وسبعين

وثلاثمائة . قال : ثنا محمد بن يوسف : ثنا محمد بن إسماعيل : ثنا قتيبة بن سعيد : ثنا جرير عن الأعمش عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل قال : قال عبد الله ، وهو ابن مسعود : قال رجل : يا رسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال : أن تدعو الله ندا وهو خلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك . فأنزل الله تصديقها : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) وقال عز وجل : (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله) .

حدثنا الهمداني عن أبي إسحاق البلخي وابن سبويه عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسعيد بن المسيب الخزوميين وأبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . وبالسند المذكور إلى محمد بن إسماعيل عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فقال : يا رسول الله ، إني زنيت . فأعرض عنه . ثم رد عليه أربع مرات . فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أباك جنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . اذهبوا به فارجموه .

قال ابن شهاب : فأخبرني من سمع جابر بن عبد الله قال : كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى ، فلما أذلقته الحجارة هرب فأدركناه بالحرّة فرجمناه .

حدثنا أبو سعيد مولى الحاجب جعفر في المسجد الجامع بقرطبة عن أبي بكر . قرئ عن أبي جعفر النحاس عن سعيد بن بشر عن عمرو بن رافع

عن منصور عن الحسن عن حطّان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي ، قد جعل الله لهن سبيلاً : البكر بالبكر جلد ، وتغريب سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم . فيا لشُنة ذنب أنزل الله وحيه مُبَيِّنًا بالتشهير بصاحبه ، والعنف بفاعله ، والتشديد لمقتطفه ، وتشدد في ألا يُرجم إلا بحضرة أوليائه عقوبة رجه ، وقد أجمع المسلمون إجماعاً لا ينقضه إلا مُلحد أن الزاني المُحصن عليه الرجم حتى يموت .

فيا لها قتلة ما أهولها ، وعقوبة ما أفظعها ، وأشد عذابها وأبعد لها من الإراحة وسرعة الموت .

وطوائف من أهل العلم منهم الحسن بن أبي الحسن وابن راهويه وداود وأصحابه يرون عليه مع الرجم جلد مائة ، ويحتجّون عليه بنص القرآن وثبات السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبفعل عليّ رضي الله عنه بأنه رَجَمَ امرأةً محصنة في الزنا بعد أن جلدتها مائة . وقال : جلدتها بكتاب الله ورجمها بسنة رسول الله . والقول بذلك لازم لأصحاب الشافعي ، لأن زيادة العدل في الحديث مقبولة ، وقد صح في إجماع الأمة المنقول بالكافة الذي يصحبه العمل عند كل فرقة وفي أهل كل نحلة من نحل أهل القبلة ، حاشى طائفة يسيرة من الخوارج لا يُعتدُّ بهم ، أنه لا يحل دم امرئ مسلم إلا بكفر بعد إيمان ، أو نفس بنفس ، أو بمحاربة لله ورسوله يُشهر فيها سيفه ويسعى في الأرض فساداً مقبلاً غير مدبر ، وبالزنا بعد الإحصان . فإن حد ما جعل الله مع الكفر بالله عز وجل ومحاربه وقطع حُجته في الأرض ومُناذته دينه لجُرم كبير ومَعْصية شنعاء ، والله تعالى يقول : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) . (والذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) وإن كان أهل العلم اختلفوا في تسميتها فكُلُّهم مُجمع مهمما اختلفوا فيه منها أن الزنا يقدم فيها ،

لا أختلاف بينهم في ذلك ولم يؤعد الله عز وجل في كتابه بالنار بعد الشرك إلا في سبع ذنوب ، وهي الكبائر : الزنا أحدها ، وقذف المحصنات أيضاً منها ، منصوباً ذلك كله في كتاب الله عز وجل .

وقد ذكرنا أنه لا يجب القتل على أحد من ولد آدم إلا في الذنوب الأربعة التي تقدم ذكرها . فأما الكفر منها فإن عاد صاحبه إلى الإسلام أو بالذمة إن لم يكن مرتدّاً قبل منه ، ودُرِيَ عنه الموت . وأما القتل فإن قبل الولي الدية في قول بعض الفقهاء أو عفا في قول جميعهم سقط عن القاتل القتل بالقصاص . وأما الفساد في الأرض فإن تاب صاحبه قبل أن يُقدر عليه هُدِر عنه القتل ، ولا سبيل في قول أحد مؤلف أو مخالف في ترك رَجْم المحصن ، ولا وجه لرفع الموت عنه البتة .

ومما يدل على شناعة الزنا ما حدّثنا القاضي أبو عبد الرحمن : ثنا القاضي أبو عيسى عن عبد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى عن الليث عن الزهري عن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عبيد بن عمير : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصاب في زمانه ناساً من هذيل ، فخرجت جارية منهم فأتبعها رجل يُريدها عن نفسها فرمته بحجر فقضت كبده . فقال عمر : هذا قتيل الله ، والله لا يودى أبداً .

وما جعل الله عز وجل فيه أربعة شهود وفي كل حكم شاهدين إلا حياطةً منه ألا تشبع الفاحشة في عباده ، لعظمها وشنعها وقبحها ، وكيف لا تكون شنيعة ومن قذف بها أخاه المسلم أو أخته المسلمة دون صحة علم أو تيقن معرفة فقد أتى كبيرة من الكبائر استحق عليها النار غداً ، ووجب عليه بنص التنزيل أن تُضرب بشرته ثمانين صوتاً .

ومالك رضى الله عنه يرى ألا يُؤخذ في شيء من الأشياء حد بالتعريض دون التصريح إلا في قذف .

وبالسند المذكور عن الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عبد الرحمن عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أمر أن يُجلد الرجل قال لآخر : ما أبى بزنان ولا أمى بزانية .

فى حديث طويل وبإجماع من الأمة كلها دون خلاف من أحد نعلمه أنه إذا قال رجل لآخر : يا كافر ، أو يا قاتل النفس التى حرم الله ، لما وجب عليه حد ؛ احتياطاً من الله عز وجل إلا ثبتت هذه العظيمة فى مسلم ولا مسلمة . ومن قول مالك رحمه الله أيضاً أنه لا حد فى الإسلام إلا والقتل يغنى عنه وينسخه إلا حد القذف ، فإنه إن وجب على من قد وجب عليه القتل حد ثم قتل . قال الله تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدوهُم ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) . وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الغضب واللعة المذكوران فى اللعان إلهما مُوجبتان .

حدثنا الهمداني عن أبى إسحاق عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله ، قال : ثنا سليمان عن ثور بن يزيد عن أبى الغيث عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وإن فى الزنا من إباحة الحريم ، وإفساد النسل ، والتفريق بين الأزواج الذى عظم الله أمره ، ما لا يهون على ذى عقل أو من له أقل خلاق ، ولولا مكان هذا العنصر من الإنسان وأنه غير مأمون الغلبة لما خفف الله عن المبكرين وشدد على المحصنين . وهذا عندنا وفى جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل

حُكْمًا بَاقِيًا لَمْ يُنْسَخْ وَلَا أُزِيلَ ، فَيَتْرَكُ النَّازِرَ لِعِبَادِهِ الَّذِي لَمْ يَشْغَلْهُ عَظِيمٌ مَا فِي خَلْقِهِ وَلَا يَحِيفُ قُدْرَتُهُ كَبِيرٌ مَا فِي عَوَالِمِهِ عَنِ النَّظَرِ لِحَقِيرٍ مَا فِيهَا ، فَهُوَ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) . وَقَالَ : (يَعْلَمُ مَا يَدْرَجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) . وَقَالَ : (عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) .

وَإِنْ أَعْظَمَ مَا يَأْتِي بِهِ الْعَبْدُ هَتَكَ سِتْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ . وَقَدْ جَاءَ فِي حُكْمِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ضَرْبِهِ الرَّجُلَ الَّذِي ضَمَّ صَبِيًّا حَتَّى أَمْنَى ضَرْبًا كَانَ سَبَبًا لِلْمَنِيَّةِ . وَمِنْ إِعْجَابِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بِاجْتِهَادِ الْأَمِيرِ الَّذِي ضَرَبَ صَبِيًّا مَكَّنَّ رَجُلًا مِنْ تَقْيِيلِهِ حَتَّى أَمْنَى الرَّجُلُ ، ضَرَبَهُ إِلَى أَنْ مَاتَ ، مَا يَنْسَى شِدَّةَ دَوَاعِي هَذَا الشَّأْنِ وَأَسْبَابِهِ . وَالتَّزْيِيدُ فِي الْاجْتِهَادِ ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَرَاهُ فَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَتَّبِعُهُ عَلَى ذَلِكَ عَالَمٌ مِنَ النَّاسِ . وَأَمَّا الَّذِي نَذْهَبُ إِلَيْهِ فَالَّذِي حَدَّثَنَا الْهَمْدَانِيُّ عَنِ الْبَلْخِيِّ عَنِ الْبُخَارِيِّ عَنِ الْفَرَبْرِ عَنِ الْبُخَارِيِّ قَالَ : ثَنَا يَحْيَى بْنُ سَلِيمَانَ ، ثَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي عُمَرُو بْنُ أَبِي بَكْرٍ حَدَّثَهُ عَنْ سَلِيمَانَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي بَرْدَةَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : لَا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَبِهِ يَقُولُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ النَّسَائِيُّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَأَمَّا فَعْلُ قَوْمِ لُوطَ فَشَنِيعٌ بِشِيعٍ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) . وَقَدْ قَذَفَ اللَّهُ فَاعِلِيهِ بِحِجَارَةٍ مِنْ طِينٍ مَسْوُومَةٍ . وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ يَرَى عَلَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ الرَّجْمَ أَحْصَانًا أَوْ لَمْ يُحْصَنَّا . وَاحْتِجَ بَعْضُ الْمَالِكِيِّينَ فِي ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي رَجْمِهِ فَاعِلِيهِ بِالْحِجَارَةِ : وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبْعِيدٍ . فَوَجِبَ بِهِذَا أَنَّهُ مِنْ ظُلْمِ الْآنَ بِمِثْلِ فَعْلِهِمْ قَرَبَتْ مِنْهُ .

والخلاف في هذه المسألة ليس هذا موضعه . وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن السري أن أبا بكر رضى الله عنه أحرق فيه بالنار . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى اسم المحرق فقال : هو شجاع بن ورقاء الأسدي أحرقه بالنار أبو بكر الصديق لأنه يؤتى في دبره كما تؤتى المرأة .

وان عن المعاصي لمذاهب للعقل واسعة ، فما حرم الله شيئاً إلا وقد عوض عباده من الحلال ما هو أحسن من المحرم وأفضل ، لا إله إلا هو .

وأقول في النهي عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ :

أقول لنفسي ما مبین كحالكِ وما الناسُ إلا هالكُ وابنُ هالكِ
صُنْ النفسَ عما عابها وارفضْ الهوى فإنَّ الهوى مفتاحُ بابِ المهالكِ
رأيتُ الهوى سهلُ المبادئِ لذيدها وعقباهُ مرَّ الطعمُ ضنكُ المسالكِ
فما لذَّةُ الإنسانِ والموتُ بعدها ولو عاشَ ضِعْفَ عُمرِ نوحَ بنِ لامكِ
فلا تتبعِ داراً قليلاً لبائها فقد أنذرتنا بالفناء المَواشكِ
وما تركها إلا إذا هي أمكنتِ وكُم تاركُ إضماره غير تاركِ
فما تاركُ الآمالِ عَجَباً جُؤاذراً كتاركها ذاتَ الضُّروعِ الحَواشكِ
وما قابلُ الأمرِ الذي كان راغباً بشهوةٍ مُشتاقٍ وعقلُ مُباركِ
لأجدي عباد الله بالفوز عنده لدى جنة الفردوس فوق الآرائكِ
ومن عَرَفَ الأمرَ الذي هو طالبُ رأى سبباً ما في يدي كل مالكِ
ومن عَرَفَ الرحمنَ لم يَعْصِ أمره ولو أنه يُعطى جميعَ الممالكِ
سبيلُ التقى والنسكِ خيرُ المسالكِ وسالِكها مُستبصر خيرُ سالِكِ
فما فقدَ التَّنْغِيسَ من عاجِ دونها ولا طابَ عيشٌ لأمرى غير سالِكِ
وطوبى لأقوامٍ يؤُمونَ نحوها بحِفَّةِ أرواحٍ ولينِ عرائكِ
لقد فقدوا غلَّ النفوسِ وفضلوا بعزِ سلاطينِ وأمنِ صَعالِكِ
فعاشوا كما شاءوا وماتوا كما أشتها وفازوا بدار الخلدِ رحبِ المَبَارِكِ

عَصُوا طَاعَةَ الْأَجْسَادِ فِي كُلِّ لَذَّةٍ بُنُورِ مَحَلِّ ظُلْمَةِ الْغَىِّ هَاتِكَ
فَلَوْلَا اعْتِدَادُ الْجِسْمِ أَيقَنْتُ أَنَّهُمْ يَعِيشُونَ عَيْشًا مِثْلَ عَيْشِ الْمَلَائِكِ
فِيَا رَبِّ قَدْ مَهَّمَهُمْ وَزِدْ فِي صَلَاحِهِمْ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ حَيْثُ حَلَّوْا وَبَارَكَ
وَيَا نَفْسَ جَدِّي لَا تَمَلِّي وَشَمَّرِي لَنَيْلِ سُرُورِ الدَّهْرِ فِيمَا هُنَاكَ
وَأَنْتِ مَتَى دَمَّرْتِ سَعِيكَ فِي الْهَوَى عَلِمْتَ بِأَنَّ الْحَقَّ لَيْسَ كَذَلِكَ
فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ الشَّرِيعَةَ لِلْوَرَى بِأَبْيَنِ مِنْ زُهْرِ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ
فِيَا نَفْسَ جَدِّي فِي خِلَاصِكَ وَأَنْفَذِي نَفَاذَ السُّيُوفِ الْمُرْهَفَاتِ الْبَوَاتِكِ
فَلَوْ أَعْمَلَ النَّاسُ التَّفَكُّرَ فِي الَّذِي لَهُ خُلِقُوا مَا كَانَ حَتَّى بَضَاحِكَ

باب فضل التعفف

وَمَنْ أَفْضَلُ مَا يَأْتِيهِ الْإِنْسَانُ فِي حُبِّهِ التَّعَفُّفَ ، وَتَرَكَ رُكُوبَ الْمَعْصِيَةِ وَالْفَاحِشَةِ ،
وَأَلَّا يَرْغَبَ عَنْ مُجَازَاةِ خَالِقِهِ لَهُ بِالنَّعِيمِ فِي دَارِ الْمَقَامَةِ ، وَأَلَّا يَعْصِيَ مَوْلَاهُ الْمُتَفَضِّلَ
عَلَيْهِ الَّذِي جَعَلَ لَهُ مَكَانًا وَأَهْلًا لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ . وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسْلَهُ وَجَعَلَ كَلَامَهُ
ثَابِتًا لَدَيْهِ ، عُنَايَةً مِنْهُ بِنَاوِإِحْسَانًا إِلَيْنَا . وَإِنْ مِنْ هَامِ قَلْبِهِ وَشُغْلُ بَالِهِ وَأُشْتَدَّ
شَوْقُهُ وَغَظْمُ وَجَدِهِ ثُمَّ ظَفَرَ فَرَامُ هَوَاهُ أَنْ يَغْلِبَ عَقْلُهُ وَشَهْوَتُهُ ، وَأَنْ يَقْهَرَ دِينُهُ ،
ثُمَّ أَقَامَ الْعَدْلَ لِنَفْسِهِ حَصْنًا ، وَعَلِمَ أَنَّهَا النَّفْسُ الْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ ، وَذَكَرَهَا بِعِقَابِ اللَّهِ
تَعَالَى وَفَكَرَ فِي أَجْتِرَائِهِ عَلَى خَالِقِهِ وَهُوَ يَرَاهُ ، وَحَذَرَهَا مِنْ يَوْمِ الْمَعَادِ وَالْوُقُوفِ
بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ الشَّدِيدِ الْعِقَابِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيِّنَةٍ ،
وَنَظَرَ بَعِينَ ضَمِيرِهِ إِلَى انْفِرَادِهِ عَنْ كُلِّ مَدَافِعٍ بِحُضْرَةِ عَلَامِ الْغُيُوبِ (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ
مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) . (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ
الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ) . (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا
عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) . (يَوْمَ وَعَدْتُ الْوُجُوهَ لِلْحَى
الْقَيُومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) . (يَوْمَ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ
رَبُّكَ أَحَدًا) يَوْمَ الطَّامَّةِ الْكُبْرَى ، (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى وَبَرَزَتْ

الجحيم لمن يرى فأما من طغى وأثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) واليوم الذي قال الله تعالى فيه : (وكلّ إنسان ألزمناه طائفة في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عندها يقول العاصي : يا ويأتني ! ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فكيف بمن طوى قلبه على أحرّ من جمر الغضى . وطوى كشحه على أحد من السيف ، وتجرّع غصصاً أمر من الحنظل ، وصرف نفسه كرهاً عما طمعت فيه وتيقنت ببلوغه وتهيات له ولم يحل دونها حائل ، لخرى أن يسرّ غداً يوم البعث ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود ، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع ، وأن يعوضه الله من هذه القرحة الأمن يوم الحشر .

حدثني أبو موسى هارون بن موسى الطبيب قال : رأيت شاباً حسن الوجه من أهل قرطبة قد تعبد ورفض الدنيا ، وكان له أخ في الله قد سقطت بينهما مؤونة التحفظ ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده ، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله . فنهض لها على أن ينصرف مسرعاً . ونزل الشاب في داره مع امرأته ، وكانت غاية في الحسن وترباً للضيف في الصبي ، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشي العسس ولم يمكنه الانصراف إلى منزله ، فلما علمت المرأة بفوات الوقت وأن زوجها لا يمكنه الحجى تلك الليلة تآقت نفسها إلى ذلك الفتى فبرزت إليه ودعته إلى نفسها ، ولا ثالث لهما إلا الله عز وجل ، فهم بها ثم تاب إليه عقله وفكر في الله عز وجل فوضع إصبعه على السراج فتفمّع ثم قال : يا نفس ، ذوقي هذا وأين هذا من نار جهنم . فها! المرأة مارأت ، ثم عاودته فعاودته الشهوة المركبة في الإنسان فعاد إلى الفعلة الأولى . فانباج الصباح وسبأته قد اصطلمتها النار .

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه ؟ أو ترى

أن الله تعالى يضيع له المقام ؟ كلا إنه لا كرم من ذلك وأعلم .
ولقد حدثتني امرأة أثق بها أنها علقها فتي مثلها من الحسن وعلقته وشاع
القول عليهما ، فأجتمعا يوماً خاليين فقال : هلمى نحقق ما يقال فينا . فقالت :
لا والله لا كان هذا أبداً . وأنا أقرأ قول الله : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض
عدوٌّ إلا المتقين) . قالت . فما مضى قليل حتى اجتمعا في حلال .

ولقد حدثتني ثقة من إخواني أنه خلا يوماً بجمارية كانت له مفارقة في الصبي ،
فتعرضت لبعض تلك المعاني ، فقال لها : كلا ، إن من شكر نعمة الله فيما منحنى
من وصالك الذي كان أقصى آمالي أن أجتنب هواي لأمره . ولعمري إن هذا
لغريب فيما خلا من الأزمان ، فكيف في مثل هذا الزمان الذي قد ذهب خيره
وأتى شره .

وما أقدر في هذه الأخبار — وهي صحيحة — إلا أحد وجهين لاشك فيهما :
إما طبع قد مال إلى غير هذا الشأن واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه فهو
لا يجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ولا في يوم ولا يومين ، ولو طال على
هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لجادت طباعهم وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكن الله
عصمهم بانقطاع السبب المحرك نظراً لهم وعلماً بما في ضمائرهم من الاستعانة به
من القبائح ، وأستدعاء الرشد . لا إله إلا هو .

وإما بصيرة حضرت في ذلك الوقت ، وخاطر تجرد أنقمعت به طوابع الشهوة
في ذلك الحين ، لخير أراد الله عز وجل لصاحبه . جعلنا الله ممن يخافه
ويرجوه . آمين .

وحدثني أبو عبد الله محمد بن عمرو بن مضاء عن رجال من بني مروان ثقات
يسندون الحديث إلى أبي العباس الوليد بن غانم أنه ذكر أن الإمام عبد الرحمن
ابن الحكم غاب في بعض غزواته شهوراً وثقف القصر بابنه محمد الذي ولي الخلافة
بعده ورتبه في السطح وجعل مبيته ليلاً وقعوده نهاراً فيه ، ولم يأذن له في الخروج

الْبَتَّة . وَرَتَّبَ مَعَهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ وَزِيْرًا مِنَ الْوُزَرَاءِ وَفَتًى مِنْ أَكْبَرِ الْفَتَيَانِ يَدِيْتَانِ مَعَهُ فِي السُّطْحِ . قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : فَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ مَدَّةً طَوِيلَةً وَبَعْدَ عَهْدِهِ بِأَهْلِهِ وَهُوَ فِي سِنِّ الْعِشْرِينَ أَوْ نَحْوِهَا ، إِلَى أَنْ وَافَقَ مَبِيْتِي فِي لَيْلَتِي نَوْبَةً فَتًى مِنْ أَكْبَرِ الْفَتَيَانِ ، وَكَانَ صَغِيرًا فِي سِنِّهِ وَغَايَةً فِي حَسَنِ وَجْهِهِ . قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنِّي أَخْشَى اللَّيْلَةَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَلَائِكَةُ بِمُوَاقِعَةِ الْمَعْصِيَةِ وَتَزْيِينِ إِبْلِيسَ وَاتِّبَاعِهِ لَهُ . قَالَ : ثُمَّ أَخَذْتُ مَضْجَعِي فِي السُّطْحِ الْخَارِجِ وَمُحَمَّدُ فِي السُّطْحِ الْدَاخِلِ الْمُطَّلِ عَلَى حَرَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْفَتَى فِي الطَّرَفِ الثَّانِي الْقَرِيبِ مِنَ الْمَطْلَعِ فَظَلَمْتُ أَرْقَبَهُ وَلَا أَغْفَلَ وَهُوَ يَظُنُّ أَنِّي قَدْ نِمْتُ وَلَا يَشْعُرُ بِاطْلَاعِي عَلَيْهِ . قَالَ : فَلَمَّا مَضَى هَزِيعٌ مِنَ اللَّيْلِ رَأَيْتُهُ قَدْ قَامَ وَأَسْتَوَى قَاعِدًا سَاعَةً لَطِيفَةً ثُمَّ تَعَوَّذَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَرَجَعَ إِلَى مَنَامِهِ . ثُمَّ قَامَ بَعْدَ حِينَ وَلَبِسَ قَمِيصَهُ وَأَسْتَوْفَزَ ثُمَّ نَزَعَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَادَ إِلَى مَنَامِهِ . ثُمَّ قَامَ الثَّالِثَةَ وَلَبِسَ قَمِيصَهُ وَدَلَّى رَجْلِيهِ مِنَ السَّرِيرِ وَبَقِيَ كَذَلِكَ سَاعَةً ثُمَّ نَادَى الْفَتَى بِأَسْمِهِ فَأَجَابَهُ ، فَقَالَ لَهُ : انْزِلْ عَنِ السُّطْحِ وَأَبْقِ فِي الْفَصِيلِ الَّذِي تَحْتَهُ . فَقَامَ الْفَتَى مُؤْتَمِرًا لَهُ . فَلَمَّا نَزَلَ قَامَ مُحَمَّدٌ وَأَغْلَقَ الْبَابَ مِنْ دَاخِلِهِ وَعَادَ إِلَى سَرِيرِهِ . قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : فَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ أَنَّ اللَّهَ فِيهِ مَرَادٌ خَيْرٌ .

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ الْحُسَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مَطْرَفٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ يُحْيَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ مَالِكٍ عَنْ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : سَبْعَةٌ يُظَاهِرُهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مَعْلُوقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ أُمْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ صَدَقَةً فَأَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تَنْفَقُ يَمِينُهُ) .

وإني أذكر أني دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صورته
وتألف القلوب أخلاقه ، للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه ، فسارعت إليه
وكان هذا سحراً . فبعد أن صليت الصبح وأخذت زبي طرقي فكر فسنتحت
لى أبيات ، ومعى رجل من إخوانى فقال لى : ما هذا الإطراق ؟ فلم أجبه
حتى أكلتها ، ثم كتبتها ودفعها إليه وأمسكت عن السير حيث كنت نويت .
ومن الأبيات :

أراقك حُسنٌ غيبه لك تَأْرِيقُ وتبريد وَصل سره فيك تَحْرِيقُ
وقرب مزار يقتضى لك فرقة وشيكاً ولولا القرب لم يك تَفْرِيقُ
ولذة طعم مُعقب لك علقماً وصاباً وفَسَحَ فى تضاعيفه ضيقُ
ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا إفناء الأعمار وإتباع
الأبدان وإجهااد الطاقة وأستنفاد الوسع وأستفراغ القوة فى شكر الخالق الذى
أبتدأنا بالنعم قبل أَسْتَسْأَلُها ، وأمتنّ علينا بالعقل الذى به عَرَفناه ، ووهبنا الحواس
والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات ، وصرف لنا السموات جارية بمنافعها ، ودبرنا
التدبير الذى لو ملكنا خلقنا لم نَهْتَدِ إليه ، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا ، وفضلنا على
أكثر الخلوقات ، وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه ، وخلق لنا الجنة دون أن
نستحقها ، ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبة لهم ، قال
الله تعالى : (جزاء بما كانوا يعملون) . ورشدنا إلى سبيلها وبصّرنا وجه ظلّها ،
وجعل غاية إحسانه إلينا وأمتنانه علينا حقاً من حقوقنا قبّله ، وديناً لازماً له ،
وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التى رزقنا قواها ، وأثابنا بفضله على تفضله .

هذا كرم لا تهتدى إليه العقول ، ولا يمكن أن تكيفه الأبواب . ومن عرف
ربه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنده اللذات الذاهبة والحطام الفانى ، فكيف
وقد أتى من وعيده ما تقشعرّ لسماعه الأجساد ، وتذوب له النفوس ، وأورد علينا
من عذابه ما لم ينته إليه أمل فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم ،

وما الرغبة في لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها ، ولا تفني التباعة منها ، ولا يزول
الغزى عن راكبها ، وإلى كم هذا التمدى وقد أسمعنا المنادى ، وكأن قد حدا بنا
الحادى إلى دار القرار ، فإما إلى جنة وإما إلى نار ، ألا إن التثبط في هذا المكان
لهو الضلال المبين . وفي ذلك أقول :

أَقْصَرَ عَنْ لُحُوهِ وَعَنْ طَرَبِهِ	وَعَفَّ فِي حُبِّهِ وَفِي عُرْبِهِ
فَلَيْسَ شُرْبُ الْمُدَامِ هِمَّتَهُ	وَلَا اقْتِنَاصُ الظُّبَاءِ مِنْ أَرْبِهِ
قَدْ آتَى الْقَلْبَ أَنْ يُفَيِّقَ وَأَنْ	يُزِيلَ مَا قَدْ عَلاَهُ مِنْ حُجْبِهِ
أَلْهَاهُ عَمَّا عَاهَدَتْ يُعْجِبُهُ	خِيفَةُ يَوْمٍ تُبْلَى السَّرَائِرُ بِهِ
يَانْفَسُ جَدَى وَشَمْرَى وَدَعَى	عَنْكَ أَتْبَاعَ الْهَوَى عَلَى لُغْبِهِ
وَسَارَعَى فِي النَّجَاةِ وَأُجْهَدَى	سَاعِيَةً فِي الْخِلَاصِ مِنْ كُرْبِهِ
عَلَى أَحْظَى بِالْفَوْزِ فِيهِ وَأَنْ	أَنْجُوَ مِنْ ضَيْقِهِ وَمَنْ لَهَبِهِ
يَأْيِهَا اللَّاعِبُ ائْجُدْ بِهِ الـ	دَّهْرَ أَمَا تَتَّقَى شَبَابَ نَسْكَبِهِ
كَفَاكَ مِنْ كُلِّ مَا وَعُظْتَ بِهِ	مَا قَدْ أَرَاكَ الزَّمَانَ مِنْ عَجْبِهِ
دَعِ عَنْكَ دَاراً تَفْنَى غَضَارَتُهَا	وَمَكْسَباً لَاعِباً بِمُكْتَسَبِهِ
لَمْ يَضْطَرْبْ فِي مَحَلِّهَا أَحَدٌ	إِلَّا نَبَا حَدَّثَهَا بِمُضْطَرْبِهِ
مَنْ عَرَفَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَةٍ	لَوْى وَحَلَّ الْفَوَادِ فِي رَهَبِهِ
مَا مُنْقَضِ الْمَلِكِ مِثْلَ خَالِدِهِ	وَلَا صَحِيحِ التَّقَى كَمُؤْتَشَبِهِ
وَلَا تَقَى الْوَرَى كَفَاسِقِهِمْ	وَلَيْسَ صِدْقُ الْكَلَامِ مِنْ كَذْبِهِ
فَلَوْ أَمِنَّا مِنَ الْعِقَابِ وَلَمْ	نَخْشَ مِنَ اللَّهِ مُتَّقَى غَضَبِهِ
وَلَمْ نَخَفْ نَارَهُ الَّتِي خُلِقَتْ	لِكُلِّ جَانِي الْكَلَامِ مُحْتَقَبِهِ
لَسَاكَ فَرَضُ الزَّوْمِ طَاعَتَهُ	وَرَدُّ وَفْدِ الْهَوَى عَلَى عَقَبِهِ
وَصَحَّةُ الزَّهْدِ فِي الْبَقَاءِ وَأَنْ	يَلْحَقَ تَفْنِيدُنَا بِمُرْتَقَبِهِ
فَقَدْ رَأَيْنَا فَعَلَ الزَّمَانَ بِأَهْ	لَهُ كَفَعَلَ الشُّوَاطِ فِي حَطَبِهِ

كم مُتَعِبٍ فِي الْإِلَهِ مُهْجَتَهُ رَاحَتُهُ فِي الْكَرِيهِ مِنْ تَعَبِهِ
 وَطَالِبٍ بِأَجْتِهَادِهِ زَهْرَ الْ دُنْيَا عَدَاهُ الْمَنُونِ عَنْ طَلَبِهِ
 وَمُدْرِكٍ مَا أَبْتَغَاهُ ذِي جَدَلٍ حَلٍّ بِهِ مَا يَخَافُ مِنْ سَبَبِهِ
 وَبَاحِثٍ جَاهِدٍ لِبُغْيَتِهِ فَإِنَّمَا بِحُجَّتِهِ عَلَى عَطَبِهِ
 بَيْنَا تَرَى الْمَرْءَ سَامِيًا مَلِكًا صَارَ إِلَى السُّفْلِ مِنْ ذُرَى رُتَبِهِ
 كَالزَّرْعِ لِلرَّجُلِ فَوْقَهُ عَمَلٌ أَنْ يَنْتِمِ حُسْنُ النُّمُو فِي قَصَبِهِ
 كَمْ قَاطَعَ نَفْسَهُ أَسَى وَشَجَاً فِي إِثْرٍ جَدٍّ يَجِدُّ فِي هَرَبِهِ
 أَلَيْسَ فِي ذَاكَ زَاجِرٌ عَجَبٌ يَزِيدُ ذَا اللَّبِّ فِي حُلَى أَدَبِهِ
 فَكَيْفَ وَالنَّارُ لِلْمُسَىءِ إِذَا عَاجَ عَنِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ عَقَبِهِ
 وَيَوْمَ عَرَّضَ الْحِسَابُ يَفْضَحُهُ الْ لَهُ وَيُبْدِي الْخَفَى مِنْ رِيْبِهِ
 مِنْ قَدْ حَبَاهُ الْإِلَهِ رَحْمَتَهُ مُوَصُولَةً بِالْمَزِيدِ مِنْ نَشَبِهِ
 فَصَارَ مِنْ جَهْلِهِ يَصْرَفُهَا فَيَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي كُتُبِهِ
 أَلَيْسَ هَذَا أُخْرَى الْعِبَادِ غَدَاً بِالْوَقْعِ فِي وَيلِهِ وَفِي حَرَبِهِ
 شُكْرًا لِرَبِّ طَيفٍ قُدْرَتُهُ فِينَا كَحَبْلِ الْوَرِيدِ فِي كُتُبِهِ
 رَازِقِ أَهْلِ الزَّمَانِ أَجْمَعِهِمْ مَنْ كَانَ مِنْ عُجْمِهِ وَمِنْ عَرَبِهِ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي تَفَضُّلِهِ وَقَمَعِهِ لِلزَّمَانِ فِي نَوْبِهِ
 أَخْدَمْنَا الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ وَمَنْ فِي الْجَوْ مِنْ مَائِهِ وَمِنْ شُهْبِهِ
 فَاسْمِعْ وَدَعْ مَنْ عَصَاهُ نَاحِيَةً لَا يَحْمِلُ الْحَمْلَ غَيْرُ مُحْتَطَبِهِ
 وَأَقُولُ أَيْضًا :

أَعَارَتْكَ دُنْيَا مُسْتَرَدٍّ مُعَارَهَا غَضَارَةُ عَيْشٍ سَوْفَ يَذْوِي أَخْضَارُهَا
 وَهَلْ يَتَمَنَّى الْمُحْكِمُ الرَّأْيَ عَيْشَةً وَقَدْ حَانَ مِنْ دُهِمِ الْمَنَايَا مَزَارُهَا
 وَكَيْفَ تَلَذُّ الْعَيْنُ هُجَّةً سَاعَةً وَقَدْ طَالَ فِيمَا عَايَنْتَهُ أَعْتَابُهَا
 وَكَيْفَ تَقَرُّ النَّفْسُ فِي دَارِ نُقْلَةٍ قَدْ اسْتَيْقَنْتُ أَنْ لَيْسَ فِيهَا قَرَارُهَا

وأنتى لها في الأرض خاطرٌ فكرة
أليس لها في السعى للفوز شاغلٌ
فحابت نفوسٌ قادها هو ساعة
لها سائقٌ حادٌ حيثُ مُبادرٌ
تراد لأمرٍ وهى تطلب غيره
أمسرعة فيما يسوء قيامها
تعطل مفروضاً وتعني بفضلة
إلى ما لها منه البلاءُ سكونها
وتعرض عن ربِّ دعاها الرُّشدها
فيأيها المغرور بادِرُ برَّجعة
ولا تتخير فانياً دون خالدٍ
أتعلم أن الحق فيما تركته
وتترك بيضاء المناهج ضلةً
تُسَرُّ بلهو مُعقِب بئدامة
وتفنى الليالى والمسرَّات كلها
فهل أنت يامغبون مُستيقظ فقد
فعجل إلى رضوان ربِّك واجتنب
يجد مرور الدهر عنك بلاعب
فكم أمة قد غرَّها الدهر قبلنا
تذكر على ما قد مضى وأعتبر به
تحامى ذراها كل باغ وطالب
توافت بيطن الأرض وأنشت شملها

ولم تدّر بعد الموت أين محارها
أما في توقّيها العذاب أزدجارها
إلى حرّ نار ليس يُطفئ أوارها
إلى غير ما أضحي إليه مدارها
وتقصّد وجهاً في سواء سفارها
وقد أيقنت أن العذاب قصارها
لقد شفها طغيانها وأغترارها
وعما لها منه النجاح نفارها
وتتبع دُنيا جد عنها فرارها
فله دارٌ ليس تخمد نارها
دليل على محض العقول اختيارها
وتسلك سبلاً ليس يخفى عوارها
لبهماء يُؤذى الرّجل فيها عثارها
إذا ما أنقضى لا ينقضى مُستثارها
وتبقى تباعات الذُّنوب وعارها
تبين من سرّ الخطوب أستمثارها
نواهيهِ إذ قد تجلى منارها
وتغرى بدُنيا ساء فيك سرارها
وها تيك منها مُقفرات ديارها
فإن المذكى للعقول اعتبارها
وكان ضماناً في الأعادي أنتصارها
وعاد إلى ذى ملكة استعارها^(١)

وكم راقد في غفلة عن منية
ومظلمة قد نالها متسلط
أراك إذا حاولت دنيك ساعياً
وفي طاعة الرحمن يُقعدك الوني
تحاذر إخواناً ستفني وتنقضي
كأنى أرى منك التبرم ظاهراً
هناك يقول المرء من لي بأعصر
تنبه اليوم قد أظلك وزده
تبراً فيه منك كل مخالط
فأودعت في ظلماء ضنك مقرها
تنادى فلا تدرى المنادى مفرداً
تنادى إلى يوم شديد مفزع
إذا حشرت فيه الوحوش وجمعت
وزينت الجنات فيه وأزلقت
وكورت الشمس المنيرة بالضحي
لقد جلّ أمر كان منه انتظامها
وسيرت الأجيال والأرض بدلت
فأما لدار ليس يفنى نعيمها
بحضرة جبار رفيق معاقب
ويندم يوم البعث جاني صغارها
ستغبط أجساد وتحيا نفوسها
إذا حَفَّهم غفو الإله وفضله
سيلحقهم أهل الفسوق إذا استوى

مشمرة في القصد وهو سعارها
مدلّ بأيدي عند ذى العرش ثارها
على أنها بادٍ إليك أزوارها
وتبدي أناة لا يصحّ اعتذارها
وتنسى التي فرض عليك حذارها
مبيناً إذا الأقدار حلّ اضطرارها
مضت كان ملكاً في يدي خيارها
عصيب يوافي النفس فيها احتضارها
وإن من الآمال فيه أنهيارها
يلوح عليها للعيون أغبرارها
وقد حط عن وجه الحياة خمارها
وساعة حشر ليس يخفى أشتارها
صحائفنا وأمثال فينا أنتشارها
وأذكي من نار الجحيم استعارها
وأسرع من زهر النجوم أنكدارها
وقد حلّ أمر كان منه أنتشارها
وقد عطّلت من مالكيها عشارها
وإما لدار لا يفك إسارها
فتحصي المعاصي كبرها وصغارها
وتهلك أهلها هناك كبرارها
إذا ما أستموى إسرارها وجهارها
وأسكنهم داراً حلالاً عُقارها
بجلبه سبق طرفها وحمارها

يُفَرِّدُ بَنُو الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ الَّتِي
هِيَ الْأُمُّ خَيْرُ الْبَرِّ فِيهَا عَقُوقُهَا
فَمَا نَالَ مِنْهَا الْحِظَّ إِلَّا مَهْمِنُهَا
تَهَافَّتَ فِيهَا طَامِعٌ بَعْدَ طَامِعٍ
تَطَامِنُ لِنَعْمِ الْحَادِثَاتِ وَلَا تَكُنْ
وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهَا بِمَا تَرَى
رَأَيْتُ مُلُوكَ الْأَرْضِ يَبْغُونَ عُدَّةً
وَيَخْلُقُوا طَرِيقَ الْقَصْدِ فِي مُبْتَغَاهُمْ
وَأَنْ الَّتِي يَبْغُونَ نَهَجَ بَقِيَّةِ
هَلِ الْعِزُّ إِلَّا هِمَّةٌ صَحَّ صَوْنُهَا
وَهَلِ رَاجِحٌ إِلَّا أَمْرٌ مُتَوَكِّلٌ
وَيَلْقَى وَلَاةَ الْمَلِكِ خَوْفًا وَفِكْرَةً
عَيَانًا نَرَى هَذَا وَلَكِنْ سَكْرَةً
تَدْبِرُ مِنَ الْبَانِي عَلَى الْأَرْضِ سَقْفَهَا
وَمَنْ يَمْسُكُ الْأَجْرَامَ وَالْأَرْضَ أَمْرُهُ
وَمَنْ قَدَّرَ التَّدْيِيرَ فِيهَا بِحِكْمَةٍ
وَمَنْ فَتَقَّ الْأَمْوَاءَ فِي صَفْحِ وَجْهِهَا
وَمَنْ صَيَّرَ الْأَلْوَانَ فِي نُورِ نَبْتِهَا
فَمَنْهِنَّ مَخْضَرٌّ يَرُوقُ بِصَيِّصِهِ
وَمَنْ حَفَرَ الْأَنْهَارَ دُونَ تَكْلَافٍ
وَمَنْ رَتَّبَ الشَّمْسَ الْمُنِيرَ أَيْبَاضِهَا
وَمَنْ خَلَقَ الْأَفْلاكَ فَا مَتَدَّ جَرِيهَا

يُظَنُّ عَلَى أَهْلِ الْحُظُوطِ اقْتِصَارُهَا
وَلَيْسَ بِغَيْرِ الْبَذْلِ يُحْمَى ذِمَارُهَا
وَمَا الْهَلَكُ إِلَّا قَرْبُهَا وَاعْتِمَارُهَا
وَقَدْ بَانَ لِلْبَذْلِ الذِّكْرُ اخْتِبَارُهَا
لَهَا إِذَا اعْتِمَارَ يَجْتَنِبُكَ غَمَارُهَا
فَقَدْ صَحَّ فِي الْعَقْلِ الْجَلِيُّ عِيَارُهَا
وَلَذَّةُ نَفْسٍ يُسْتَطَابُ اجْتِرَارُهَا
لِمُتَبِعِهِ الصَّفَارُ جَمَّ صَغَارُهَا
مَكِينٌ لَطَلَّابُ الْخِلَاصِ اخْتِصَارُهَا
إِذَا صَانَ هِمَّاتِ الرِّجَالِ انْكَسَارُهَا
قَنُوعٌ غَنَى النَّفْسَ بَادٍ وَقَارُهَا
تَضْيِيقُ بِهَا ذَرْعًا وَيَفْنِي اصْطِبَارُهَا
أَحَاطَتْ بِهَا مَا إِنْ يُفْنِي خُمَارُهَا
وَفِي عِلْمِهِ مَعْمُورُهَا وَقَفَارُهَا
بَلَا عَمْدٍ يُدْنِي عَلَيْهِ قَرَارُهَا
فَصَحَّ لَدَيْهَا لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا
فَمِنْهَا يَغْذَى حَبِّهَا وَثَمَارُهَا
فَأَشْرَقَ فِيهَا وَرَدَّهَا وَبَهَارُهَا
وَمِنْهَا مَا يَغْشَى اللَّحَاطُ أَحْمَارُهَا
فَتَارُ مِنَ الصَّمِّ الصَّلَابِ انْفِجَارُهَا
غَدَوْا وَيَبْدُو بِالْعَشِيِّ أَصْفَرَارُهَا
وَأَحْكَمُهَا حَتَّى اسْتَقَامَ مَدَارُهَا

وَمَنْ إِنْ أَلَمْتَ بِالْعُقُولِ رِزِيَّةً
تَجِدُ كُلَّ هَذَا رَاجِعٌ نَحْوَ خَالِقِ
أَبَانَ لَنَا الْآيَاتِ فِي أَنْبِيَائِهِ
فَأَنْطَقَ أَفْوَاهًا بِالْفَاضِلِ حِكْمَةٍ
وَأَبْرَزَ مِنْ صُفَى الْحِجَارَةِ نَاقَةً
لِيُوقِنَ أَقْوَامٌ وَتَكْفُرَ عُصْبَةٌ
وَشَقَّ لِمُوسَى الْبَحْرَ دُونَ تَكْلِفِ
وَسَلَّمَ مِنْ نَارِ الْأَنْوَقِ خَلِيلَهُ
وَنَجَّى مِنَ الطُّوفَانِ نُوحًا وَقَدْ هَدَّتْ
وَمَكَّنَ دَاوُدًا بِأَيْدٍ وَابْنَهُ
وَذَلَّلَ جَبَّارَ الْبِلَادِ لِأَمْرِهِ
وَفَضَّلَ بِالْقُرْآنِ أُمَّةَ أَحْمَدَ
وَشَقَّ لَهُ بَدْرَ السَّمَاءِ وَخَصَّهُ
وَأَنْقَذَنَا مِنْ كُفْرٍ أَرَبَانَا بِهِ
فَمَا بَالُنَا لَا نَتْرَكَ الْجَهْلَ وَيُنْحَنَا
فَلَيْسَ إِلَى حَى سِوَاهُ أَفْتَقَارُهَا
لَهُ مُلْكُهَا مُنْقَادَةٌ وَائْتِمَارُهَا
فَأَمَكُنَ بَعْدَ الْعَجْزِ فِيهَا اقْتِدَارُهَا
وَمَا حَلَّهَا إِثْغَارُهَا وَاتِّغَارُهَا
وَأَسْمَعَهُمْ فِي الْحَيْنِ مِنْهَا حُورُهَا
أَتَاهَا بِأَسْبَابِ الْهَلَاكِ قِدَارُهَا
وَبَانَ مِنَ الْأَمْوَاجِ فِيهِ انْحِسَارُهَا
فَلَمْ يُؤْذِهِ إِحْرَاقُهَا وَأَعْتَزَّارُهَا
بِهِ أُمَّةٌ أَبَدَى الْقُسُوفَ شِرَارُهَا
فَتَعَسَّيَرَهَا مُلْقَى لَهُ وَبِدَارُهَا
وَعَلَّمَ مِنْ طَيْرِ السَّمَاءِ حِوَارُهَا
وَمَكَّنَ فِي أَقْصَى الْبِلَادِ مُغَارُهَا
بِآيَاتِ حَقٍّ لَا يُخْلُ مَعَارُهَا
وَكَانَ عَلَى قُطْبِ الْهَلَاكِ مَنَارُهَا
لِنَسْلَمَ مِنْ نَارٍ تَرَامَى شِرَارُهَا

هنا أعزك الله انتهى ما تذكرته إيجاباً لك ، وتقمناً لمسرتك ، ووقوفاً عند
أمرك . ولم أمتنع أن أورد لك في هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويكثر
القول فيها ، موفيات على وجوهها ، ومفردات في أبوابها ، ومنعمات التفسير ، مثل
الإفراط في صفة النحول ، وتشبيه الدموع بالأمطار وأنها تروى السفار ، وعدم النوم
اللبته ، وانقطاع الغذاء جملة ، إلا أنها أشياء لا حقيقة لها ، وكذب لا وجه له ، ولكل
شيء حد ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً . والنحول قد يعظم ولو صار حيث
يصفونه لكان في قوام الذرة أو دونها ، وخرج عن حد المعقول . والسهر قد
يتصل ليالي ، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك . وإنما قلنا إن الصبر عن النوم

أقل من الصبر عن الطعام ؛ لأن النوم غذاء الروح والطعام غذاء الجسد ، وإن كانا يشتركان في كليهما ولكننا حكينا على الأغلب . وأما الماء فقد رأيت أن ميسوراً البناء جارنا بقرطبة يصبر عن الماء أسبوعين في حمارة القيظ ويكتفي بما في غذائه من رطوبة .

وحدثني القاضي أبو عبد الرحمن بن جحاف أنه كان يعرف من كان لا يشرب الماء شهراً .

وإنما اقتصر في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلاً ، وعلى أني قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفي بها لثلاثاً أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم . وسيرى كثير من إخواننا أخباراً لهم في هذه الرسالة مكنياً فيها من أسمائهم على ما شرطنا في ابتدائها . وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتب المذنبان ويحصى الرقيبان من هذا وشبهه ، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله . ولكنه إن لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به المرء فهو إن شاء الله من اللغو المغفوف ، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب . وعلى كل حال فليس من الكبائر التي ورد النص فيها .

وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المتعصمين على تأليفي لمثل هذا ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجافى عن وجهته ، وما أحل لأحد أن يظن في غـير ما قصدته ، قال الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) .

وحدثني أحمد بن محمد بن الجسوري ، ثنا بن أبي دليم ، ثنا ابن وضاح عن يحيى ابن مالك بن أنس عن أبي الزبير المكي عن أبي شريح السكعي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إياكم والظن فإنه أكذب الكذب .

وبه إلى مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن الأعرج عن أبي هريرة

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت .

وحدثني صاحبي أبو بكر محمد بن إسحاق ، ثنا عبد الله بن يوسف الأزدي ، ثنا يحيى بن عائد ، ثنا أبو عدى عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحاق بن الفرج الإمام بمصر ، ثنا أبو علي الحسن بن قاسم بن دحيم المصري ، ثنا محمد بن زكريا الغلابي ، ثنا أبو العباس ، ثنا أبو بكر عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال : وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثمانى عشر كلمة من الحكمة منها : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك عليه .

ولا تظن بكلمة خرجت من في أمرىء مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً . فهذا أعزك الله أدب الله وأدب رسوله صلى الله عليه وسلم وأدب أمير المؤمنين . وبالجملة فإني لا أقول بالمرأية ولا أنسك نسكاً أعجمياً . ومن أدى الفرائض المأمور بها ، وأجتنب المحارم المنهى عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الإحسان ، ودعنى مما سوى ذلك وحسبي الله .

والكلام في مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب ، وإن حفظ شيء وبقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطرى لعجب على ما مضى ودهنى . فأنت تعلم أن ذهنى متقلب وبالى مهصر بما نحن فيه من نبو الديار ، والخلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر في صيانة الأهل والولد ، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الاقدار ، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا . وإن الذى أبقى لأكثر مما أخذ ، والذى ترك أعظم من الذى تحيىف ، ومواهبه المحيطة بنا ونعمه

التي غمرتنا لا تحد . ولا يؤدي شكرها ، والكل منحه وعطاياه ، ولا حكم لنا في
أنفسنا ونحن منه ، وإليه منقلبنا ، وكل عارية فراجعة إلى مُعيرها . وله الحمد أولاً
وآخرأ وعوداً وبدءاً وأنا أقول :

جعلتُ اليأس لي حصناً ودرعاً	فلم ألبس ثيابَ المُستضام
وأكثر من جميع الناس عندي	يسير صانني دون الأنام
إذا ما صح لي ديني وعرضي	فلمستُ لما تولّى ذا أهتمام
تولّى الأمل والغدُ لست أدري	أأدركه فقياً ذا أهتمام

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين . آمين آمين
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

تم طبع هذه الرسالة المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم
بالقاهرة عام ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م والله الحمد ومنه العون

فهارس الكتاب

- (١) فهرست الأبواب ١٥٧
- (٢) فهرست الأعلام ١٥٨ - ١٦٢
- (٣) فهرست القبائل ١٦٣
- (٤) فهرست الأماكن ١٦٣
- (٥) فهرست القوافي ١٦٤

فهرست الأبواب

الصفحة		الصفحة	
٤٢	١٦ - باب الطاعة	١	١ - المقدمة
٤٦	١٧ - « المخالفة	٢	٢ - الكلام في ماهية الحب
٤٧	١٨ - « العاذل	١١	٣ - باب علامات الحب
٤٨	١٩ - « المساعد من الاخوان	١٩	٤ - « من أحب في النوم
٥٠	٢٠ - « الرقيب	٢٠	٥ - « من أحب بالوصف
٥٣	٢١ - « الواشي	٢٢	٦ - « من أحب من نظرة واحدة
٥٩	٢٢ - « الوصل	٢٤	٧ - « من لا يحب إلا أجمع المطاولة
٦٧	٢٣ - « المهجر	٢٧	٨ - « من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها
٧٨	٢٤ - « الوفاء	٣٩	٩ - باب التعريض بالقول
٨٣	٢٥ - « القدر	٣١	١٠ - « الإشارة بالعين
٨٤	٢٦ - « البين	٣٣	١١ - باب المراسلة
٩٥	٢٧ - « القنوع	٣٤	١٢ - « السفير
١٠٢	٢٨ - « الضنى	٣٦	١٣ - « طي السر
١٠٥	٢٩ - « السلو	٣٩	١٤ - « الاذاعة
١١٥	٣٠ - « المدح	٤١	١٥ - ومن أسباب الكشف
١٢٢	٣١ - « قبح المعصية		
١٤٢	٣٢ - « فضل التعفف		

فهرست الآءلام

الصفحة

٨٥

أبو الحسن مجاهد

٧٢

أبو الحسين بن علي الفاسي

١٢٣

أبو حفص الكاتب

٢

أبو النرداء

٤٤

أبو دلف الوراق

١٥٣

أبو دليم

١٥٣

أبو الزبير المكي

١٥٣

أبو سعيد المقبري

١٣٦

أبو سعيد مولى الحاجب جعفر

٧٠

أبو سعيد الجعفرى

١٣٦

أبو سلمة بن عبد الرحمن

١٥٣

أبو شريح السكبي

١٠٤

أبو العافية مولى ابن عباس

٢١

أبو عامر بن أبي عامر

١٥٣

أبو عبد الرحمن بن جحاف

١٣٨

أبو عبد الرحمن القاضي

١١٩، ١١٨

أبو عبد الله بن الطنبى

١٢٦

أبو عبد الله بن عبد الرحمن المعافى

١٣٨

أبو عيسى القاضي

٥

أبو العيش بن ميمون

١٣٩

أبو الغيث

١٥٣، ١٤٥، ١٣٩، ١٢٠

أبو القاسم الهمداني

١٣٦

أبو هريرة

١٣٦

أبو وائل

أحمد بن محمد بن جدير أبو عمرو ١٠٤، ٤٤

٥٦

أحمد بن سعيد

٤١

أحمد بن الفتح

١١٨

» » محرز أبو عمرو

١٠٧

» » محمد

٥٦

» » أبو عمر

١٢٥

» » بن أحمد أبو عمر

الصفحة

١٣٨، ١٢٨

آدم عليه السلام

١٤١

إبراهيم بن السرى أبو إسحاق

٦٣، ١٠

إبراهيم بن سيار النظام أبو إسحاق

١٣٠، ٩٨

إبراهيم بن عيسى أبو إسحاق

٥٨، ٥٧

ابن أبي يزيد

٧٢

ابن برطال = زكريا بن يحيى

٢٢

ابن الحذاء

٢٢

ابن الحريرى = عبيد الله بن يحيى الأزدي

١٣٧

ابن راهويه

١٣٧

ابن الركية = محمد بن أحمد بن وهب

١٣٦

ابن زبيدة = محمد بن هارون

١٣٦، ١٣٥

ابن سيويو

٩٧

ابن سهل الحاجب

١٣٦

ابن شهاب الزهرى

١٣٦

ابن الطنبى = محمد بن يحيى التميمى

٦

ابن عباس

١١٥

ابن القرضى = المصعب بن عبد الله الأزدي

١١٥

ابن قرمان

٥٧، ٥٦

ابن مسعود

١٥٣

ابن المقفل = عبد الله بن هذيل النجيبى

١٤٠

ابن وضاح

١٣٩، ١٣٦، ١٣٥

أبو إسحاق البلخى

١٣٩، ١٣٦، ١٣٥

أبو إسحاق بن سيار = إبراهيم بن سيار

١٤٠

أبو بردة الأنصارى

١٤٠، ٥٧

أبو بكر الصديق

١٣٦

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث

١٣٦، ٧٠

أبو بكر المقرئ

٩٨

أبو تمام حبيب

١١٦

أبو الجعد

١٣٦، ٧٠

أبو جعفر النحاس

الصفحة	
١٢١، ٣٨	حبيب بن هانيء
١٣٧	حطان بن عبد الله الرقا
١٤٥	حفص بن عاصم
٤٥، ٤٤، ٢٨، ٢١، ٥	الحكم المستنصر
٥	» بن هشام
٢	حمام بن أحمد

(خ)

١١٨، ٨٥	خيران
---------	-------

(د)

١٣٧	داود
١٢٧	» عليه السلام
٥	دعجاء

(ر)

١٠٧، ٥٧، ٥٦	رسول الله صلى الله عليه وسلم
١٢٣، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩	
١٥٤، ١٥٣، ١٤٥، ١٤٠	
١٢٣	الرمادي = يوسف بن هارون
	روح بن زنباع الجنامي

(ز)

١١٦	زرياب
٦٥	زكريا بن يحيى
١٣٨	الزهري
٦٣	زياد بن أبي سفيان
١٢٣	زيد بن أسلم
١٠٧	زيد بن طلحة بن ركانة

(س)

١٣٦	سعيد بن بشر
١٥٤، ١٣٦	» « المسيب
٤٤	» « منذر بن سعيد
١٠٧	سلمة بن صفوان
١٣٩	سليمان
١٣٢	» بن أحمد

الصفحة

٩٩	أحمد بن محمد بن إسحاق
١٥٣، ١٤٥	» « « الجصور
١٤٥، ١٠٧	» « مطرق
٣٨	» « مغيث
	» « يحيى بن إسحاق الرويدى أبو
١٣٠	الحسين
١٩	إسماعيل بن يونس
١١٦	أسلم بن عبد العزيز
١٥٣	الأعرج
١٣٦	الأعمش
١٣٠	الأنباري

(ب)

٩٨	البحترى
١٤٠	البخارى
١٢٦	بكر بن العلاء
١٤٠	بكير
١٤٠	البلخي
	البليبي = أحمد بن محمد بن جدير

(ت)

١٣٢	تعلب بن موسى السكلاذاني
١٣٩	تور بن يزيد

(ج)

١٣٦	جابر بن عبد الله
١٣٦	جيرير المحدث
١٣٦	جعفر الحاجب
١٠٤	جعفر مولى ابن جدير

(ح)

١٣٧	الحسن
١٣٧	» بن أبي الحسن
١٩	حاتم أبو البقاء
١٤٥	حبيب بن عبد الرحمن
١٥٤	» « قاسم بن دجيم

الصفحة

١٥٤	عبد العزيز بن علي
٥٦	عبد الله بن عمر بن الخطاب
١٣٦	» » مسعود
١١٨	» » هذيل النجبي
١٣٨، ١٠٧	» » يحيى
١٢٠	» » بن أحمد بن دحون
١٥٤	عبد الله بن يوسف الأزدي
٢٩	عبد الملك بن مروان الطليق
٤٥	» » منذر
٩٣، ٩٢	عبد الوهاب بن أحمد أبو المغيرة
١	عميد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة
٥	عميد الله بن عتبة
٥٦	» » يحيى
١٤٥، ١٣٠	» » الأزدي
١٣٨	عميد بن عمير
٥	عثمان بن محمد بن عبد الرحمن
١٢٣	عطاء بن يسار
٧٤	عفراء
١٣٦	عفيل
١١٩، ١١٨	علي بن حمود الحسني
١٢٥، ٥٦	» » عبد العزيز
١١٥، ١٩	عمار بن زياد أبو السري
١٥٤، ١٣٩، ١٣٨، ٥٦	عمر بن الخطاب
١٣٩	عمرة بنت عبد الرحمن
١٤٠	عمرو
١٣٦	عمرو بن رافع
١٣٦	» » شرحبيل
١٣١	عيسى بن محمد بن محمد بن الحولاني

(غ)

٦٥	غالب
١٠٠	الغريض

الصفحة

١١٨	سليمان الظافر
١٤٠	» بن يسار
(ش)	
١٣٧	الشافعي
١٤١	شجاع بن ورقاء
(ص)	
٣٨	صبح (أم المؤيد)
٥	» (أم هاشم المؤيد بالله)
٥٦	صفوان بن سليم
(ط)	
٧٠	طرفة بن العبد
	الطليق = عبد الملك بن مروان
	طروب (أم عبد الله بن عبد الرحمن
٥	ابن الحكم)
(ع)	
١١٦	عاتكة بنت قند
٤٠	عاصم بن عمرو أبو الفتح
٥	العامر بن عبد الله بن مسامة
١٣٧	عبادة بن الصامت
١١٧، ٧٢	عبد الرحمن بن أبي يزيد
	» » أحمد بن محمود أبو المظفر ٤٦
١٤٠	عبد الرحمن بن جابر
١٤٤، ٥	عبد الرحمن بن الحكم
٧٢	» » سليمان البلوي
٤٥	» » عميد الله
١١٨	» » محمد
٢٢	» » القيرى
١١٨	» » الغنبري أبوشاكر
٧٧، ٢٩	عبد الرحمن المرتضى
٥	» » بن معاوية
١٣٩	عبد العزيز بن عبد الله

الصفحة

- ١٤٠ » » النسائي
 ١٤٤ » » عمرو بن مضاء أبو عبد الله
 ٤٦ محمد بن كليب أبو عبد الله
 ١١١، ٢٩ » المهدي
 ٣٨ » بن هارون
 ١٢٣ » » واضح
 ٦٥ » » يحيى
 ١١٧ » » التميمي أبو عبد الله
 ١٣٩، ١٣٦ » » يوسف
 المرخيطي = مسامة بن أحمد
 ٦٥ مروان بن أحمد بن شهيد
 ١٠٥، ١٠٤ » » يحيى بن أحمد ابن جدير
 المستنصر = الحكم المستنصر
 ٤٤ مسلم
 ٤٤ مسامة بن أحمد المرجيطي
 ١٠٩، ١١٨ المصعب بن عبد الله الأزدي
 ٥ المطرف بن محمد بن عبد الرحمن
 ٤٤ المظفر بن أبي عامر
 ٥ » » عبد الملك
 ١٠٠ معبد
 ١٤١ معمر بن المثنى أبو عبيدة
 ٤٤ مقدم بن الأصفر
 ١٣٧ منصور
 ٤٥ المنصور بن أبي عامر
 ٥ منصور بن نزار
 ٤٥ منذر بن سعيد
 ٤٠ موسى بن عاصم بن عمرو

(ن)

- ٢٨ الناصر
 ٥ نزار بن معد
 النظام = إبراهيم بن سيار النظام

(ه)

- ١٤٣ هارون بن موسى الطيب أبو موسى
 (١١)

الصفحة

- غزلان (زوج محمد بن عبد الرحمن)
 (ف)

- ١٤٠ الفربري

(ق)

- القاسم بن سلام أبو عبيد ١٣٨، ١٢٥، ٥٦
 » » محمد بن عبد الرحمن ٥
 » » يحيى التميمي أبو عمرو ١١٩
 قتادة ١٥٤
 قتيبة بن سعيد ١٣٦

(ل)

- ٩ لابان
 ١٤٠ لوط عليه السلام
 ١٣٩، ١٣٨، ١٣٦ الليث بن سعد

(م)

- مالك بن أنس ١٣٩، ١٢٣، ١٠٧، ٥٦
 ١٥٣، ١٤٥، ١٤٠

- ١٩ مجاهد بن الحصين القيسي
 ١٢٦ محمد بن إبراهيم الطليطلي
 ١٢٣ » » أبي دليم
 ٣٨ محمد بن أبي عامر
 ٨٠ » » أحمد بن وهب

- » » » إسحاق أبو بكر ٢٢
 محمد بن إسحاق ١١٨
 » » » أبو بكر ١٥٤، ١٨
 » » » إسماعيل ١٣٩، ١٣٦
 » » » بني الحجرى أبو بكر ١٠٣
 » » » داود ٦

- ١٥٤ » » زكريا الغلابي
 ١١٦، ١٨ » » عامر أبو عامر
 ١٠٤ » » عباس بن أبي عبدة
 » » » عبد الرحمن بن الحكم ١٤٤، ١٣٩، ٥
 » » » الليث أبو بكر ١٣٤

- ١٢٥، ٥٦ محمد بن علي بن رفاعة

الصفحة		الصفحة	
١٣٩	» » سعيد	١١٦	هاشم بن عبد العزيز
١٤٠	» » سليمان	٧٧	هشام بن محمد أبو بكر
١٥٤	» » عائذ	١١١، ٢٩	» المويد
٢	» » مالك	١٢	هنا بن أحمد
١٥٣	» » بن أنس	١٤٠، ١٣٩، ١٣٦، ١٣٥	الهمداني
٦٥	» » محمد	١٣٢	هند
١٠٥، ١٠٤	» » » محمد بن عباس		
١٣٨، ١٢٣	» » يحيى	(و)	
١٨	يزيد بن عمر بن هبيرة	٥	واحد (زوج المظفر بن عبد الملك)
٩	يعقوب (عليه السلام)	١٤٤	الوليد بن عامر أبو العباس
٦٥	يوسف بن سعيد العكبي	١٢٣	وهب بن ميسرة
٢٣، ٢٢	» » هارون الرمادي	(ي)	
١٢٧	» » يعقوب عليه السلام		
١١٨	يونس بن محمد المرادي أبو الوليد	١٣٦	يحيى بن بكير

فهرست القبائل

الصفحة		الصفحة	
١٤٤، ١١٨، ٢٨، ٢٢	بومروان	(١)	
(خ)		٣٨	آل مغيث
١٢٧، ٦٣	الخوارج	٤٦	أهل الفيروان
(م)		(ب)	
١٣٠، ٩٨، ٤٥	المعتزلة	١١٧، ١١٢، ١٠٥، ٤٥	البربر
		١٣٤، ١٢٤، ١٢٠	

فهرست الأماكن

الصفحة		الصفحة	
(ش)		(١)	
٨٥، ١	شاطبة	١١٨، ٤٥، ٢٩	الأندلس
(ص)		(ب)	
٩٧	صقلية	٢٢	باب العطارين
(ق)		١٢٠	بغداد
٦٥، ٤٥، ٤٤، ٤٠، ٣٨، ٢٢	قرطبة	١١٩، ١١٨	بلنسية
١٠٥، ٩٤، ٨٦، ٧١، ٧٠		(ج)	
١١٨، ١١٧، ١١٢، ١١١		٤٤	جامع قرطبة
١٥٣، ١٤٣، ١٣٦، ١١٩		٨٥	الجزائر
(م)		(خ)	
١٨	مالقة	١٣٥	خراسان
٦	المدينة	(ر)	
١١٨، ٨٥، ١٩، ١	المرية	٢٢	الربص
١٣٥	مسجد القمري	١١١	ربض الزاهرة
١٥٤، ٥	مصر	٧٢	الرصافة
٧١	مقبرة باب عامر	(س)	
٤٤	مقبرة قریش	٧٢	سبئية
(و)			
١٨	واسط		

فهرست القوافي

الصفحة		الصفحة	
١٠٢ »	رأيتك - وتسمعا	(ع)	
٥٨ »	ولا - صلاحها	أظنك - أوليائه	طويل ٨٦
١٧ هزج	جميل - مسفوح	وإذا - الفناء	خفيف ١٢
	(خ)	إن - للفناء	» ١٣٢
٢١ بسيط	أبدلت - بالنسخ	(ا)	
	(د)	أرى - حشى	طويل ٩٦
١٦ طويل	مشوق - يعربد	كيف - نوى	سريع ٦٣
١٨ »	ألا - لجمود	(ب)	
١٨ »	وإن - لجليد	أودك - سراب	طويل ١
٨٥ »	منى - البعد	إذا - رطاب	» ١٠٥
٨٧ »	لغد - البعد	أقمت - يرهب	» ٦٨
٩٧ »	يلوموننى - يحسد	وسراء - أتجيب	» ٦٨
٩٧ »	أنى - بمجود	أرى - مغيب	» ٨٥
٩٩ »	توحش - عمود	إن - وأكذب	كامل ٩٦
٤٠ »	ولا - تريده	لك - قرابه	» ٨٦
٢٥ »	حبة - زنادها	أقصر - عربه	منسرح ١٤٧
٦ »	ودادى - ولم يزد	وقالوا - ترغبه	مقارب ٩٢
٣٠ »	يعيبونها - عندى	(ت)	
٥٨ »	أم - الهند	يلوم - وساكت	طويل ٣٦
٧٠ »	تذكرت - تهمير	فليس - البهت	» ١٢
٨٧ »	أطلت - البعيد	كل - يفيت	مجزوء المديد ٩١
٦٨ »	يلوم - بالصدى	للتلاقى - وفاته	خفيف ٨٧
١٠٠ »	ولما - الندى	(ث)	
١٠١ »	وقلوا - محيدا	كأننى - نوافث	طويل ٩١
٨٩ بسيط	وجه - يزد	على - بناكت	» ٥٢
١١٥ »	لو - جلدى	ليت - رثيث	خفيف ١١٨
٢١ مخلص البسيط	قد - يبدو	(ج)	
٢٤ وافر	سأبعد - الرشيد	أهوى - أرج	بسيط ١٣
٧٢ »	لعلك - تزيدا	خلوت - ما أنبلج	» ١٦
١٣١ كامل	أباح - الفرد	(ح)	
٧٤ مجزوء الكامل	لا - يعده	دلتل - ويسفح	طويل ١٨
١٠٨ »	لو - تود		
٦٧ سريع	هل - فادى		
٧٧ »	با - فى العقد		
٨٨ »	بشرى - شداد		
١٠٤ خفيف	قد - فؤاد		

الصفحة

بسيط ١٣٣

مقارب ٦١

رجز ١٥

أبليتني - للنواقيس

جری - الفرسي

أرعى - والحنس

(س)

سريع ٦٦

كم - الفراش

(ص)

طويل ٨٧

رجز ٤٦

خفيت - شخص

غامض - الفرص

(ض)

طويل ٨٢

» ٩٠

» ٥٤

بسيط ٦٠

مقارب ٤٧

وخذني - نضاض

بذلت - معرض

وهل - متأرض

أسامر - عرضا

إذا - ممرضا

(ط)

طويل ٤٣

وقد - سخط

(ظ)

بسيط ٩٧

زار - والحفظة

(ع)

طويل ٣٣

» ٧٢

» ٨٩

» ٨٦

بسيط ٨٢

مقارب ٧٣

عزيز - قاطع

سريع - يسرع

وفد - وتسرع

وذى - مصرعى

ولى - أضلعة

وكننت - السامع

(ف)

طويل ١١١

بسيط ١١

» ٩٥

وافر ٩٨

سريع ٩٦

هزج ٢١

مقارب ٢٢

» ٩٠

يبكى - الذوارف

وأستلذ - أنصرف

ليت - وقفا

أغار - كفى

لما - ينصف

وبا - طرفي

آخ - شريفا

بذلتى - جزافا

الصفحة

مقارب ٤٢

فهل - حد

(ذ)

طويل ٤٢

ولاني - جهيز

(ر)

» ١٤٨

» ٥٨

» ٦٣

» ٧٦

» ٧٧

» ١٢

» ٩٤

بسيط ٢٠

» ٢٣

» ٦٠

» ١١٠

» ٩٢٧

» ١٢٨

» ٦١

» ٧٨

مخلع البسيط ٧٦

وافر ١١٣

» ٨٨

كامل ١٠٦

سريع ٧٥

» ٧٥

متسرح ١٨

خفيف ١١٠

» ١١٤

» ١٣٢

مقارب ١٢٠

رجز ٤٣

أعارتال - اخضرارها

ولا - تدري

وددت - فى صدرى

رهبت - فى المقابر

أساعة - النشر

إذا - وتفطرا

لئن - سرا

يا - القمر

عيفى - اليصير

وسائل - والعذر

انى - المقاصير

ضريدة - تقدير

وجرحل - جبار

برغبة - مفعورا

أفعال - الاثر

ما - هجر

هواك - سرير

وددت - ظهرا

فاس - المقصر

هجرث - الهاجر

كانت - بالمشتري

أس - حقر

لا - بنسكرير

خل - القفار

أنت - وضميرا

لئن - يستتر

ليس - المستكبر

(ز)

طويل ٥٨

ولى - وهرز

(س)

طويل ٥٥

بسيط ٦٢

» ٨٩

عجيت - يتنفس

كأنها - مياس

سنوب - أنفاس

الصفحة

(ن)

٨٦	طويل	لأبرد - هيمانه
٩٢	»	قفا - الملوان
٣٤	»	جواب - ساكنا
٥١	»	يطيل - قنونه
٥٨	»	يدا - بيننا
٨٣	»	أقمت - بيننا
٢٩	بسيط	منهم - جنان
١٠	»	ما - يقرونا
١٥	وافر	تعلمت - الهنون
٢١	»	لقد - في العيان
١١٥	»	فان - عين
١٢٨	مديد	لا - المحن
٢١	كامل	وصفول - هذيان
١٣١	»	يا - الغزلان
٢٦	خفيف	كذب - ماني
٦٦	خفيف	يضحك - معنى
٩٣	»	ليس - منا
١٠	مقارب	تري - المعاني
٩٦	»	يقولون - شجني
٣٧	»	وري - يمن
٧٦	رجز	مهود - صفيان
١٢٧	مجزوء الرجز	لا - للجن

(هـ)

٥٢	طويل	ورب عنه
١٠٨	طويل	فككونوا - تصلوه
٣٨	بسيط	السر - له
٣٧	»	ما - فيه
٨٠	»	وليس - مفشيه
١٣١	مقارب	رأيت - السفاة

(ي)

١٠	طويل	أمن - العي
٨٧	»	غنيت - الحلي
١٠٦	»	دعوتي - معاديا
١١١	وافر	منعت - عليا
٦٥	خفيف	إن - الحلي
١٢٧	مجثت	وفائل - غيا

الصفحة

رجز ٥٣

صبان - منحرف

(ق)

١٤٦	طويل	أرافل - تحريق
٥٢	النسرح	صار - ورياقا

(ك)

١٣٣	طويل	أتاني - ويسبك
٤١	»	أقول - مما لك
١٢٩	بسيط	أما - هتكا
٣٧	مجزوء الوافر	دموع - ينهتك

(ل)

٩٩	طويل	زانبك - هامل
١٧	»	أقت - الأمل
٩٥	»	فان - وصل
٣٥	»	رسولك - صقله
٧٥	»	دنا - راحلا
٤٨	بسيط	أحب - أمل
٨٠	وافر	قليل - يقل
١٠٢	»	يقول - علل
١٠٨	»	ألا - وأهلي
٩٠	كامل	الآن - بخله
٩٣	مجزوء الكامل	أجزعت - الذميل
٦٤	سريع	ومن - والقاتل
٦٤	رجز	إذا - القافل

(م)

٩١	طويل	مهذبة - نجوم
٥٩	طويل	والذب - ملازم
٩٩	بسيط	طاف - نيم
٣١	وافر	عتاب - وخضم
٣١	وافر	غزال - غمايم
١٥٥	وافر	جعل - المستضام
٥١	وافر	مواصل - غما
٢	وافر	رقيب - المناما
٧٢	كامل	دع - باظالم
٩٣	كامل	لا - تتقيم
١٠٩	كامل	كانت - لإبراهي
٩٨	خفيف	أنت - كريما

28 FEB 2006

